هَارُوكِي مُورَاكَامِي

تسوكورو تازاكي عديم اللّون وسنوات حجّه

رواية

ترجمة:
أحمَد حسن المعيني

دار الآداب

تسوكورو تازاكي عديمُ اللون
وسنواتُ حجِّه

هاروكي موراكامي

تسوكورو تازاكي عديمُ اللون وسنواتُ حجِّه

ترجمها عن الإنجليزيَّة: أحمد حسن المعيني

دار الآداب - بيروت

تسوكورو تازاكي عديمُ اللون وسنواتُ حجّه

هاروكي موراكامي/كاتب يابانيّ

ترجمها عن الإنجليزية: أحمد حسن المعيني

الطبعة الأولى عام 2023

الطبعة الثانية عام 2024

ISBN 978-9953-89-748-6

Colorless Tsukuru Tazaki and His Years of Pilgrimage

copyright © 2013 by Harukimurakami Archival Labyrinth

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزءٍ منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكلٍ من الأشكال، دون إذنٍ خطّيٍّ مسبقٍ من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع

للمزيد من المعلومات عن دار الآداب الرجاء زيارة موقعنا:

www.daraladab.net

يمكنكم التواصل معنا على البريد الإلكتروني:

info@daraladab.net
rana.adab@gmail.com

Facebook: Dar Al Adab   Instagram: @daraladab   Twitter: @DarAlAdab

-1-

شهورٌ ستَّةٌ مرّت على تْشوكُورو تازاكي، وما خطرَ له فيها خاطرٌ إلَّا الموت، بدءًا من تموز/يوليو في عامه الجامعيّ الثاني وحتى كانون الثاني/يناير. كان قد أتمَّ العشرين من عمره، بَيْد أنَّ هذا الحدّ الفاصل (أي سنّ الرشد) لم يعنِ له شيئًا. فقد بدا له أنَّ التخلُّص من حياته هو الحلّ الطبيعيّ الأمثل، وما يزال عاجزًا عن تحديد السَّبب الذي حال بينه وبين إتمام هذه الخطوة الأخيرة. ذلك أنَّ اجتياز العتبة بين الحياة والموت كان أيسرَ عليه من ابتلاع بيضةٍ نيئة ملساء.

لعلَّه لم ينتحرْ آنذاك لأنَّه ما اهتدى إلى طريقةٍ تناسب ما يجيش في صدره عن الموت. لكنَّ الطريقة محضُ قضيَّةٍ هامشيَّة؛ فلو كان هناك بابٌ يُفضي إلى الموت مباشرةً، لما تردَّد في فتحه، وكأنَّه شيءٌ من أبجديَّات الحياة العاديَّة. ولكنْ لحسن الحظّ، أو لسوئه، لم يكن ثمَّة بابٌ كهذا في متناوله.

لطالما قال تسوكورو في نفسه: كان ينبغي لي حقًّا أن أموت آنذاك. فلو ماتَ، ما كان لهذا العالم الذي يعيشه الآن وهنا أيُّ وجود. كانت فكرةً آسرةً، ساحرة: ألا يوجد العالم الحاليّ، ولا يعود الواقعُ واقعًا. فلن يوجد تسوكورو في هذا العالم، ولن يعود لهذا العالم وجودٌ بالنسبة إليه.

غير أنَّ تسوكورو لم يستوعب السَّبب الذي أوصله إلى هذه المرحلة التي يتأرجحُ فيها على الهاوية. يعرف جيِّدًا أنَّ هنالك حَدَثًا قاده إلى هذا المكان، ولكنْ ما الذي يجعل الموت مسيطرًا عليه هكذا، ويطوِّقه نصف عامٍ تقريبًا؟ يطوِّقه. يا له من لفظٍ يصف الأمر بدقَّةٍ شديدة؛ فقد هوى تسوكورو إلى أحشاء الموت، مثل يونس في بطن الحوت، يقضي يومًا تلو آخر من أيَّامٍ غير محسوبة، تائهًا في الظلام والفراغ الآسن.

يمضي في حياته كمَنْ يسير في منامه، وكأنَّه قد مات أصلًا ولمَّا يتفطَّن إلى ذلك بعد. فكلَّما أشرقت شمسٌ، يصحو من نومه، يغسل أسنانه، ويرتدي ما تصل إليه يداه، ثمَّ يستقلُّ القطارَ إلى الجامعة، ويدوِّن الملاحظات في محاضراته. يتشبَّث بهذا الروتين اليوميّ كالقابض على عمود إنارةٍ في وسط عاصفة. لا يكلِّمُ الناسَ إلَّا اضطرارًا، ثمَّ يعودُ إلى العزلة في شقَّته، يفترش الأرض، ويسند ظهره إلى الجدار، ويفكِّر في الموت وخسارات حياته. أمامه متاهةٌ هائلةٌ مظلمة، تُفضي إلى باطن الأرض، لا يرى إلَّا سحابةً كثيفةً من اللاشيء تدور حوله، ولا يسمع إلَّا صمتًا عميقًا يعتصر أذنَيْه.

فإنْ لم يفكِّر في الموت غدا خاليَ العقل. لم يكن يصعب عليه أن يمتنع عن التَّفكير؛ فلم يكن يقرأ الصحف، أو يسمع الموسيقى، وما كانت له رغباتٌ جنسيَّةٌ تُذكر. أمَّا ما يحدث في العالم الخارجيّ

فلا يعنيه في شيء. وحين يضجر من غرفته، يهيمُ في الحيّ أو يذهب إلى محطّة القطار. هناك يجلس على مقعدٍ ينظر إلى القطارات، قادمها ومغادرها، واحدًا تلو الآخر.

يستحمُّ كلَّ صباح، ويفرك شعره جيّدًا بـ«الشامبو»، ويغسل ملابسه مرّتَيْن في الأسبوع. ذلك أنَّ النظافة كانت ركيزةً من ركائز حياته. أمّا الطعام فيكاد لا يلتفت إليه. يتناول غداءه في «كافيتيريا» الكلّية، لكنّه بالكاد يأكل وجبةً مُعتبرةً غيرَها. فإنْ جاع، ذهب إلى «السوبرماركت» واشترى تفّاحةً أو بعض الخضار. وفي بعض الأحيان، يأكل خبزًا حافًّا، يليّنه بالحليب إذْ يسكبه من العلبة مباشرةً. وحين يأتي موعد النوم، يتجرَّع كأسًا من الوِسكي، كأنّه دواء. لحسن الحظّ أنّه لم يكنْ شَرِّيبًا؛ فما هي إلّا جرعةٌ بسيطة من الكحول حتّى ينام. لم يكنْ يرى أحلامًا قطّ، لكنّه حتّى إنْ حَلِم، حتّى إنْ تراءت له صورٌ تشبه الأحلام من حوافّ عقله، فلن تجد على منحدرات وعْيه مكانًا تحطّ فيه، فتنزلق سريعًا إلى الفراغ.

ما جعل الموتَ يسيطرُ على تفكير تسوكورو كان واضحًا. فذات يومٍ أبلغه أصدقاؤه الأربعة المقرّبون أنّهم لا يريدون رؤيته أو الحديث معه بعد ذلك أبدًا. كان قرارًا حاسمًا ومفاجئًا، ليس فيه أيّ مجالٍ للمساومة. لم يقدّموا له أيَّ تفسيرٍ لهذا القرار القاسي. ولا كلمةٍ واحدة. وهو أيضًا لم يجرؤ على السؤال.

تعود صداقتهم إلى المرحلة الثانويّة، لكنّهم لم يصدُّوه عنهم إلّا بعد أن ترك بلدته والتحق بجامعةٍ في طوكيو. ولذلك فإنّهم حين طردوه لم يؤثّروا سلبًا على «روتينه» اليوميّ؛ فلم يكن قلقًا من أن يقابل أحدًا منهم صدفةً في الطريق. غير أنَّ هذا لا يعدو أن يكون مراوغةً

وتحايلًا على النفس. فالحقيقةُ أنَّ الألم الذي ألمَّ به شديد، يزداد ثقلُه عليه بفعل المسافة البعيدة بينه وبينهم. ذلك أنَّ اغترابه ووحدته أشبه بالكابل الذي يمتدّ مئات الكيلومترات، تشدُّه بكرةٌ ضخمةٌ إلى آخر حدٍّ له. وعبر هذا الخطّ الممدود كان يتلقَّى في ليله ونهاره رسائل يعجز عن فهمها. تتراوح تلك الرسائل في قوّتها، مثل ريحٍ تهبّ بين الأشجار، فتصله متقطّعةً، تخزّ أذنَيْه.

كانوا ثلاثة فتيانٍ وفتاتَيْن، التقوا في صفٍّ واحدٍ في مدرسةٍ ثانويَّةٍ حكوميَّة في ضواحي «ناغويا». وفي عامهم الأوّل، اشتركوا جميعًا في مبادرةٍ تطوُّعيَّة أثناء العطلة الصيفيَّة، فأصبحوا أصدقاء، وظلُّوا هكذا مجموعةً مترابطةً رغم تفرُّقهم إلى صفوفٍ أخرى في العام التالي. كانت المبادرة التي جمعتْهم جزءًا من مشروعٍ صيفيّ في مادَّة الدراسات الاجتماعيَّة، غير أنَّهم قرّروا التطوُّع معًا في مبادراتٍ أخرى لاحقًا.

هكذا كانوا يذهبون في العطلات في تَشْيارٍ جبليّ[1]، ويلعبون التنس، ويسبحون في شبه جزيرة «تشيتا»، أو يجتمعون في بيت واحدٍ منهم للدراسة قُبيل الاختبارات. غير أنَّ أكثر ما كانوا يفعلونه هو اللقاء في مكانٍ ما، أو قضاء الساعات في الأحاديث، لا لأنَّهم يحضِّرون مسبقًا ما سوف يتحدَّثون فيه، بل لأنَّهم دائمًا ما يجدون شيئًا يتحدَّثون عنه.

الصدفةُ المحضّ هي التي جمعت بينهم؛ فقد كانت هناك مبادراتٌ تطوُّعيَّةٌ كثيرة يمكن أن يختاروا منها، غير أنَّ كلًّا منهم اختار على حدةٍ تدريسَ حصصٍ لتلاميذ المرحلة الابتدائيَّة (ومعظمهم كانوا أطفالًا لا يريدون الالتحاق بالمدرسة). كان هذا البرنامج تحت إشراف

(1) التّشيار ترجمةٌ مقترحة للنشاط المعروف بالإنجليزيَّة باسم «gnikih». (المترجم)

كنيسةٍ كاثوليكيَّة، ولم يختر أحدً من الطلَّاب الخمسة والثلاثين في صفِّهم هذا البرنامج إلَّا أولئك الخمسة. في أوَّل الأمر، شاركوا في معسكرٍ صيفيٍّ دام ثلاثة أيَّامٍ قرب ناغويا، فكانت فرصةً للاقتراب من الأطفال والتآلف معهم.

وكلَّما حانت استراحةٌ، تجمَّع أولئك الخمسة، يتعارفون، ويعبِّرون عن أفكارهم، ويفتحون قلوبهم للحديث عن أحلامهم ومشكلاتهم. وما انتهى المعسكر الصيفيّ إلَّا وكان كلّ واحدٍ منهم يشعر بأنَّه وجد المكان المناسب، المكان الذي يحتاج إليه، مع أفضل صحبةٍ وأكملها. نما بينهم حسٌّ فريدٌ من الانسجام؛ إذْ كان كلٌّ منهم يحتاجُ إلى الآخرين، بقدر شعوره بأنَّ الآخرين في حاجةٍ إليه. كان هذا التقارب بينهم أشبه باندماجٍ كيميائيٍّ حميد، غير أنَّه من ثمار الصدفة وحدها. كان شيئًا لا يحدث إلَّا مرَّةً واحدة؛ فقد يجمعُ المرءُ الموادّ نفسها، ويحضِّر كلَّ شيءٍ بدقَّةٍ شديدة، لكنَّه لا يصل إلى النتيجة نفسها أبدًا.

بعد تلك المرحلة التطوُّعية الأولى، قضوا ما يقرب من إجازتَيْن أسبوعيَّتَيْن في كلِّ شهرٍ يعملون في ذلك البرنامج التدريسيّ، يعلِّمون التلاميذ، ويقرؤون لهم، ويلعبون معهم. كانوا كذلك يجزُّون العشب، ويطلون المبنى، ويصلحون الألعاب. وهكذا ظلُّوا سنتَيْن في هذا البرنامج حتى انتهوا من المرحلة الثانويَّة.

أمَّا مصدر التوتُّر الوحيد الذي كان بينهم فمردُّه أنَّهم ثلاثة فتيانٍ وفتاتان. فلو ارتبط فَتَيانٌ اثنان بالفتاتَيْن، سيبقى واحدٌ من الفتيان وحيدًا، مُهمَلًا. لا شكَّ في أنَّ ذلك الاحتمال ظلَّ يراودهم، مثل سحابةٍ دائريَّةٍ صغيرة، كثيفة. غير أنَّ هذا لم يحدث، ولم يبدُ حتَّى أنَّه احتمالٌ قريب.

لعلَّه من قبيل الصدفة أنَّهم جميعًا ينتمون إلى أسَرٍ من ضواحي المدن، من قمَّة الطبقة الوسطى. كان ذووهم من أولئك الذين وُلدوا بعد الحرب العالميَّة الثانية، وجميعُ آبائهم من أصحاب المهن. لم تبخل تلك الأُسَر بشيءٍ في تعليم أطفالها، وكانت (ظاهريًّا على الأقلّ) أسرًا مستقرَّةً هادئة، لم تقع فيها حادثة طلاقٍ واحدة، ومعظم الأمَّهات ربَّات بيوت. أمَّا المدرسة الثانويَّة التي التحق الأبناء بها فكانت تولي اهتمامًا شديدًا بالتحصيل العلميّ، لذلك كانت درجاتهم جيِّدة. في المجمل إذن، كانوا يلتقون في أشياءٍ أكثر بكثيرٍ ممَّا يفترقون فيه.

ومن قبيل الصدفة أيضًا أنَّهم جميعًا عدا تسوكورو تازاكي يشتركون في أمرٍ صغيرٍ؛ فأسماء عائلاتهم تشير إلى لونٍ من الألوان. الفتى الأوَّل ابنُ أكاماتسو (الصنوبر الأحمر)، والآخر ابنُ أومي (البحر الأزرق)، والفتاة الأولى ابنةُ شيران (الجذر الأبيض)، والأخرى ابنة كورونو (الحقل الأسود). تازاكي هو الاسم الوحيد الذي لا يشير إلى أيِّ لون. ومنذ البداية، شعر بأنَّه شبهُ منبوذ. بطبيعة الحال لا علاقة بين اللَّون في الاسم وشخصيَّة صاحبه. يدرك تسوكورو ذلك جيِّدًا، لكنَّ الأمر كان يصيبه بخيبة أمل، بل بالألم أيضًا. وسرعان ما بدأ الأربعة يتنادَون بالألقاب: فهذا أكا (أحمر)، وذاك أو (أزرق)، وهذه شيرو (بيضاء)، وتلك كورو (سوداء). هو الوحيد الذي ظلَّ كما كان: تسوكورو. قال في نفسه: لو أنَّ لي لونًا في اسمي أنا أيضًا، لأصبح كلُّ شيءٍ في أكمل حال.

كان أكا أكثرهم تفوُّقًا. لم تكن تبدو عليه أماراتُ الجِدّ في الدراسة، لكنَّه كان الأوَّل على صفِّه في جميع المواد. لا يتباهى بذلك أبدًا، بل يفضّل البقاء متواريًا، في خلفيَّة المشهد، كما لو أنَّ الذكاء مدعاةٌ

للحَرَج. كان كغيره من قصار القامة (فلم يزد طوله عن 161.5 سم)، ما إنْ يضع شيئًا نصب عينَيْه، مهمّا كان تافهًا، حتّى يُقدِم عليه دون تراجع. يضيقُ صدرُه من القواعد غير المنطقيّة التي يفرضها معلّمون لا يتوافقون مع معاييره العالية. يكره الخسارة؛ فكلّما خسر مباراةً في التنس، ساء مزاجُه. لا يعبسُ أو يبدي ردّ فعل، لكنّه ينحسر في هدوءٍ، على غير عادته. أمّا الأربعة الآخرون فكانوا يستملحون طباعه هذه، ويستغلّونها لمغايظته، إلى أن يستسلم في نهاية المطاف ويضحك معهم. وكان ابن أستاذٍ في الاقتصاد بجامعة ناغويا.

أمّا أو فكان مفتول القوام، ذا شفتَيْن ممتلئتَيْن وأنفٍ بارز، عريض الجبهة والصدر والكتفَيْن. يلعب مهاجمًا في لعبة الرغبي، واختير في عامه الأخير قائدًا للفريق. كان شديد الحماس في الملعب، كثير الجروح والكدمات. لم يكن متفوّقًا أو مُجدًّا في دراسته، لكنّه كان مرحًا ومحبوبًا للغاية بين زملائه. ينظر إلى الناس في أعينهم مباشرةً، ويتحدّث بصوتٍ قويٍّ واضح، وله شهيّةٌ مذهلة في الأكل؛ إذْ يبدو كأنّما يستمتع بكلّ ما يوضع أمامه. لا ينسى أسماء الناس أو وجوههم، ونادرًا ما يذكر أحدًا بسوء. يُحسن الإنصات للآخرين، قائدٌ بالفطرة. ولا ينسى تسوكورو كيف كان يجمع فريقه حوله قبل المباراة لبثّ الحماس فيهم.

يجأرُ فيهم قائلًا: «اسمعوا! سوف نفوز. إنّما كيف سنفوز، وبأيّ نتيجة. أمّا الخسارةُ فلا مكان لها. تسمعون؟ الخسارة لا مكان لها!».

فيردُّون قبل أن يهرعوا إلى الملعب: «لا مكان لها!».

الحقيقةُ أنّ فريقهم لم يكن فريقًا بارزًا. صحيحٌ أنّ أو كان ذكيًا ورياضيًا مميزًّا، إلّا أنّ الفريق نفسه متوسّط المستوى، وعادةً ما يخسرون

حين يواجهون فرقًا من المدارس الخاصّة، تلك التي تستقطب اللاعبين من جميع البلاد في مِنَحٍ رياضيّة. فيقول لرفاقه: «ما يهمّ هو إرادة الفوز. لا يمكن أن نفوز دائمًا. نفوز أحيانًا، ونخسر أحيانًا».

فتقول كورو بسخريّتها المعهودة: «وأحيانًا تُلغى المباراةُ بداعي المطر».

يهزّ أو رأسه في أسى. «تخلطين بين الرغبي وغيرها من الألعاب كالبيسبول أو التنس. مباريات الرغبي لا تُلغى أبدًا بداعي المطر».

فتسأل شيرو في عَجَب: «تلعبون حتّى أثناء المطر؟». لم تكن شيرو تفقه شيئًا في الرياضة، ولا تأبه بها على الإطلاق.

فيقول أكا بنبرةٍ جادّة: «صحيح. مباريات الرغبي لا تُلغى أبدًا، مهما كان المطر غزيرًا. ولذلك يغرق كثيرٌ من اللاعبين أثناء المباريات».

تقول شيرو: «يا إلهي، هذا مريع!».

فتعقّب كورو بنبرةٍ لا تخلو من ازدراء: «كفى غباءً. إنّه يمزح».

ويُكمل أو: «ما أريد قوله هو أنّ الإنسان إذا ما أراد أن يكون رياضيًّا، فعليه أن يتعلّم فنّ الخسارة».

فتقول كورو: «ولا شكّ أنّك تدرّبتَ كثيرًا على هذا الفنّ».

كانت شيرو طويلةً نحيفة، ذات قوامٍ يليق بعارضات الأزياء، وملامح رشيقةٍ تليق بدميةٍ يابانيّةٍ تقليديّة. شعرها الطويل حريريٌّ أسود لامع، ومعظم من يمرّ بها في الشارع لا بدّ من أن يلتفت كي يحظى بنظرةٍ أخرى، غير أنّها تشعر بالحَرَج من جمالها. كانت فتاةً جادّةً، لا تطيق لفت الانتباه إليها. تكون في أسعد حالاتها حين تعلّم الأطفال

العزف على البيانةِ في برنامج التدريس التطوُّعي. حينذاك تبدو رائقةً، أكثر من أيِّ وقتٍ آخر. تقول إنَّ هناك أطفالًا كثيرين ليس لهم كثير حظٍّ في التحصيل الدراسيّ، لكنَّهم يمتلكون موهبةً فطريَّةً للموسيقى، ومن المؤسف ألَّا نطوّرها.

لم يكن لدى المدرسة سوى بيانةٍ قائمةٍ أشبه بالمقتنيات الأثريَّة، فانطلق خمستُهم في حملةٍ لجمع الأموال كيما يشتروا بيانةً جديدة. عملوا بدوامٍ جزئيٍّ في العطلة الصيفيَّة، واستطاعوا الحصول على مساعدةٍ من شركةٍ لصنع الأدوات الموسيقيَّة. وأخيرًا، أثمر جهدهم هذا في ربيع عامهم الأخير، فاشتروا بيانةً كبيرةً للمدرسة. لاقت حملتُهم صدى طيِّبًا بين الناس، وكتبتْ عنها الصحف.

كانت شيرو هادئةً في أغلب الأحيان، ولكنْ ما إن يتحوَّل النقاشُ إلى الكلاب والقطط حتَّى يضيء وجهُها وينطلق منها الكلام دون توقُّف. كانت تعشق الحيوانات، وتحلم بأن تصبح طبيبةً بيطريَّة، لكنَّ تسوكورو لم يستطع أن يتصوَّرها وهي تمسك مبضعًا تفتح به بطن كلبٍ من اللابرادور، أو تدخل يدها في شرج حصان. فهذا بالضبط ما ينبغي أن تتدرَّب عليه لو أنَّها التحقتْ بكليَّةٍ للطبّ البيطري. كان أبوها يملك عيادةً للتوليد والأمراض النسائيَّة في ناغويا.

وأمَّا كورو فلم تكن جميلةً، لكنَّها شغوفةٌ مرحةٌ دائمة الفضول. لها جسمٌ ممتلئٌ وعظامٌ كبيرة، وصدرٌ بارزٌ رغم أنَّها لم تجاوز السادسة عشرة. كانت فتاةً مستقلَّةً قويَّة، سريعة البديهة، طَلِقة اللسان. مستواها ممتازٌ في العلوم الإنسانيَّة، لكنَّها فاشلةٌ تمامًا في الرياضيَّات والفيزياء. كان أبوها يدير شركة محاسبةٍ في ناغويا، غير أنَّه لم يكن ثمَّة أملٍ في أن تساعده ابنته في هذا العمل. كثيرًا ما كان تسوكورو يساعدها في

واجبات الرياضيّات، ورغم سخريّتها اللّاذعة، إلّا أنّ حسّها في الدعابة طريفٌ مسلٍّ، ولذلك يطيب له الحديث معها. كانت قارئةً نهمة أيضًا، لا تراها إلّا وهي تتأبّط كتابًا.

هي وشيرو صديقتان منذ المرحلة الإعداديّة، من قبل أن يصبح الخمسة أصدقاء. وكم كان مبهجًا أن تراهما معًا، في ذلك المزيج الفريد الآسر، بين فنّانةٍ جميلةٍ خجلى، وفتاةٍ ذكيّةٍ ساخرة، حاضرة النكتة.

وحده تسوكورو تازاكي الذي ما كانت له ميزةٌ خاصّة؛ فدرجاته في المدرسة كانت أعلى من المتوسّط بقليل، ولم يكن في الواقع يولي اهتمامًا كبيرًا بالتّحصيل، رغم أنّه ينصت جيّدًا في الحصص ويحرص على تأدية الحدّ الأدنى من الدراسة كي ينجح في المواد. هي عادتُه منذ الصغر، لا تختلف عن غسل يدَيْه قبل الأكل، أو تنظيف أسنانه بعد الأكل. ولذلك، فعلى الرّغم من أنّه لم ينل درجاتٍ ممتازةً قطّ، إلّا أنّه لم يواجه أيّ صعوبةٍ في النجاح. وما دام محافظًا على مستواه، فلا شيء يدفع أبوَيْه إلى الضغط عليه كي يلتحق بحصصٍ تحضيريّةٍ أو دروسٍ خصوصيّة.

لم يكن يكره الرياضة، لكنّه لم يجد في نفسه ما يكفي من الاهتمام بها كي ينضمّ إلى فريق. يلعب التنس أحيانًا مع أسرته أو أصدقائه، أو يذهب بين فترةٍ وأخرى للتزلّج على الجليد أو السباحة. ولا شيء غير ذلك. كان مليحًا، بل إنّ بعض الناس كانوا يقولون له ذلك صراحةً، لكنّ ما يقصدونه في الواقع هو أنّه لا يشكو من عيوب. كان في بعض الأحيان حين ينظر إلى وجهه في المرآة، يُبصر ضَجَرًا لا يزول. فلا يجد في نفسه اهتمامًا عميقًا بالفنون، أو هوايةً أو مهارةً خاصّة. كان صموتًا، متحفّظًا، ما يفتأ يحمرّ خجلًا، ولا يشعر بالراحة قطّ حين يلتقي بأشخاصٍ لا يعرفهم.

إنْ ضغطتَ على أحدٍ كي يحدِّد شيئًا يميِّز تسوكورو، فقد يشير إلى أنَّ أسرته كانت أغنى أسرةٍ بين أسر الأصدقاء الخمسة، أو أنَّ إحدى خالاته كانت ممثِّلةً (معروفةً إلى حدٍ ما لكنَّها لم تكن نجمةً لامعة). أمَّا تسوكورو نفسه فلم يكن يمتلك صفةً واحدةً تستحقّ الزهو. هذا ما كان يراه هو على أيِّ حال، فكلُّ شيءٍ فيه كان اعتياديًا، باهتًا، شاحب اللَّون.

وما اهتمّ اهتمامًا حقيقيًا بشيءٍ غير محطَّات القطار، دون أن يعرف سببًا لذلك سوى أنَّها تستهويه منذ طفولته ويحبّ النظر إليها. لا يهمّ ما إذا كانت محطَّة قطارٍ سريع، أو محطَّةً ريفيَّةً أحاديَّة المسار، أو محطَّةً بدائيَّةً لتجميع طرود الشحن. يحبُّها كلّها، بشتَّى أنواعها، ما دامت محطَّة سككٍ حديديَّة. فكلُّ شيءٍ في المحطَّات يلامس شغاف قلبه.

كان في صِغَره يستمتع بتركيب القطارات، شأنه شأن معظم الصبية، غير أنَّ ما يُبهره فيها ليس القاطرات أو العربات المتقنة، ولا مسارات السكك المتقاطعة، أو تلك المشاهد المصمَّمة بذكاء، إنَّما كان يهوى نماذج المحطَّات العاديَّة، تلك التي توضع بين الأجزاء الأخرى، مثل خاطرٍ متأخِّر. يروقه أن يشاهد القطارات التي تمرّ من المحطَّة، أو تتباطأ كي تقف على رصيفها. يتخيَّل الركَّاب ما بين قادمٍ ومسافر، والتنبيهات التي تُبثّ في مكبّرات الصوت، ورنين التنبيه قُبيل انطلاق القطار، والعاملين في المحطَّة وهم يؤدُّون أعمالهم في خفَّةٍ وسلاسة. يختلطُ الحقيقيّ بالمتخيَّل في ذهن تسوكورو، فتختلجُ أطرافه في بعض الأحيان من أثر النشوة. لكنَّه لم يستطع قطّ أن يشرح للآخرين سرّ انجذابه إلى المحطَّات. وحتَّى إن شرح لهم، فسوف ينظرون إليه على أنَّه صبيٌّ غريب الأطوار. بل إنَّ تسوكورو نفسه كان يتساءل في نفسه ما إذا كان يشكو من علَّة.

ورغم افتقاره إلى شخصيّةٍ مدهشة، أو صفاتٍ يتفرّد بها عن الآخرين، ورغم أنّه لم يكن يسعى إلى ما فوق المتوسّط في كلّ شيء، إلّا أنَّ ثمّةَ شيئًا فيه (أو ما بدا كذلك) غيرُ عاديّ، شيئًا يختلف به عمَّن سواه. ظلّ هذا التناقض يُربكه ويحيّره، منذ صباه وحتى الآن وقد بلغ السادسة والثلاثين. في بعض الأحيان تكون حَيرته مؤقّتةً، هامشيّة، لكنّها في أحيانٍ أخرى تشتدّ وتتعمّق.

لا يستوعب تسوكورو السّبب الذي جعله واحدًا من ضمن الأصدقاء الخمسة. أفهل كانوا في حاجةٍ إليه حقًّا؟ أولن يشعروا براحةٍ أكبر ويقضوا وقتًا أمتع لو أنّه لم يكن بينهم؟ أتُراهم لم يكونوا يدركون ذلك بعد، وكانت مسألة وقتٍ لا أكثر إلى أن يدركوا الحقيقة؟ كلّما استغرق في التفكير، قلّ فهمه. فمحاولةُ قياس أهمّيّته بالنسبة إلى المجموعة كانت أشبه بوزن شيءٍ لا توجد له قيمةٌ معياريّة؛ وعندها لا يستقرّ مؤشّر الميزان على رقم.

غير أنَّ هذه الهواجس لم يبدُ أنّها تؤرّق الأربعة الآخرين. فمن الواضح لتسوكورو أنّهم كانوا يحبّون أن يكونوا معًا في مجموعةٍ واحدة، كما لو أنّهم شكلٌ خماسيٌّ متساوي الأضلاع، لا يمكن أن يضمّ سوى خمسة أشخاص، لا أقلّ ولا أكثر. هذا ما استقرّ في أذهانهم، فأيقنوا به.

وبطبيعة الحال كان تسوكورو سعيدًا بذلك، فخورًا بكونه جزءًا لا غنى عنه من ذلك الخماسيّ. كان يحبّ أصدقاءه الأربعة، ويحبّ شعوره بالانتماء حين يكون معهم. كأنّما كان شجرةً صغيرةً تمتصّ غذاءها من التربة؛ إذْ يحصل على ما يحتاج إليه من قوتٍ من هذه المجموعة، يتغذّى به، ويحتفظ بالباقي مصدرَ حرارةٍ في وقت الحاجة. ورغم ذلك فقد كان ينتابه خوفٌ دائمٌ مزعجٌ بأنّه سوف ينفصل ذات يومٍ عن هذه الجماعة

الحميمة، أو يُطرد منها ويُترك وحيدًا. كان القلقُ يبرز له مثل صخرةٍ مسنَّنةٍ مشؤومة، لم تنكشف إلّا مع انحسار الماء، أي ذلك الخوف الذي استبدّ به.

***

قالت له سارا كيموتو وقد بدت منبهرةً من حديثه: «إذن فقد كنتَ تحبّ محطّات القطار جدًّا، منذ طفولتك؟»

أومأ تسوكورو في حذر؛ فلم يكن يريدها أن تراه واحدًا من رجال أوتاكو «الدحّيحين»[1] الذين كان يعرفهم في قسم الهندسة، أولئك المنغمسين في أعمالهم ولا يبدو أنّ لهم حياةً أخرى إلّا في العمل. غير أنّ مسار الحوار بينهما يوحي بأنّها قد تراه على هذا النحو تمامًا. فقال: «نعم. لطالما أحببتُ محطّات القطار، منذ أن كنتُ طفلًا».

قالت: «من الواضح إذن أنّ حياتك سارت على نحوٍ متّسقٍ ثابت». بدا الأمر مدهشًا لها، على أنّه لم يلحظ دلالةً سلبيّةً في نبرتها.

- «ولكنْ لماذا محطّات القطار تحديدًا، لستُ أدري».

ابتسمتْ. «لا بدّ من أنّه كان نداءَك الداخليّ».

- «ربّما».

---

(1) في الأصل (Nerd)، وهو وصفٌ يعبّر عنه قاموس «أميركن هيرتج دكشنري» بأنّه «الشخص الأحمق، الأخرق، أو غير الجذّاب، أو الشخص المبرّز الذي يكرّس وقته وجهده في المجال العلميّ أو التقنيّ لكنّه قد يكون أخرق في الحياة الاجتماعيّة». والكلمة تُستخدم الآن على نطاقٍ واسعٍ للإشارة إيجابًا أو سلبًا إلى الشخص المهووس بمجالٍ ما حدّ الإتقان لكنّه فقير الحظّ في المهارات الاجتماعيّة. حتى الآن لا يوجد مقابلٌ عربيّ مُعتمد لهذه الكلمة، ولذلك تنتشر بأصلها الإنجليزيّ بين العرب. وقد آثرتُ هنا أن أقترح كلمة «الدحّيح» مقابلًا لها، وهي كلمةٌ منتشرةٌ في مصر ودول الخليج رغم أنّها لا تعني بالضرورة أن يكون الشخص أخرق. (المترجم)

تساءل تسوكورو في نفسه كيف وصل بهما الحوار إلى هذا الموضوع. فالأمر قد مضتْ عليه فترةٌ طويلةٌ جدًّا، ويودُّ لو يمسحه من ذاكرته. لكنَّ سارا، لسببٍ لا يعلمه، أرادت أن تعرف أكثر عن ذكرياته في المرحلة الثانويَّة. تريد أن تعرف أيَّ نوعٍ من التلاميذ كان، وماذا كان يفعل. لكنَّه لم يشعر بنفسه إلّا وقد انتقل إلى الحديث عن مجموعته وأصدقائه: الأربعة أصحاب الألوان، وعديم اللَّون تسوكورو تازاكي.

جلس تسوكورو وسارا في حانةٍ على ضواحي «إبيسو». كانا قد حجزا طاولةً للعشاء في مطعمٍ يابانيّ الطراز تعرفه سارا، ولكنْ نظرًا لأنَّها تناولت غداءها في وقتٍ متأخِّرٍ ولم تكن جائعة، فقد أُلغيا الحجز وخرجا لشرب «كوكتيل» في مكانٍ ما. تسوكورو أيضًا لم يكن جائعًا، فوافقها على إلغاء العشاء. لم يكن كثير الأكل أصلًا، ويكفيه أن يأكل شيئًا من الجبن والمكسَّرات في الحانة.

سارا تكبره بعامَين، وتعمل في شركة سفريَّاتٍ كبيرة، وهي متخصِّصةٌ في حجز الرحلات الشاملة إلى الخارج، وكثيرًا ما تسافر للعمل. أمَّا تسوكورو فيعمل (كما شاء له «نداؤه الداخليّ») في شركةٍ للسكك الحديديَّة، في قسمٍ يشرف على تصميم محطَّات القطار في الجزء الغربيّ من منطقة «كانتو» قرب طوكيو. ورغم أنَّه لا يوجد رابطٌ وظيفيٌّ مباشرٌ بينهما، إلَّا أنَّ الوظيفتَيْن لهما علاقةٌ بقطاع النقل. التقاها ذات مرَّةٍ في حفلٍ أقامه رئيسه في بيته الجديد، فتبادلا عنوان البريد الإلكترونيّ، وخرجا في ثلاثة مواعيد. في موعدهما الثالث بعد العشاء، أخذها إلى شقَّته وطارحها الغرام، فيما يبدو تطوُّرًا طبيعيًّا للعلاقة بينهما. أمَّا اليوم، فقد مضى أسبوعٌ على تلك الليلة، وهي مرحلةٌ حسَّاسةٌ في هذه العلاقة الناشئة. فإنْ استمرَّت لقاءاتهما بعد هذا، من المؤكَّد أن تبلغ الأمور بينهما مبلغ الجدّ. كان تسوكورو في

السادسة والثلاثين، وهي في الثامنة والثلاثين، ما يعني أنَّ الأمر لم يكنَ إعجابًا نَزِقًا على طريقة المراهقين في المدارس الثانويَّة.

أُعجب بها منذ أن رآها أوَّل مرَّة. لم تكن جميلةً بالمعايير المتعارف عليها؛ فعظام وجنتَيْها بارزةٌ تضفي عليها ملمحًا من العناد والتصلُّب، وأنفها نحيفٌ حادّ، غير أنَّ في وجهها شيئًا جذبه إليها، شيئًا غامضًا يفيض حيويَّة. عيناها صغيرتان، لكنَّهما تتَّسعان فجأةً حين تمعن في النظر إلى شيءٍ ما. عينان سوداوان، جريئتان، تفيضان فضولًا.

في مكانٍ ما على ظهر تسوكورو منطقةٌ شديدة الحساسيَّة، لكنَّه لم يكن منتبهًا إليها. بقعةٌ ناعمةٌ لا يمكنه الوصول إليها، وعادةً ما تكون مغطَّاةً فلا تراها العين. ولكنْ ما إن تنكشف لأحدٍ يمرُّ عليها بإصبعه، حتى يجيش شيءٌ في داخل تسوكورو. تُفرَزُ مادةٌ خاصَّة، تنطلق عبر الأوعية الدمويَّة إلى كلّ طرفٍ من بدنه. كان هذا الباعث الخاصّ جسديًّا وعقليًّا في الوقت نفسه، يورث صورًا واضحةً في عقله.

حين التقى سارا أوَّل مرَّةٍ، أحسَّ بإصبعٍ تمتدّ وتضغط على تلك البقعة في ظهره. تحدَّثا طويلًا في ذلك اليوم، رغم أنَّه لم يَعُد يذكر كثيرًا من ذلك الحديث. ما استقرَّ في ذاكرته ذلك الإحساسُ في ظهره، والأثرُ الفاتن الذي انبثق في عقله وجسده. ارتخى شطرٌ منه، واشتدَّ شطرٌ آخر. هكذا كان إحساسه، فما عساه يعني؟ راح تسوكورو يفكِّر مليًّا عدَّة أيَّام، لكنَّه بطبيعته لم يكن يُحسن التَّفكير المجرَّد. لذلك أيملَ[1] لسارا، ودعاها إلى العشاء. كان مصمِّمًا على معرفة ما يعنيه ذلك الشعور، ذلك الإحساس.

---

(1) أيْمَلَ ويُؤيمل: يرسل رسالةً بالبريد الإلكترونيّ (إيميل). (المترجم).

أحبّ تسوكورو طريقة ملبسها مثلما أحبّ ملامحها. كانت ملابسها دائمًا بسيطةً هادئة، لكنَّها جميلةٌ وتناسبها تمامًا. ولم يكن يصعب على تسوكورو تصوُّر أنَّ تلك الملابس التي تبدو بسيطةً لا بدّ من أنَّها كلَّفتها وقتًا طويلًا في انتقائها، علاوةً على أنّها لم تكن رخيصة. أمَّا «المكياجُ» و«الاكسسوارات» فكانت راقيةً، على تواضعها. لم يكن تسوكورو يدقّق في الملابس كثيرًا، لكنَّه يحبّ أن يرى امرأةً متأنّقة، مثلما يستمتع بالموسيقى الجميلة.

كانت أختاه اللتان تكبرانه شغوفتَيْن بالأزياء، ويذكر كيف كانتا تحرصان كلّ الحرص على معرفة رأيه في ملبسهما قبل الخروج في موعدٍ غراميّ. «ما رأيك؟ هل يتناسب هذا مع هذا؟»، فيقدِّم رأيه بكلّ صدق، من منظور الذكور. كم كان يسعده أن تحترم أختاه رأيه، فما لبث هذا الأمر أن أصبح عادةً مستمرَّة.

راح تسوكورو يعرّي سارا في خياله وهو يرشف من مشروبه الخفيف. يفتح فستانها من الخلف، ثمَّ يُنزل السحَّاب على مهل. لم يطارحها الغرام سوى مرَّةٍ واحدة، لكنَّها كانت مذهلةً، مُشبعة. تبدو سارا أصغر من عمرها بخمس سنوات، سواء أكانت عاريةً أم غير ذلك، ببشرةٍ بيضاء صافية، ونهدَيْن مكوَّرَيْن لا يشكوان زيادةً في الحجم أو نقصان. استمتع كثيرًا في مداعبتها وملاطفتها، فلمَّا أفرغ شهوته شعر بسكينةٍ وهو يحتضنها. لكنَّ هذا لم يكنْ كلّ ما في الأمر؛ فقد كان يعي تمامًا أنَّ هنالك شيئًا أكبر. فمطارحةُ الغرام اقترانٌ، وتواصلٌ بين اثنيْن. فيه تأخذ شيئًا، وتُعطي.

ـ «حدِّثيني عنك أنتِ في المرحلة الثانويَّة».

هزَّت رأسها. «لا أودُّ الحديث عن ذلك. كانت مرحلةً مملَّة. سأُخبرك عنها ذات يوم، ولكن ليس الآن. أريد أن أعرف عنك. ماذا حدث لمجموعتكم؟»

اغترف تسوكورو حفنةً من المكسَّرات فألقى بها في فمه.

ـ «كانت لديْنا بضع قواعد ضمنيَّة، من بينها أن نحاول قدر الإمكان أن نكون نحن الخمسة معًا في كلّ أنشطتنا. نتجنَّبُ أن يستقلّ اثنان مثلًا في أمرٍ ما، خشية أن تنهار المجموعة. كان علينا أن نبقى وحدةً واحدة. لا أعرف كيف أصف الأمر... حاولنا جاهدين أن نحافظ على المجموعة وكأنَّها جماعةٌ منظَّمةٌ متآلفة».

فاكتسى صوتُها استغرابًا واضحًا وهي تقول: «جماعةٌ منظَّمةٌ متآلفة؟»

احمرَّت وجنتاه قليلًا. «كنَّا تلاميذ في الثانويَّة، ولديْنا بالطبع أفكارٌ غريبة».

فنظرتْ إليه في اهتمامٍ شديد، وأمالت رأسها شيئًا يسيرًا. «لا أراها غريبة، ولكنْ ما الغرض من تلك الجماعة؟»

ـ «الغرض الأساسيّ كما قلتُ سابقًا هو التطوُّع في برنامجٍ تدريسيّ. هناك التقينا، واكتشفنا شغفنا بهذا الأمر. وظلّ هذا غرضًا جمعيًّا مهمًّا بالنسبة إلينا. ولكنْ بمرور الوقت، أصبحت الجماعةُ هدفًا في حدّ ذاته».

ـ «تقصدُ أنَّ الحفاظ على المجموعة واستمراريَّتها أصبح واحدًا من أهدافكم؟»

ـ «أعتقد ذلك».

ضيَّقتْ سارا عينَيها إلى خطٍّ رفيعٍ، وقالت: «مثل الكون تمامًا».

ـ «لا أدري، لكنَّ الأمر كان مهمًّا جدًّا بالنِّسبة إلينا. كنّا نريد أن نحافظ على ذلك التفاعل المميّز التي نشأت بيننا، وكأنّنا نحمي عود كبريتٍ مشتعلٍ لئلّا تطفئه الريح».

ـ «تفاعل؟»

ـ «أقصد الطاقة التي ظهرت آنذاك. كان شيئًا لا يمكن إنتاجه مرّةً أخرى».

ـ «مثل الانفجار الكبير؟»

ـ «لا، ليس بالضبط».

رشفتْ سارا من «الموهيتو» وراحت تتفحَّص ورقة النعناع من عدَّة زوايا.

ـ «درستُ في مدرسةٍ خاصَّةٍ للبنات، ولذلك لا أستوعب هذا النوع من المجموعات المختلطة في المدارس الحكوميَّة. لا أستطيع حتَّى أن أتصوَّرها. فلكي تحافظوا أنتم الخمسة على جماعتكم، كان لا بدَّ لكلٍّ منكم من أن يعفّ نفسه قدر الإمكان. أليس كذلك؟»

ـ «يعفّ نفسه؟ لا أظنُّه الوصف المناسب. لم يكن الأمر خطيرًا إلى هذا الحدّ. لكنَّنا بالفعل حرصنا على أن لا تكون هناك علاقات عاطفيَّة داخل المجموعة».

ـ «لكنَّكم لم تكتبوا هذا القانون».

أومأ تسوكورو. «نعم، لم نصغه. فلم تكن لدينا قوانين للمجموعة أو نحو ذلك».

ـ «ماذا عنك؟ ألم تنجذب قطّ إلى شيرو أو كورو؟ أشعر من كلامك أنّهما جذّابتان».

ـ «كانت كلٌّ منهما جذّابةً على طريقتها. أكذبُ إن قلتُ إنّي لم أنجذب إليهما. لكنّي حاولتُ قدر المستطاع ألّا أفكّر فيهما على ذلك النحو».

ـ «قدر المستطاع؟»

فقال تسوكورو وقد شعر باحمرار وجنتَيْه مرّةً أخرى: «قدر المستطاع. فإنْ غلبني التفكير فيهما، حاولتُ أن أتصوّرهما كيانًا واحدًا ثنائيًّا».

ـ «ثنائيًّا؟»

توقّف تسوكورو قليلًا، يبحث عن الكلمات المناسبة. «لا أدري كيف أصف الأمر. كنتُ أتصوّرهما كيانًا متخيَّلًا، مثل كائنٍ مجرّدٍ لا شكل له».

بدتْ سارا منبهرةً بكلامه. فكّرت في الأمر، وهمّت بقول شيء، لكنّها تمهّلت، ثمّ قالت بعد حين: «وبعد الثانويّة، التحقتَ بالجامعة في طوكيو، وتركتَ ناغويا. صحيح؟»

ـ «نعم. وما زلتُ أعيش في طوكيو».

ـ «ماذا عن الأربعة الآخرين؟»

ـ «التحقوا بكلّيّاتٍ في ناغويا. درس أكا في جامعة ناغويا، في القسم نفسه الذي يدرّس فيه والده. وكورو التحقت بكلّيّةٍ خاصّةٍ للبنات معروفةٍ بتميّز قسم اللغة الإنجليزيّة فيها. أمّا أو فقد ساعدتْه مهاراته في الرغبي والتحق بكلّيةٍ خاصّةٍ للأعمال لديْها فريق رغبي معروف. وأمّا «شيرو» فقد اقتنعتْ أخيرًا بالتخلّي عن حلمها في الطبّ البيطريّ، والتحقت بكلّيّةٍ للموسيقى. الجميع اختار كلّيّةً قريبةً من منزله، إلّا أنا التحقتُ بكلّيّةٍ للهندسة في طوكيو».

ـ «ولماذا أردتَ المجيء إلى طوكيو؟»

ـ «لا لشيءٍ إلّا لأنَّ أستاذًا خبيرًا ببناء محطّات القطار كان يعمل في هذه الجامعة، وهذا تخصُّصٌ دقيقٌ يختلف عن بناء المنشآت الأخرى. فلو أنّي درستُ في كلّيّةٍ أخرى من كلّيّات الهندسة لما استفدتُ كثيرًا. كنتُ أريد أن أتتلمذ على يد متخصِّصٍ في هذا المجال».

ـ «تسهُلُ الحياةُ حين تحدِّدُ أهدافك».

وافقها على ذلك.

ـ «إذن، ظلّ الأربعة الآخرون في ناغويا لأنّهم لم يريدوا أن تنهار تلك الجماعة الجميلة؟»

ـ «حين وصلنا إلى عامنا الأخير في الثانويّة، تحدَّثنا عن الجامعات التي سندرس فيها. كلّهم قرّروا البقاء في ناغويا، إلّا أنا. من الواضح أنّهم حدَّدوا خياراتهم للحفاظ على المجموعة، لكنّهم لم يقولوا ذلك صراحةً».

حصل أكا على درجاتٍ عالية، فكان من السَّهل عليه أن يلتحق بجامعةٍ مرموقةٍ مثل جامعة طوكيو، بل إنَّ والدَيْه ومعلّميه حثّوه على ذلك. أمّا أو فكان يستطيع بمهاراته الرياضيّة أن يحصل على مقعدٍ في جامعةٍ معروفة. و«كورو» لها شخصيَّةٌ تتوافق مع حياةٍ أرقى وأرفع فكريًّا، كالتي يمكن أن تجدها في بيئةٍ منفتحةٍ مختلطة، فكان يجدر بها الالتحاق بواحدةٍ من أرقى الجامعات الخاصّة في طوكيو. صحيحٌ أنَّ ناغويا مدينةٌ كبيرة، لكنّها من حيث الثقافة أقربُ إلى المناطق القرويّة. في نهاية المطاف، قرّر الأربعة البقاء في ناغويا، ورضوا بكلّيّاتٍ أدنى من مستوياتهم بكثير. شيرو هي الوحيدة التي ما كانت لتترك ناغويا أصلًا،

حتّى وإنْ لم يكن لمجموعتنا وجود. فهي ليست من النوع الذي يهوى المغامرة والبحث عن مكانٍ آخر يستثير حماسها.

ـ «حين سألوني عن قراري، قلتُ لهم إنّي لم أقرّر بعد. لكنّني كنتُ قد حسمتُ أمري للالتحاق بجامعةٍ في طوكيو. لو أنّي استطعتُ البقاء في ناغويا والدراسة على مضضٍ في جامعةٍ متوسّطة الحال، لفعلتُ، ما دام هذا يبقيني قريبًا منهم. كان هذا هو الحلّ الأسهل، من عدّة اعتبارات، وهذا بالفعل ما كانت ترجوه أسرتي. لعلّهم كانوا يتوقّعون أن أخلف والدي في شركته بعد تخرُّجي في الجامعة. لكنّي أدركتُ أنّي نادمٌ لا محالة إن لم آتِ إلى طوكيو. تملّكني شعورٌ بأنّه لا خيار لي سوى التتَلمذ على يد ذلك الأستاذ». ـ «مفهوم. وكيف تلقّى الآخرون الأمر بعد أن قرّرتَ الانتقال إلى طوكيو؟»

ـ «لا أعرف ما شعروا به حقيقةً، لكنّي واثقٌ من أنّهم أصيبوا بخيبة أمل. فخروجي من المعادلة كان يعني أنّ حسّ الاجتماع الذي طالما شعرنا به سوف يختفي لا محالة».

ـ «والتفاعل أيضًا».

ـ «سوف يتغيّر إلى شيءٍ آخر. إلى حدٍّ ما».

غير أنّهم حين أدركوا إصراره على الرحيل لم يحاولوا إيقافه، بل شجّعوه على ذلك. فطوكيو لا تبعد عن ناغويا سوى ساعةٍ ونصف الساعة بالقطار السريع، ويمكنه العودة متى شاء. ثمّ مازحوه قائلين إنّه في كلّ الأحوال لا توجد ضمانةٌ لأنْ يُقبل المرء في الجامعة التي اختارها. الحقيقةُ أنّ القبول في تلك الجامعة لم يكن أمرًا يسيرًا، فكان لا بدّ لتسوكورو من أن ينكبّ على الدراسة انكبابًا لم يعرفه من قبل كي يجتاز اختبار القبول.

ـ «وماذا حدث لمجموعتكم بعد تخرّجكم في الثانويّة؟»

ـ «في بادئ الأمر، سار كلُّ شيءٍ على ما يرام. كنتُ أعود إلى ناغويا في كلّ عطلةٍ، ربيعًا وخريفًا وصيفًا وفي رأس السنة، وأقضي أطول وقتٍ ممكنٍ معهم. كنّا ما نزال متقاربين جدًّا، ومنسجمين».

في كلّ عطلةٍ كان كلٌّ منهم يأتي محمّلًا بأخبارٍ وأحداثٍ كثيرةٍ لا بدّ من أن يحكيها للآخرين. صحيحٌ أنّ الأربعة يلتقون في غياب تسوكورو، إلّا أنّهم بمجرّد قدومه يعودون إلى كيانهم الخماسيّ (وقد ينشغل أحدهم أحيانًا فيلتقي ثلاثةٌ أو أربعةٌ منهم). ما إنْ يأتي تسوكورو حتّى يعيدُه الأربعةُ إلى سابق عهدهم ونسيجهم، كما لو أنّه لم تكن هناك فجوةٌ في الزمن. على الأقلّ، لم يكن تسوكورو يشعر بأيِّ تغيُّرٍ طفيفٍ، ولا مسافةٍ خفيّةٍ بينهم، فيرتاح لذلك. لهذا السّبب لم يزعجه قطّ أنّه لم يتّخذ له أصدقاءَ في طوكيو.

ضيّقتْ سارا عينَيْها ونظرتْ إليه. «لم يكن لديْك صديقٌ واحدٌ في طوكيو؟»

ـ «لا أدري لماذا، لكنّي لم أستطع. أعتقد أنّي في الأصل لستُ اجتماعيًّا. لا تسيئي فهمي... لم أكن انطوائيًّا مثلًا، لكنّها كانت أوّل مرّةٍ أعيش فيها وحدي، وأفعل ما يحلو لي. كنتُ مستمتعًا بذلك. فخطوط القطارات في طوكيو أشبه بشبكةٍ منشورةٍ فوق المدينة، تتوزّع فيها محطّاتٌ لا حصر لها. وزيارةُ تلك المحطّات وحدها استغرقتني وقتًا طويلًا. كنتُ أذهب إلى محطّاتٍ مختلفة، أتفحّص تصميمها، وأخربشُ بعض الرسومات، وأدوّن ما أراه مميّزًا فيها».

ـ «يا لها من متعة!».

غير أنَّ الجامعة نفسَها كانت تخلو من المتعة. فأغلبُ المقرَّرات التي درسها في البداية كانت مقرَّرات عامَّة، عديمة الإلهام، شديدة الملل. ولكنْ بما أنَّه بذل جهدًا كبيرًا للالتحاق بالجامعة، فقد حاول ألَّا يفوِّت محاضراته. درسَ اللغتَيْن الفرنسيَّة والألمانيَّة، وتردَّد إلى مختبر اللُّغات كي يتدرَّب على اللُّغة الإنجليزيَّة، فاكتشف أنَّه موهوبٌ في تعلُّم اللُّغات. لكنَّه آنذاك لم يقابل أحدًا شعر بانجذابٍ إليه. كان يرى الجميع تافهين باهتين لا روح فيهم، مقارنةً بأصدقائه المفعمين بالحياة. لم يلتقِ أحدًا شعر بأنَّه يرغب في التعرُّف إليه، ولذلك كان يقضي معظم أوقاته وحده. الإيجابيّ في الأمر أنَّه كان يقرأ باستمرار، أكثر من أيِّ وقتٍ مضى.

ـ «أولم تشعر بالوحدة؟»

ـ «شعرتُ بأنِّي وحدي، لكنِّي لم أشعر بالوحدة. وأظنّني اطمأننتُ إلى هذا الشعور».

كان تسوكورو شابًّا، أمامه الكثير في هذا العالم ممَّا لم يعرفه بعد. وطوكيو كانت مكانًا جديدًا تمامًا بالنِّسبة إليه، مختلفًا كلّ الاختلاف عن البيئة التي ترعرع فيها، وكانت تلك الفروق أكبر من كلّ توقُّعاته. حجمُ المدينة نفسه كان طاغيًا، علاوةً على تنوُّع الحياة فيها. ثمَّة خياراتٌ كثيرة، وطريقةٌ غريبةٌ يتحدَّث بها الناس، ووتيرةٌ سريعةٌ في الحياة. لم يستطع أن يحقِّق التوازن بين ذاته والعالم من حوله، لكنَّه كان يدرك أنَّ لديْه مكانًا يعود إليه. فما إن يستقلّ القطار السريع من محطَّة طوكيو، حتَّى يصل في غضون ساعةٍ ونصف الساعة إلى مكانٍ منظَّمٍ منسجمٍ حميم. هناك يمرُّ الوقتُ في هدوء، وهناك ينتظره أصدقاءُ يستطيع أن يركن إليهم.

ـ «والآن؟ هل تشعر بأنّك حقّقتَ التوازن بين ذاتك والعالم من حولك؟»

ـ «قضيتُ في هذه الشركة أربع عشرة سنة. الوظيفةُ جيّدة، والعمل مُمتع. تربطني علاقاتٌ جيّدة بزملائي. وتعرّفتُ إلى بضع نساءٍ في حياتي. لم تثمر تلك العلاقات عن شيء، ولكنْ هنالك أسبابٌ عديدةٌ لذلك. لم يكن الخطأ كلّه منّي».

ـ «وأنتَ وحدك، لكنّك لستَ وحيدًا».

الوقتُ ما يزال مبكّرًا، ولا أحد غيرهما في الحانة. تتهادى موسيقى الجاز إذْ يعزفها ثلاثة عازفين في هدوء.

فقال تسوكورو بعد شيءٍ من التردُّد: «يبدو كذلك».

ـ «ألا تستطيع العودة الآن؟ إلى ذلك المكان المنظّم المنسجم الحميم؟»

فكّر في الأمر، رغم أنّه لم يكن في حاجةٍ إلى التفكير. قال في هدوء: «لم يَعُد لذلك المكان وجود.

ففي صيف عامه الجامعيّ الثاني، ذهب ذلك المكان إلى غير رجعة.

-2-

حدث ما حدث إبان العطلة الصيفيَّة في عامه الجامعيّ الثانيّ، بين الفصلَيْن. وما إن وقع الأمر حتَّى تغيَّرت حياة تسوكورو تازاكي تمامًا، كما لو أنَّ صدعًا حادًّا قسّم الأرض الخضراء إلى منطقتَيْن بيئيَّتَيْن مختلفتَيْن.

كالعادة، ما إن حلَّت العطلةُ الصيفيَّة حتى حزم أغراضه (القليلة أصلًا) واستقلّ القطار السريع عائدًا إلى بلدته. قضى وقتًا يسيرًا مع أسرته، ثمّ ما لبث أن هاتف أصدقاءه الأربعة، لكنَّه لم يستطع الوصول إلى أيٍّ منهم. قيل له إنَّهم غير موجودين، فقال في نفسه لا بدَّ من أنَّهم خرجوا معًا إلى مكانٍ ما. أوصى مَن كلَّمه مِن أسَرهم بإبلاغ رسالته، واتَّجه إلى قاعة سينما في حيّ التسوُّق بوسط البلد، فأنفق وقته يشاهد فيلمًا لم يكن في الواقع يرغب في مشاهدته. فلمَّا عاد إلى البيت تناول عشاءه مع أسرته، ثمّ هاتف أصدقاءه من جديد، لكنَّه لم يجد أحدًا.

وفي صباح اليوم التالي، هاتفهم مرّةً أخرى، دون جدوى: ما يزالون خارج البيت. أوصى كلّ من ردَّ عليه بإبلاغ رسالته، راجيًا أن يتّصلوا به حين يعودون، فوعدوه بإيصال الرسالة. لكنَّ شيئًا في أصواتهم أثار قلقه. لم يلحظْه في المرّة الأولى، لكنّه شعر بشيءٍ مختلف، وكأنّهم يحاولون أن يجعلوا بينهم وبينه مسافة، كأنّهم يريدون إغلاق الخطّ بأسرع ما يمكن. فأخت شيرو الكبرى على وجه التّحديد حدَّثته بجفافٍ، وفظاظة، رغم الودّ الذي قد كان بينهما. كانت هذه أكبر من شيرو بعامَيْن، لا تضاهيها في الجمال، لكنَّها تظلّ امرأةً جميلة. يذكرُ أنّهما كانا يتمازحان على الهاتف كلَّما اتّصل، أو يتبادلان التحيّة في ودٍّ شديد. أمَّا الآن، فأسرعت في الوداع، كأنّما لا تقوى على الصبر قبل إنهاء المكالمة. هكذا، وبعد أن اتَّصل بالبيوت الأربعة، داهمه شعورٌ بأنّه منبوذ، وكأنّه يحمل مرضًا خبيثًا يستميتُ الآخرون في الابتعاد عنه.

لا شكّ في أنّ شيئًا قد حدث، شيئًا وقع في غيابه دعاهم إلى إقامة ذلك السدّ بينهم وبينه. شيئًا غير مقبول، شنيع. لكنّه لم يعرف ما عساه يكون.

شعر تسوكورو كما لو أنّه ابتلع شيئًا لم يكن يجدر به أن يبتلعه، فلا هو يستطيع أن يبصقه ولا يقدر على هضمه. ظلّ في البيت طوال اليوم في انتظار رنين الهاتف. عقله مشتّت، يجافيه التركيز. أبلغ أسرَ أصدقائه أكثر من مرّةٍ أنّه في ناغويا. وعادةً ما كان أصدقاؤه يهاتفونه على الفور ويرحّبون بعودته في سعادة، لكنّ الهاتف التزم الصمت هذه المرّة.

فكّر في مهاتفتهم من جديدٍ في المساء، ثمّ عدل عن فكرته. لعلّهم غير موجودين فعلًا. لعلّهم تجنّبوا الهاتف وفضّلوا التظاهر بأنّهم

خارج البيت. لعلّهم قالوا لأسرهم: «إن اتّصل تسوكورو تازاكي أخبروه أنّي لستُ هنا»، وهذا ما يفسّر ارتباك أهلهم حين تحدّثوا إليه.

ولكنْ ما السّبب؟

لم يفلح في تخيُّل سببٍ ممكن. فآخر مرّةٍ اجتمع فيها الأصدقاء الخمسة كانت في أوائل أيار/مايو، خلال عطلة «الأسبوع الذهبيّ»(1). وحين استقلّ تسوكورو القطار عائدًا إلى طوكيو، جاء الأربعة إلى المحطة وودّعوه بتلويحاتٍ كبيرةٍ مبالغٌ فيها، كما لو أنّه جنديٌّ ذاهبٌ إلى أقاصي الأرض.

بعد ذلك، أرسل تسوكورو رسالتَيْن إلى أو. كانوا قد اتّفقوا على استخدام الرسائل العاديّة نظرًا لأنّ شيرو لم تكن تفقه شيئًا في الحواسيب، فأصبح أو حلقةَ الوصل بينهم. كان تسوكورو يوجّه الرسالة إلى أو، فيعرضها هذا على الآخرين. وبذلك لا يُضطرّ تسوكورو إلى كتابة رسالةٍ إلى كلٍّ منهم على حدة. غالبًا ما كان يحكي لهم عن حياته في طوكيو، عمّا رآه هناك، والتجارب التي مرّ بها، ومشاعره. لكنّه كان دائمًا يُدرك أنّه سيستمتع أكثر لو كانوا معه يشاركونه تلك التجربة، أيًّا ما تكون. هذا ما شعر به فعلًا.

ثمّ بعث الأربعة إليه رسائل وقّعوها معًا، ولم يكن فيها شيءٌ مزعجٌ على الإطلاق. كانوا يروون له بالتّفصيل ما مرّ بهم في ناغويا. صحيحٌ أنّهم جميعًا وُلدوا ونشأوا هناك، إلّا أنّهم كانوا مستمتعين بحياتهم الجامعيّة.

(1) عطلة الأسبوع الذهبيّ (Golden Week Holiday): «سلسلةٌ من أربع عُطلٍ يابانيّةٍ متقاربة في نهاية نيسان/إبريل وبداية أيار/مايو. والعطلات هي «يوم شوا» في التاسع والعشرين من نيسان/إبريل، و«يوم الدستور» في الثالث من أيار/مايو، و«يوم الخضرة» في الرابع من أيار/مايو، و«يوم الأطفال» في الخامس من أيار/مايو». (المترجم، عن الموسوعة البريطانيّة).

اشترى أو سيّارة «هوندا أكورد»، وقال إنّ بها بقعةً على المقعد الخلفيّ تبدو كما لو أنّ كلبًا بال هناك، لكنّها تتّسع لخمسة أشخاصٍ بسهولة شريطة ألّا يكون من بينهم شخصٌ مفرط السمنة. قالوا كذلك إنّهم تراصّوا في السيّارة وخرجوا في رحلةٍ إلى «بحيرة بيوا»، وقالوا له: «من المؤسف أنّك لم تكن معنا يا تسوكورو، وننتظر عودتك في الصيف». بدا لتسوكورو أنّهم صادقون فيما يقولون.

في تلك الليلة التي مرّت من دون أن يأتيه ردٌّ من أصدقائه، جافاه النوم. شعر باضطرابٍ، وراحت أفكارٌ عشوائيّةٌ حمقاء ترفرف حول رأسه. كانت كلُّها مجرَّد تنويعاتٍ على ثيمةٍ واحدة. هكذا ظلّت أفكار تسوكورو تحوم حول المكان نفسه، كرجلٍ فقد حسّ الاتّجاهات. ولم يُدرك ما كان يفعله عقلُه إلّا بعد أن وجد نفسه وقد عاد إلى نقطة البداية. وفي نهاية المطاف، توقّف عقله عن التفكير، كما لو أنّ تلافيف عقله برغيٌّ معطوب.

ظلّ مستيقظًا حتى الرابعة فجرًا، ثمّ نام، لكنّه أفاق بُعَيد السادسة. لم يشعر بجوعٍ، واكتفى بكأسٍ من عصير البرتقال، لكنّه مع ذلك شعر بالغثيان. خيّمَ القلقُ على أسرته من فقدان شهيّته، لكنّه طمأنهم بأنّه لا يشكو من شيءٍ سوى إعياءٍ في المعدة.

لزم تسوكورو بيته ذاك اليوم أيضًا. استلقى عند الهاتف، يقرأ كتابًا، أو يحاول على الأقلّ. عند العصر، هاتف أصدقاءه مجدَّدًا. لم يكن يريد ذلك، لكنّه لم يحتمل شعور الحَيرة وهو ينتظر، رجاةَ أن يرنّ الهاتف.

لا جديد. من ردُّوا عليه أخبروه (بفظاظةٍ أو باعتذارٍ أو بنبرةٍ مفرطة الحياد) أنّ أصدقاءه ليسوا في البيت. شكرهم تسوكورو، بأدبٍ وإيجاز، ثمّ أغلق الخط من دون أن يترك لهم رسالة. لعلّهم تعبوا من التظاهر بأنّهم

غير موجودين، مثلما تعب هو من محاولة الاتّصال بهم. قال في نفسه ربّما يستسلم أهلهم في نهاية المطاف؛ فلا بدّ من أن يأتيه ردّ فعلٍ إن هو استمرّ في الاتّصال.

وقد كان. إذْ جاءه اتّصالٌ من أو بُعيد الثامنة في تلك الليلة.

«المعذرة، لكنّي مضطرٌّ إلى أن أطلب منك الكفّ عن الاتّصال بأيّ منّا». قالها هكذا بجفاءٍ، ومن دون مقدّمات. لا «مرحبًا»، ولا «كيف حالك؟»، ولا «اشتقنا إلى صوتك». لم يسلّم بشيءٍ من اللياقات الاجتماعيّة سوى المعذرة.

تنفّس تسوكورو، وراح يكرّر في صمتٍ ما قاله أو، يحاول أن يزِنَه بسرعة. حاول أن يستشعر ما فيه من انفعالات، لكنّه جاء أشبه بالبيان الرسميّ؛ لا مساحة فيه للمشاعر.

«إن كانت هذه رغبة الجميع بأنْ لا أتّصل بهم، فلن أتّصل طبعًا». خرجتْ كلماته على نحوٍ يكاد يكون أوتوماتيكيًا. حاول أن يتحدّث بنبرةٍ طبيعيّة، لكنّ صوته بدا صوتَ غريبٍ، صوتَ شخصٍ يعيش في بلدةٍ بعيدة، شخصٍ لم يلتقه قطّ (ولعلّه لن يلتقيه أبدًا).

فقال أو: «لا تتّصل إذن».

- «لن أفعل شيئًا لا يريد الآخرون منّي أن أفعله».

فأطلق أو صوتًا، لا هو تنهيدة ولا هو صوت إقرارٍ على ما قال.

قال تسوكورو: «ولكنْ إن أمكن، أودّ أن أعرف السبب».

- «لا أستطيع أن أخبرك بهذا».

- «من يستطيع إذن؟»

فنهضَ بينهما جدارٌ حجريّ سميك. صمتٌ على الجانب الآخر، غير أنَّ تسوكورو يسمع أو يتنفَّس من منخرَيه. خطرتْ له صورةُ أنفه اللحيم المسطّح.

ثمَّ قال أو أخيرًا: «فكِّر في الأمر، وسوف تعرف بنفسك».

أُسقط في يده. عمّ يتحدَّث؟ أفكِّر في الأمر؟ أفكِّر في ماذا؟ لئن فكَّرتُ زيادةً في أيِّ شيء، سأفقد عقلي ولن أعرف حتّى من أنا.

ـ «مؤسفٌ جدًّا أن يصل الأمر إلى هذا الحدّ».

ـ «هذا رأيكم جميعًا؟»

ـ «نعم. كلُّنا نرى أنّه مؤسفٌ جدًّا».

ـ «قل لي.. ماذا حدث؟»

«الأفضل أن تسأل نفسك». وتبيَّن تسوكورو في صوته اختلاجةً من حزنٍ وغضب، لم تدم أكثر من لحظة. وقبل أن يهتدي تسوكورو إلى ردٍّ، أغلق أو الخطّ.

*

سألتْه سارا: «ألم يقل غير هذا؟»

ـ «كانت محادثةً قصيرة، موجزة. رويتُها لكِ على أحسن ما أتذكَّره منها».

كان كلٌّ منهما يواجه الآخر على طاولةٍ صغيرةٍ في الحانة.

ـ «وبعد ذلك، ألم تتحدَّث عن الأمر إليه أو إلى واحدٍ من الثلاثة الآخرين؟»

هزَّ رأسه نافيًا. «لا، لم أتحدَّث إلى أيِّ أحدٍ منهم قطّ».

ضاقتْ عيناها وهي تحدّق فيه، كأنّها ترقبُ مشهدًا خارقًا لقوانين الطبيعة. «ولا واحدًا؟»

- «لم أرَ منهم أحدًا أو أكلّم أحدًا بعد ما حدث».

- «أولم تُرِد أن تعرف لماذا أخرجوك فجأةً من المجموعة؟»

- «لا أعرف كيف أصف الأمر، ولكنْ في ذلك الوقت، لم يَعُد شيءٌ يهمّ. صُدَّ الباب في وجهي ولم يسمحوا لي بالدخول مرّةً أخرى. ولم يشرحوا السّبب. لكنّي قلتُ في نفسي: إنْ كانت هذه رغبتهم جميعًا، فلا أملك من الأمر شيئًا».

فقالت سارا في حَيرة: «لكنّي لا أفهم. لعلّ الأمر كان مجرّد سوء فهم. أقصد، ألم يخطر في بالك سببٌ يفسّر ما حدث؟ ألم ترَ الأمر كلّه مؤسفًا؟ أنّ غلطةً سخيفةً ربّما هي التي أفقدتكَ أصدقاءك الأعزّاء؟ لماذا لم تحاول أن تستوضح سوء الفهم الذي ربّما كان من السهل تسويته؟»

فرغ كأس «الموهيتو»، فأشارتْ إلى الساقي وطلبت قائمة النبيذ. قلّبت الخيارات قليلًا في عقلها ثمّ طلبت كأسًا من «نابا كابيرنيه سوڤِنيون». أمّا تسوكورو فلم يكن قد شرب سوى نصف كأسه. ذاب الثلجُ، فتجمّعت قطراتٌ خارج الكأس، وابتلّ صحنُه الورقيّ وانتفخ.

- «لم يسبق لي أن صدّني أحدٌ بهذه الطريقة. ومن فعلوا ذلك كانوا أقربَ أصدقاءٍ لي في الدنيا، وهم الذين ما وثقتُ في أحدٍ ثقتي بهم. كنتُ مقرّبًا جدًّا إليهم، حتّى أوشكوا أن يكونوا امتدادًا منّي. لذلك لم يكن في وسعي أن أبحث عن السّبب، أو أصلح سوء الفهم. كنتُ مصدومًا، وكفى. مصدومًا جدًّا، وخُيِّل إليّ أنّي قد لا أُشفى من الصدمة أبدًا. كنتُ أشعر بشيءٍ وقد انكسر في داخلي».

أحضر الساقي كأس النبيذ وملأ طاسة المكسّرات. وما إن ذهبَ حتى التفتتْ سارا مرّةً أخرى إلى تسوكورو.

ـ «لم يحدث لي شيءٌ كهذا من قبل، لكنّي أعتقد أنّي قادرةٌ على تصوُّر حجمِ الصعقة التي أصابتك. وأتفهَّم أنَّ التعافي من الأمر لم يكن يسيرًا عليك. ولكنْ، ألم يكن هناك شيءٌ تستطيع فعله، بعد أن مرّ الوقتُ وتلاشت الصدمة؟ أقصد أنّك تعرّضتَ لإجحافٍ شديد، فلماذا لم تقاوم؟ لا أعرف كيف أمكنك أن تحتمل ذلك».

هزّ تسوكورو رأسه شيئًا يسيرًا. «في صباح اليوم التالي، اختلقتُ عذرًا لأسرتي، واستقللتُ القطار السريع عائدًا إلى طوكيو. لم أحتمل البقاء في ناغويا يومًا آخر. كلُّ ما كنتُ أفكِّر فيه هو أن أبتعد».

ـ «لو كنتُ مكانك لما غادرتُ حتّى أعرف حقيقة ما جرى».

ـ «لم تكن بي طاقةٌ على ذلك».

ـ «ألم تُرد أن تعرف الحقيقة؟»

حدَّق تسوكورو في يدَيْه على الطاولة وهو ينتقي كلماته. «أظنّني كنتُ خائفًا من تقصّي الأمر، من البحث عن الحقائق التي قد تظهر. من مواجهتها. لم أرَ في الحقيقة منقذًا لي، أيًّا ما كانت. كنتُ واثقًا من ذلك، دون أن أعرف السّبب».

ـ «أأنت واثقٌ منه الآن؟»

ـ «لا أدري. لكنّي كنتُ واثقًا آنذاك».

ـ «إذن فقد عدتَ إلى طوكيو، وظللتَ مختبئًا في شقّتك، مغمَض العينَيْن مسدود الأذنَيْن».

ـ «إلى حدٍّ ما، نعم».

مدَّت يدها ووضعتْها فوق يده. «مسكين». سرتْ نعومةُ لمستها على مهلٍ في جسده. وبعد لحظةٍ، أبعدت يدها ورفعتْ كأس النبيذ إلى شفتَيْها.

ـ «بعد ذلك، قلَّلتُ من ذهابي إلى ناغويا قدر المستطاع. فإنْ عدتُ، لزمتُ البيت، وما إن أنتهي ممَّا عدتُ من أجله حتى أعودُ إلى طوكيو بأسرع ما يُمكن. قلقتْ أمِّي وأختاي عليّ، وسألوني ما إذا كان أمرٌ قد وقع، لكنِّي لم أقل شيئًا. لم يكن بإمكاني أن أخبرهم».

ـ «وهل تعرف أين الأربعة الآن وماذا يفعلون؟»

ـ «لا، لا أعرف. لم يخبرني أحدٌ، ولا أنا أردتُ أن أعرف».

دوَّرت سارا كأس نبيذها وحدَّقت في الدوائر، كأنَّها تقرأ الطالع.

قالت: «الأمر غريبٌ جدًّا. من الواضح أنَّ تلك الحادثة كانت صدمةً هائلة غيَّرت حياتك على نحوٍ ما. أليس كذلك؟»

فأومأ قليلًا. «أصبحتُ شخصًا مختلفًا، من نواحٍ كثيرة».

ـ «كيف؟»

ـ «زاد شعوري بأنِّي باهتٌ وتافهٌ في أعين الآخرين. وفي عين نفسي كذلك».

حدَّقتْ سارا في عينَيْه، واكتسى صوتُها نبرةً جادَّة. «لا أراك باهتًا، ولا تافهًا».

قال: «أشكرك». ثمّ مسح جبهته بأصابعه واستدرك: «لكنَّه أمرٌ لا بدَّ من أن أحلّه بنفسي».

ـ «ما زلتُ حائرة. الألم الذي أورثتْكَ إيّاه تلك الحادثة ما يزال ساكنًا في عقلك، أو في قلبك. أو في الاثنيْن معًا، لكنّي أظنُّ أنَّ وجوده واضح. ومع ذلك، فلم تحاول طوال السنوات الخمس عشرة أو الست عشرة أن تصل إلى السّبب الذي جعلك تعاني كلّ هذا الألم».

ـ «لا أقول إنّي لم أشعر برغبةٍ في معرفة الحقيقة، لكنّي أعتقد أنّه من الأفضل بعد مرور تلك السنوات أن أنسى الأمر. ما كان كان قبل زمن، وغاب كلُّ شيءٍ في الماضي».

زمّت سارا شفتَيْها، ثمّ قالت: «برأيي هذا خطير».

ـ «خطير؟ كيف؟»

«بوسعك إخفاء الذكريات وقمعها، لكنّك لا تستطيع أن تمحو التاريخ الذي أنتجها». نظرتْ في عينَيْه وتابعت: «هذا بالذات ما ينبغي ألّا تنساه. ليس في وسعك أن تمحو التاريخ أو تغيّره، وإلّا دمّرتَ نفسك».

فقال تسوكورو بصوتٍ أشبه بالحديث إلى نفسه، محاولًا أن يبدو مبتهجًا: «ما الذي يدعونا إلى الحديث عن هذا؟ لم أفضِ إلى أحدٍ بهذا الأمر من قبل، وما نويتُ أن أفعل قطّ».

فارتسمتْ على وجهها ابتسامةٌ باهتة. «لعلّك كنتَ في حاجةٍ إلى أن تتحدّث إلى أحد. أكثر ممّا كنتَ تتصوّر».

في ذلك الصيف، وبعد عودة تسوكورو إلى طوكيو، انتابتْه حَيرةٌ شديدةٌ من ذلك الإحساس بأنّه كان يتحوّل جسديًا. فالألوان التي رآها من قبل تبدّلت، كأنّما تغطّيها مصفاةٌ خاصّة. يسمع أصواتًا لم يكن يسمعها من قبل، ولا يتبيّن أصواتًا أخرى كانت فيما مضى مألوفةً لديْه. حتّى حركته صارت مرتبكةً خرقاء، كأنّما الجاذبيّةُ تتغيّر من حوله.

عاش تسوكورو خمسة شهور على باب الموت. هيّأ لنفسه مكانًا صغيرًا يقطن فيه وحده، على حافّةِ متاهةٍ مظلمة. كان موضعًا خطيرًا، يتأرجح فيه على الهاوية، فإنْ تقلّب في منامه قد يسقط في أعماق الفراغ. غير أنّه لم يكن خائفًا. فكرةٌ واحدةٌ تدور في باله: ما أسهل السقوط!

على مدّ بصره أرضٌ قاسيةٌ تتناثر فيها الصخور، دون قطرة ماء، ولا عشبة. عديمة اللّون، لا ضوء فيها يُذكر. لا شمس، ولا قمر، ولا نجوم. ولا إحساسٌ بالجهات. ثمّ في أوقاتٍ محدَّدةٍ، يتناوبُ شفقٌ غامضٌ وظلمةٌ لا قعر لها. حدٌّ بعيدٌ على أطراف الوعي. لكنّ المكان كان ذا وفرةٍ عجيبة. ففي وقتِ الشفق تأتي طيورٌ ذات مناقير على شكل أمواس، تغترف من جسده بلا هوادة. وما إنْ يخيّم الظلامُ حتّى تبتعد الطيور، وتملأ الأرضَ في صمتٍ تجاويفَ جسده بشيءٍ آخر، بمادةٍ أخرى غير معلومة.

لم يعرف تسوكورو ما هي. ليس في وسعه أن يقبلها ولا أن يرفضها. فما هي إلّا أن تستقرّ على جسده كسربٍ ظليل، تضع قدرًا وافرًا من البيوض الظليلة. بعدها، ينسحبُ الظلامُ ويعود الشفق، فتعودُ معه الطيور التي تشرّح جسده من جديد.

كان هو نفسه، وليس هو. كان تسوكورو تازاكي، وفي الوقت نفسه ليس تسوكورو تازاكي. حين يشتدُّ الألم فلا يُحتَمل، يبتعدُ عن جسده، ويقف في مكانٍ قريب، في موضعٍ خالٍ من الألم، ينظر إلى تسوكورو تازاكي وهو يتجرّع آلامه. لم يكن هذا مستحيلًا إنْ هو شدّد تركيزه.

ما يزال ذلك الشعور ينتابه أحيانًا. ذلك الإحساس بأنّه يغادر ذاته. بأنّه ينظر إلى ألمه، وكأنّه ألمٌ لا يخصّه.

بعد أن غادر تسوكورو وسارا الحانة، عرض عليها العشاء مرَّةً أخرى. ما رأيكِ أن نتناول شيئًا من مكانٍ قريب؟ بيتزا؟ فأجابته بأنَّها ما تزال غير جائعة. قال: ما رأيكِ أن ترافقيني إلى شقَّتي؟

فقالت على مضضٍ ولكنْ بحزم: «اعذرني، لكنَّ مزاجي لا يسمح بذلك اليوم».

ـ «لأنَّني تماديتُ في الحديث عن تلك الأمور السخيفة؟»

أطلقتْ تنهيدةً خفيفة. «لا، ليس هذا. ولكنْ لديَّ ما أفكِّر فيه. عن أشياء كثيرة. لذلك أودّ العودة إلى بيتي وحدي».

ـ «لا بأس. سعدتُ بلقائكِ مرَّةً أخرى والحديث إليك. ولكنْ ليتنا تحدَّثنا في موضوعٍ أحلى».

لَوَت شفتَيْها لحظةً، ثمَّ قالت وكأنَّها وصلت إلى قرار: «هل ستدعوني للقائك مرَّةً أخرى؟ أقصد إنْ كانت هذه رغبتك».

ـ «طبعًا. إن كنتِ موافقة».

ـ «موافقة».

ـ «يسعدني ذلك. سأبعث لكِ رسالةً بالإيميل».

توادعا عند مدخل المترو. صعدتْ هي بالسلَّم الكهربائيّ إلى خطّ «يامانوتي»، ونزل هو بالسلّم إلى خطّ «هيبيا». عاد كلٌّ منهما إلى بيته، تائهًا في أفكاره.

بطبيعة الحال، لم يكن تسوكورو يعرف ما يدور في عقل سارا، ولم يكن يريد أن يكشف لها عمّا في عقله. ثمَّة أفكارٌ ينبغي أن تبقى في مكانها. والأفكارُ التي دارت في رأس تسوكورو وهو عائدٌ بالقطار إلى بيته من ذلك النوع.

-3-

هامَ تسوكورو ستَّة شهورٍ حول حافَّة الموت، نقص وزنُه فيها قرابة السبعة كيلوغرامات. كان هذا متوقَّعًا بالطبع؛ إذْ كاد لا يأكل شيئًا. كان وجهُه منذ طفولته ممتلئًا، لكنَّه استحال هزيلًا كالحًا. لم يكفه أن يشدّ حزامه، بل كان يحتاج إلى بناطيل أصغر. فحين يخلع ملابسه تبرز الضلوعُ كأنَّها قفصُ طيورٍ رخيص. ترهَّلتْ قامتُه، وهوى كتفاه، ثمَّ وهَنَت ساقاه فصارتا أشبه بساقَي طائر اللقلق. أخذ ينظر إلى نفسه في المرآة عاريًا، فاجتاحه خاطرٌ رهيب: فما هذا إلَّا جسدٌ هَرِمٌ، أو جسد شخصٍ مشرفٍ على الموت.

قال في نفسه وهو يحدِّق في المرآة: حتَّى إنْ كنتُ أبدو شبه ميِّتٍ، فليس في وسعي شيء؛ فأنا فعلًا على شفا الموت. صحيحٌ أنِّي نجوتُ، ولكنْ بشقِّ الأنفس. هكذا ظللتُ متشبِّثًا بالدنيا مثل قشرة حشرةٍ عَلِقتْ بغصن، توشك أن تذروها الرياح إلى الأبد. غير أنَّ مظهره الذي يبدو قريبًا من الموت صعَقه مرَّةً أخرى. حدَّق طويلًا في صورة جسده العاري

دون أن تطرف عيناه، كشخصٍ يشاهد خبَرًا عن زلزالٍ عظيمٍ أو فيضانٍ رهيبٍ في أرضٍ بعيدة، فلا يملك أن يحوّل انتباهه لحظة.

ثمّ اجتاحه خاطرٌ مفاجئ: لعلّي مِتُّ فعلًا. ربّما مات الشاب المدعوّ تسوكورو تازاكي حين صدَّني أصدقائي، ولم يبقَ منه إلّا قشرته الخارجيّة، لكنّها ما لبثتْ أن راحت هي الأخرى مع الوقت والتغيُّرات الكبيرة التي طرأت على وجهه وجسده. كلُّ شيءٍ من حوله بدا مختلفًا، شعوره بالريح، وصوت الماء الجاري، وإحساسُه بأشعّة الشمس وهي تبزغ من بين السحب، وألوان الأزهار حين تتبدّل الفصول. تغيَّرت كلُّها، كأنّما أعيد تشكيلها. أمّا هذا الذي يراه الآن في المرآة، فقد يبدو للوهلة الأولى تسوكورو تازاكي، لكنّه ليس هو. مجرّدُ وعاءٍ أُلصق عليه اسمُه، لكنّ ما في داخله تغيَّر. وما سُمّي بذلك الاسم إلّا لأنّه لم يكن هناك اسمٌ آخرُ يُدعى به.

في تلك الليلة، رأى منامًا عجيبًا، إذْ رأى نفسه تمزُّقه الغِيرة. لم يكن قد رأى حلمًا واضحًا مصوَّرًا كهذا منذ فترةٍ طويلة.

الغيرةُ شعورٌ لم يستوعبه تسوكورو قطّ. كان يفهم دلالته طبعًا، ذلك الشعور الذي قد يجتاحك نحو شخصٍ لديْه (أو يمكن بسهولةٍ أن يمتلك) مهاراتٍ أو مواهب أو منصبًا كنتَ تطمح إليه. أن تهيم عشقًا بامرأةٍ، ثمّ تجدها في أحضان رجلٍ آخر. حسدٌ، وحقدٌ، وندمٌ، وإحباطٌ، وغضبٌ مكبوتٌ لا مصرَف له.

بَيْد أنّه لم يعرف تلك المشاعر قطّ. لم يحدث أن تمنّى الحصول على موهبةٍ أو مهارةٍ لا يملكها، ولا هام حبًّا في امرأة، ولا عرف اللهفة أو الحسد. لا يعني ذلك أنّه لا يشكو أشياء لا يرضى عنها، أشياء تنقصه.

بل يمكنه أن يكتب قائمةً بها. صحيحٌ أنّها لن تكون قائمةً طويلة، لكنّها بالتّأكيد لن تكون في سطرين. غير أنّ تلك النواقص ظلّت في داخله. لم تكن تحفّزه للخروج إلى مكانٍ آخر، بحثًا عن إجابات. حتّى ذلك الوقت، على الأقلّ.

لكنّه في هذا المنام كان يحترق رغبةً في امرأة. لم يبدُ واضحًا من تكون، لكنّها كانت موجودةً وحسب. وكانت قادرةً على فصل جسدها عن قلبها. قالت لتسوكورو: سأمنحك واحدًا منهما. إمّا جسدي أو قلبي. وعليك أن تختار واحدًا منهما، حالًا. أمّا الآخر فسوف أمنحه شخصًا غيرك. لكنّ تسوكورو كان يريدها كلّها. لم يكن على استعدادٍ لأن يتنازل عن نصفها لرجلٍ آخر. لم يكن يطيق ذلك. أراد أن يقول لها: إنْ كان الأمر هكذا، فلا أريد أيًّا منهما. لكنّه لم يقوَ على قولها. شُلَّ، فلم يَعُد قادرًا على المضيّ قدمًا، ولا التراجع.

ألمٌ شنيعٌ استبدّ به، وكأنّ يدَيْن عملاقتَيْن تعتصران جسده. تهشّمتْ عضلاتُه، وصرختْ عظامُه في ألم، فأحسّ بظمأٍ شديد، كأنّما جفّتْ كلّ خليّةٍ من خلايا جسمه. اهتزّ جسدُه في غضبٍ، كيف يتنازل عن نصفها لشخصٍ آخر. واستحال الغضبُ نزفًا كثيفًا لزجًا يخرج من نخاعه. أمّا رئتاه فكانتا جارتَيْن مسعورتَيْن، وقلبُه يتسارعُ مثلَ محرّكٍ ينطلق بأقصى سرعته. دمٌ داكنٌ فائرٌ ينتشر إلى جميع أطرافه.

أفاق، وجسدُه ينتفض. استغرقه الأمر حينًا حتّى أدرك أنّه كان يحلم. مزّق منامته المبلّلة بالعرق، وجفّف نفسه بمنشفة، لكنّه مهما مسح العرق لم يتخلّص من ذلك الإحساس اللزج. عندها أدرك، أو ربّما هو الحدس. إذن هذه هي الغيرة. شخصٌ آخر ينتزع قلب المرأة التي أحبّها، أو جسدها، أو كلاهما معًا.

الغيرةُ إذن (كما استوعبها من حلمه على الأقل) هي السجنُ الذي لا فكاك منه. الغيرة ليست مكانًا يُزَجّ به إليه، بل سجنًا يدخله السجين طوعًا، يغلق الباب، ويلقي المفتاح بعيدًا، دون أن يعرف أحدٌ في هذه الدنيا أنّه مسجونٌ هناك. في وسعه أن يهرب طبعًا، إن أراد. فالسجنُ في نهاية المطاف قلبُه. لكنّه كان عاجزًا عن ذلك القرار. فقلبُه صلبٌ، كجدارٍ حجريّ. هذا بالضبط جوهرُ الغيرة.

أخرج تسوكورو علبة عصير البرتقال من الثلّاجة، وراح يشرب كأسًا وراء كأس، كيما يروي جفاف حلقه. جلس إلى الطاولة ينظر من النافذة إلى شقشقة النهار، يحاول أن يهدّئ نفسه. تيّارٌ طاغٍ من المشاعر أورث الرجفة في قلبه وجسده. تساءل في نفسه: ما الذي قد يعنيه ذلك الحلم؟ أهي نبوءة؟ أهي رسالةٌ رمزيّة؟ أم إنّها كانت نفسه الحقيقيّة (التي لم يكن يعرفها) تخرج من قشرتها، تصارع للظهور؟ كائنٌ قبيحٌ كسر بيضته، يحاول في استماتةٍ أن يخرج إلى الهواء.

كانت تلك هي اللحظة التي توقّف فيها تسوكورو عن تمنّي الموت، رغم أنّه لم يُدرك ذلك إلّا لاحقًا. فقد رأى شخصًا آخر بعد أن حدّق في جسده في المرآة. لقد جرّب الغيرة (أو ما عدّه غيرةً) للمرّة الأولى في حياته في تلك الليلة، في المنام الذي رآه. وما إن جاء الفجر حتّى ودّع الأيّام السود التي تلاحقت في الشهور الخمسة الماضية، تلك الأيّام التي واجه فيها ما في الفناء من خواءٍ تامّ.

رأى تسوكورو أنّ تلك المشاعر القويّة المصوّرة التي عبرت روحه في شكل حلمٍ لا بدّ من أن تكون قد أبطلتْ توقَه إلى الموت، ذلك التوق الذي تمدّد حتى صار يخنقه. بدا له أنّ ذلك حدث كما تهبّ رياح الغرب القويّة، فتذرو السحب الكثيفة. ولم يبقَ الآن سوى شيءٍ

من استكانةٍ هادئة، شعورٍ فارغٍ مُحايدٍ لا لون له. كان يجلس وحيدًا في بيتٍ قديمٍ ضخم، يصيخ السمعَ، وساعةٌ كبيرةٌ تذرو الزمنَ دقَّةً بعد دقَّة. فمُه مغلقٌ، وعيناه ثابتتان على الساعة إذْ يرقب عقاربها وهي تتحرَّك. مشاعرهُ ملفوفةٌ، طبقةً فوق طبقةٍ من غشاءٍ رقيق، فيما قلبُه ما يزال فارغًا وهو يشيخ، ساعةً بعد أخرى.

بدأ تسوكورو شيئًا فشيئًا يعود إلى الأكل. اشترى مقادير طازجة، وراح يحضِّر وجباتٍ جيِّدة بسيطة. لكنَّه لم يسترجع من وزنه سوى قدرٍ ضئيل. كانت معدتُه قد تقلَّصت، فأصبح لا يطيق أن يأكل أكثر من مقدارٍ محدَّد، وإلَّا استفرغ فيما بعد. ثمَّ عاد إلى السباحة في مسبح الجامعة كلّ صباح. كان كثيرٌ من عضلاته قد ضمر، وضاق صدرُه كلَّما صعد السلالم، فكان في حاجةٍ إلى أن يستعيد قوَّته. اشترى ملبسًا ونظَّارةً جديدةً للسباحة، وصار يسبح كلّ يومٍ ألف مترٍ أو ألفًا وخمسمئة متر. بعد ذلك يذهب إلى الصالة الرياضيَّة فيتمرَّن بالأجهزة في هدوء.

استعاد عافيته تقريبًا بعد أشهرٍ من الأكل الجيِّد والتمارين المنتظمة. فعادت عضلاتُه التي كان يحتاج إليها (رغم أنَّه أصبح مفتول العضلات على نحوٍ مختلفٍ عمَّا سبق). انتصبتْ قامتُه، وعاد اللونُ إلى وجهه، وعادت انتصاباتُه القويَّة حين يصحو من النوم.

في تلك الفترة، زارتْه أمّه على حين فجأة، فقد لاحظتْ طارئًا غريبًا على تصرُّفاته وحديثه. وحين مرَّت عطلة رأس السنة ولم يَعُد إلى بلدته، قرَّرت أن تسافر كي تطمئنّ عليه. فلمَّا رأتْ كيف تغيَّر في غضون أشهرٍ قليلةٍ أشفقتْ عليه، لكنَّه قال إنَّها «تغيُّرات عاديَّة يمرّ بها الشبابُ في سنّي». قال لها إنَّه لا يحتاج إلَّا إلى ملابس جديدة تناسب جسمه،

فاقتنعتْ بهذا التفسير. كانت أمّه قد نشأتْ مع أختٍ لها، فساعدها ذلك في تربية بناتها، لكنّها لم تكن تعرف شيئًا عن تربية الأولاد. هكذا أخذتْه في سعادةٍ إلى محلٍّ لتشتري له ملابس جديدة، أغلبها من أحبّ «ماركتَيْن» لديْها: «بروكس برذرز» و «پولو». أمّا ملابسه القديمة فتخلّصا من بعضها، وتبرّعا بالأخرى.

وجهُه أيضًا تغيَّر. لم يعد يرى في المرآة وجهَ صبيٍّ لطيفًا ناعمًا، بريئًا مشتّتًا. ما يحدّق فيه الآن وجهُ شابٍّ بفكّيْن بارزَيْن كأنّما نُحتا بمجرفة. وثمّة ضوءٌ جديدٌ في عينَيْه، لمعةٌ لم يرها من قبل، ضوءٌ وحيدٌ معزولٌ محدود النطاق. وأمّا ذقنه فقد صارت فجأةً كثيفة، لا بدّ من أن يحلقها كلّ يوم. وصار يطيل شعره أيضًا. لم يستملح شكله الجديد، ولا كَرِهه. كان هذا الشكل في كلّ الأحوال قناعًا ملائمًا، مؤقّتًا. على أنّه كان سعيدًا باختلاف وجهه عن ذاك الوجه الذي كان له من قبل.

كان الصبيّ المدعوّ تسوكورو تازاكي قد مات على أيّ حال. لفظ أنفاسه الأخيرة في ظلمةٍ وحشيّة، ودُفن في مكانٍ ما من الغابة. دُفن سرًّا في هدوءٍ، قُبيل الفجر والناسُ نيام. ولم يوضع له شاهدٌ على القبر. أمّا الواقف هنا الآن فكان تسوكورو تازاكي جديدًا، شخصًا تبدّل جوهرُه تمامًا. غير أنّه الوحيد الذي يعرف ذلك، ولم يكن ينوي أن يخبر أحدًا.

ظلّ تسوكورو على عهده يزور محطّات القطار ويرسمها، ولم يفوّت محاضرةً واحدة. ينهض، فيستحمّ، ويغسل شعره، ودائمًا ما يغسل أسنانه بعد الأكل. يرتّب سريره كلّ صباح، ويكوي قمصانه. كان يفعل كلّ ما في وسعه كي يشغل نفسه. يقرأ في الليل ساعةً أو ساعتَيْن،

غالبًا في كتب التاريخ والسِيَر. صارت عادةً مستمرّة. العاداتُ في حقيقة الأمر هي التي دفعت بحياته إلى الأمام، رغم أنّه لم يعد يؤمن بالجماعة المثاليّة، ولا يستشعر دفء التوافق بين الناس.

يقف كلّ صباحٍ عند المغسلة وينظر إلى وجهه في المرآة، وشيئًا فشيئًا اعتاد نفسَه الجديدة، بكلّ تغيُّراتها. كان الأمر أشبه باكتساب لغةٍ جديدة، واستذكار قواعدها.

وفي نهاية المطاف، أصبح له صديق. حدث ذلك في حزيران/يونيو، أي بعد قرابة العام من تخلّي أصدقائه عنه في ناغويا. كان هذا الصديق زميلًا له في الكلّية، يصغره بعاميْن، وقد التقاه في مسبح الجامعة.

-4-

التقاه في مسبح الجامعة.

كان يسبح كلّ صباحٍ وحيدًا، مثل تسوكورو. ابتدأ الأمر بينهما بإيماءاتٍ من الرأس تحيَّةً حين تلتقي الأعين، ثمَّ انتهى الأمر إلى تبادل الحديث. غيَّرا ملابسهما في غرفة التبديل، ثمَّ خرجا لتناول الفطور معًا في «كافيتيريا» الكلّيّة. كان الشابُّ متخصِّصًا في الفيزياء، متأخِّرًا عن تسوكورو بدفعتَيْن. ورغم أنَّهما ينتسبان إلى الكلِّيَّة نفسها (كلّيّة الهندسة)، إلَّا أنَّ طلّاب الفيزياء وطلّاب الهندسة المدنيّة أشبه بكائناتٍ من كوكبَيْن مختلفَيْن.

سأله الشابّ: «في أيِّ شيءٍ تخصَّصتَ في الهندسة المدنيَّة؟»

- «بناء المحطّات».

- «المحطّات؟»

- «لا أقصد محطّات التلفاز مثلًا، بل محطّات القطار».

- «ولماذا محطّات القطار؟»

قال تسوكورو، كأنّما الأمر واضح: «لأنّ العالم في حاجةٍ إليها».

فردّ الشابّ بنبرةٍ صادقة: «بديع. لم أفكّر قطّ في هذه الحاجة إلى المحطّات».

ـ «رغم أنّك تستخدمها كما أتصوّر. إنْ لم تكن هناك محطّات فسوف تعاني كثيرًا لركوب القطار».

ـ «نعم، أركب القطار، وأتفهّم ما تقول... الأمرُ وما فيه... لم أتصوّر قطّ وجود أشخاصٍ في هذا العالم متولّعين ببناء المحطّات».

ـ «هناك من يكتب الرباعيّات، وآخرون يزرعون الخسّ والطماطم. لا بدّ من وجود أشخاصٍ أيضًا يبنون محطّات القطار. لا أقول إنّي متولّع بهذا الأمر. كلُّ ما في الأمر أنّ لديَّ اهتمامًا بشيءٍ محدّد».

ـ «أعتذر إن بدا كلامي وقحًا، لكنّني أرى من الإنجاز أن يجد الإنسان حتّى شيئًا واحدًا محدّدًا يهتمّ به».

خطر لتسوكورو أنّ الشاب يهزأ به، فحدّق مليًّا في وجهه الوسيم، لكنّه بدا جادًّا في كلامه، وتعابيره مباشرة واضحة.

قال الشابّ: «يبدو إذن أنّك تحبّ صنع الأشياء، كما يوحي اسمُك»، إذْ إنّ تسوكورو تعني «يصنع أو يبني».

ـ «نعم، لطالما أحببتُ صنع الأشياء الملموسة».

ـ «أمّا أنا فلا. لطالما كنتُ ضعيفًا في صنع الأشياء. بل إنّي منذ المرحلة الابتدائيّة كنتُ فاشلًا في استخدام يديّ. لم أفلح حتّى في صناعة نموذجٍ بلاستيكيّ. يروقني التأمّل في الأفكار المجرّدة، ولا أكَلّ من ذلك أبدًا. أمّا إنْ طلبتَ إليّ استخدام يديّ لأصنع شيئًا ملموسًا، فلا

فائدة منّي. لكنّي أحبّ الطبخ، ربّما لأنّه أقرب إلى تفكيك الأشياء منه إلى تركيبها... بالتّأكيد يبدو لك الأمر محيّرًا أن يلتحق شخصٌ مثلي بكلّيّة الهندسة».

ـ «ما التخصّص الذي تريد التّركيز عليه؟»

تفكّر الشاب في الأمر. «حقيقةً لا أدري. ليس لديّ هدفٌ واضحٌ محدّد مثلك. كلُّ ما أريده هو التّفكير عميقًا. أتأمّل الأفكار على نحوٍ حرٍّ ونقيّ. ربّما يكون الأمر أشبه بصنع فراغ».

ـ «العالم في حاجةٍ إلى بضعة أشخاصٍ يصنعون الفراغ».

فضحك الشابّ في سعادة. «نعم، لكنّ هذا مختلفٌ عن الذين يزرعون الخسّ أو الطماطم. لو أنّ كلّ شخصٍ في العالم كرّس وقته وجهده لصنع الفراغ، لوقعنا في مأزقٍ كبير».

ـ «الأفكار كاللِحى. لا يتحصّل عليها الرجال إلّا حين يكبرون. لا أذكر قائل العبارة».

فقال الشابّ: «فولتير». حكّ ذقنه قليلًا وارتسمت على وجهه ابتسامةٌ صادقة: «لكنّ كلام فولتير قد يكون شطحًا في حالتي أنا؛ فلا لحية لديّ على الإطلاق، لكنّي أحببتُ التّفكير في الأشياء منذ طفولتي».

كان وجهه بالفعل ناعمًا، لا أثر لشعرةٍ فيه. حاجباه رفيعان لكنّهما كثيفان، وأذناه مثل قوقعتَيْن جميلتَيْن.

قال تسوكورو: «لعلّ فولتير لم يقصد الأفكار، بل التفكّر».

أمال الشاب رأسه قليلًا. «الألم هو الذي يفضي إلى التفكُّر. لا علاقة لهذا بالسنّ، ولا باللحى».

اسمُ الشابّ هايدا، ويعني «الحقل الرمادي». فومياكي هايدا. قال تسوكورو في نفسه: ها هو ذا اسمٌ آخر يحتوي على لون. «السيِّد رمادي»، رغم أنَّ الرماديّ لونٌ خافتٌ بالطبع.

لم يكنْ أيٌّ منهما اجتماعيًّا بطبعه، غير أنَّ استمرار اللقاء أثمر عن صداقةٍ طبيعيَّةٍ نشأت بينهما، وبدأ الواحد منهما يبوح للآخر. قرَّرا أن يلتقيا كلَّ صباحٍ للسباحة معًا، فكلاهما يهوى السباحة الحرَّة مسافاتٍ طويلة، غير أنَّ هايدا كان أسرع بقليل. كان قد التحق بمدرسة سباحةٍ منذ صغره، فأتقنها حتّى غدتْ سباحتُه جميلةً، لا تجد فيها حركةً لا فائدة منها. يتحرَّك كتفاه بكلِّ سلاسةٍ، مثل جناحَي فراشة، بالكاد تلامس سطح الماء. أسدى لتسوكورو بعض النصائح، وتدرَّب هذا على تمرينٍ آخر لزيادة القوَّة، فاستطاع أخيرًا أن يواكب سرعة هايدا. في أوَّلِ الأمر، كان أغلب الحديث بينهما ينصبّ على فنّيات السباحة، لكنَّهما تفرَّعا إلى موضوعاتٍ أخرى لاحقًا.

هايدا شابٌّ وسيم، على قصر قامته. وجهه صغيرٌ رفيع، كتمثالٍ إغريقيّ، لكنَّ ملامحه نموذجيَّة، مع نظرةٍ ذكيَّةٍ حذرة. لم يكن من أولئك الشباب الوسيمين الذين يخطفون الأنظار مباشرةً، وإنَّما من الذين تتبدَّى وسامتُهم بمرور الوقت.

شعرُه قصيرٌ متموِّجٌ بعض الشيء، ودائمًا ما يرتدي ملابس غير رسميَّة، لا يحيد عن بنطال «تشينو» وقميصٍ فاتح اللون. ورغم بساطة ملبسه، إلَّا أنَّه كان يعرف كيف يختارها. يحبُّ القراءة جدًّا، ويشبه تسوكورو في أنَّه قليلًا ما يقرأ الروايات. يميل إلى الفلسفة والكلاسيكيَّات، ويحبّ المسرحيَّات أيضًا. كان من أشدّ المعجبين بمآسي الإغريق، ومسرحيَّات شكسبير. علاوةً على أنَّه كان على اطِّلاعٍ

جيِّدٍ بمسرح الـ«نوه» ومسرح الـ «بونراكو»[1]. ينتمي هايدا إلى إقليم «أكيتا» في أقصى شمال اليابان، وله بشرةٌ شديدة البياض وأصابع طويلة. يشبه تسوكورو في أنّه لا يحتمل الكثير من الكحول، ويختلف عنه في أنّه يستطيع التمييز بين موسيقى فيلكس مندلسون وموسيقى روبرت شومان. كان شديد الخجل، حتّى أنّه يحاول أن يبقى خفيًّا إنْ كان في الجلسة أكثر من ثلاثة أشخاص. ثمّة ندبةٌ على رقبته يبلغ طولها أربعة سنتيمتراتٍ تقريبًا، عميقةٌ كأنّما من أثر سكّين، لكنّ هذه الندبة أضفت سمةً بارزةً غريبةً على مظهره الذي لولاها لكان شديد الهدوء.

قَدِم هايدا من أكيتا إلى طوكيو في ذلك الربيع، وكان يسكن في سكنٍ طلّابيٍّ قرب الحرم الجامعيّ، لكنّه لم يصادق أحدًا بعد. فلمّا توافق مع تسوكورو راحا يقضيان الوقت سويّةً، وبدأ هايدا يزور تسوكورو في شقّته.

حين زاره أوّل مرّةٍ، قال متعجّبًا: «كيف يمكن لطالبٍ أن يسكن في شقّةٍ غاليةٍ كهذه؟»

ـ «يدير أبي شركةً عقاريّة في ناغويا، ولديْه بعض الأملاك في طوكيو. وصادف أن تكون هذه الشقّة فارغة، فسمحوا لي بالإقامة فيها. كانت أختي تسكن فيها، ثمّ تركتْها بعد تخرُّجها، وجئتُ أنا مكانها. والشقّةُ مسجّلةٌ باسم الشركة».

ـ «لا بدّ من أنّ أسرتك ثريّة».

(1) نوه (Noh): مسرحُ راقصٌ تقليديٌّ في اليابان. وبونراكو (Bunraku): مسرح دمىً تقليديّ في اليابان. (المترجم)

ـ «حقيقةً لستُ متأكّدًا من ذلك. قد تكون، لستُ أدري. ولا أظنُّ أبي يعرف أيضًا إلّا إذا اجتمع بمحاسبه ومحاميّه ومستشاره الضريبيّ ومستشاره الاستثماريّ. يبدو أنّنا لسنا في وضعٍ سيِّئٍ حاليًا، ولذلك يمكنني الإقامة في مكانٍ كهذا. وأنا ممتنٌّ لذلك فعلًا».

ـ «ألا يستهويك العملُ في مجال والدك؟»

ـ «لا، أبدًا. يتحتّم عليك في هذا المجال أن تظلّ تنقل رأس المال من مكانٍ إلى آخر، وأنا لا طاقة لي على ذلك. لستُ مثل أبي. أفضّل أن أبقى في بناء المحطّات، رغم أنّها لا تدرّ ربحًا كبيرًا».

فعلّق هايدا بابتسامةٍ عريضة: «اهتمامٌ واحدٌ محدَّد».

*

ظلّ تسوكورو مقيمًا في تلك الشقّة ذات الغرفة الواحدة في «جيوغاوكا» حتّى بعد أن تخرّج والتحق بوظيفةٍ في شركةٍ لسكك الحديد في «شنجوكو». فحين بلغ الثلاثين، تُوفّي والده، وانتقلتْ الشقّةُ رسميًا إلى ملكيّته. الحقيقةُ أنّ أباه كان قد قرّر إهداءه الشقّة، فنقل ملكيّتها إليه من دون علمه. أمّا الشركةُ فقد تولّى أمرها زوجُ أخته الكبرى، وبقي تسوكورو في وظيفته بطوكيو يبني المحطّات، دون كثير تواصلٍ مع أسرته. هكذا ظلّتْ زياراته إلى ناغويا معدودةً، متباعدة.

حين عاد إلى ناغويا لجنازة والده، خطر له أنّ أصدقاءه الأربعة قد يحضرون لتقديم العزاء، فكيف يحيّيهم إن جاؤوا؟ لكنّهم لم يأتوا. صحيحٌ أنّه شعر بارتياح، لكنّه شعر بالحزن أيضًا، وعاودتْه الصدمةُ مرّةً أخرى: ما كان بينهم قد انتهى. لا يمكن أن يعودوا أبدًا إلى ما كانوا

عليه. قد بلغوا الثلاثين جميعًا، وهذا عمرٌ لا يحلمُ فيه المرءُ بأصدقاءٍ يشكّلون جماعةً منظّمةً منسجمة.

نصف سكّان الأرض تقريبًا يكرهون أسماءهم. صادف أن قرأ تسوكورو هذه الإحصائيّة في صحيفةٍ أو مجلّة. كان من النصف الآخر، أو على الأقلّ لم يكن يكره اسمه. ربّما الأصحّ القولُ إنّه لم يكن يتخيّل أن يكون له اسمٌ آخر، أو حياةٌ أخرى لو كان له اسمٌ آخر.

رسميًّا، يُكتب اسم «تسوكورو» برمزٍ صينيٍّ واحد، لكنّه عادةً ما يهجّئه صوتيًّا بطريقة الـ«هيراغانا»، لذلك ظنّ أصدقاؤه أنّ اسمه يُكتب هكذا. أمّا أمّه وأختاه فكنّ يراوحن بين طريقتَيْن في قراءة ذلك الرمز، إذْ يقلن «ساكو»، أو «ساكو تشان»، وهذا الأخير أحبُّ إليهنّ.

أبوه هو الذي سمّاه، وقد اختار الاسم من قبل ولادة تسوكورو بوقتٍ طويل. لا أحد يعلم السبب الذي دعاه إلى اختيار الاسم، ربّما لأنّه قضى سنواتٍ عديدةٍ من حياته مبتعدًا عن أيّ شيءٍ له علاقةٌ بصنع الأشياء. أو ربّما وقع له ما يشبه الكشف، كصعقة برقٍ غير مرئيّ، مع رعدٍ صامتٍ، وشيءٍ يلوّح باسم تسوكورو في عقله. لكنّ أباه لم يقل قطّ من أين جاءته فكرة الاسم. لا قال لتسوكورو، ولا لأحدٍ غيره.

ظلّ الأب حائرًا في الرمز الصينيّ الذي سيختاره لاسم تسوكورو: فهل يختار الرمز الذي يعني «يخلق»، أم يختار الرمز الأبسط الذي يعني «يصنع أو يبني»؟ صحيحٌ أنّ الرمزَيْن يُنطقان بالطريقة نفسها، لكنّ هناك فوارق دقيقةً بينهما. افترضتْ والدتُه أنّ اسمه سيُكتب بالرمز الذي يعني «يخلق»، لكنّ الأب انحاز في نهاية المطاف إلى الدلالة الأساسيّة للكلمة.

بعد الجنازة، ذكرتْ والدتُه ذلك النقاش الذي دار حين اختار زوجها الاسم. «شعر والدك أنَّ رمز «يخلق» سيكون عبئًا عليك. وبما أنَّ الرمز الآخر يُقرأ تسوكورو أيضًا، فقد ارتأى أنّه اسمٌ أبسطُ وأخفّ. اعلم أنَّ أباك فكَّر مليًّا في الأمر، فقد كنتَ ابنه الأوَّل».

لا يذكر تسوكورو أنّه كان مقرَّبًا من والده، لكنَّه يتَّفق معه في اختيار الاسم. الشكلُ الأبسط من تسوكورو يناسبه فعلًا، فلا علاقة لتسوكورو بالإبداع والأصالة. ولكنْ أتراه خفَّف من أعباء حياته؟ ربَّما اتَّخذت تلك الأعباء شكلًا آخر، بسبب اسمه، لكنَّه لا يستطيع الجزم بأنَّه خفَّفها.

هكذا أصبح الشخص المدعوّ تسوكورو تازاكي. قبل ذلك لم يكن شيئًا. مجرَّد شَواشٍ مظلمٍ لا اسم له. قطعةُ لحمٍ ورديَّةٌ لا يبلغ وزنها ثلاثة كيلوغرامات، بالكاد تستطيع التنفُّس في الظلام، أو البكاء. في البدء، مُنح اسمًا. بعد ذلك نما وعيُه، وذاكرتُه، ثمَّ أناه. لكنَّ الأمر كلّه بدأ بالاسم.

أبوهُ توشيو تازاكي. يُكتب اسمُه الأوَّل برموزٍ تعني «الرجل الذي يربح»، فيما تدلُّ رموز تازاكي على «أشباه الجزر الكثيرة». اسمٌ مثاليٌّ لرجلٍ ربح بالفعل كثيرًا، في مجالاتٍ عديدة. عبَر من الفقر إلى مسارٍ مهنيٍّ مميَّز، وكرَّس نفسه لمجال العقارات، وامتطى حقبةً من النموّ الكبير في اليابان، فبلغ نجاحًا مبهرًا، ثمَّ أصيب بسرطان الرئة ومات في سنّ الرابعة والستِّين. لكنَّ هذا لم يأتِ إلَّا لاحقًا. فحين التقى تسوكورو هايدا، كان والدُه ما يزال في صحَّةٍ وعافية، يشتري العقارات السكنيَّة في طوكيو ويبيعها بلا كللٍ أو هوادة، وهو ينفث سيجاراته الخمسين غير المفلترة. كانت فقّاعة العقارات قد انفجرتْ، لكنَّه توقَّع تلك المخاطر،

فنوّع أملاكه كي يقلّل من خسائره. وأمّا ذلك الطيفُ المشؤوم الذي انتشر في رئتَيْه فكان ما يزال مخبوءًا، ولن يظهر إلّا في وقتٍ لاحق.

- «أبي يدرّس الفلسفة في جامعةٍ حكوميّةٍ بأكيتا. ومثلي أنا، لا يحبُّ شيئًا قدر حبّه أن يمعن في التّفكير في الأفكار المجرَّدة. يستمع دومًا إلى الموسيقى الكلاسيكيّة، ويلتهم الكتب التي لا يقرؤها أحدٌ غيره. عاجزٌ تمامًا عن كسب المال، وما إنْ تأتيه أموالٌ حتّى ينفقها على الكتب أو الأسطوانات. نادرًا ما يفكّر في أسرته أو في المدخّرات. عقله هائمٌ دومًا في السحاب. ولم يكن لي أن أدرس في طوكيو إلّا لأنَّ مصاريف الدراسة في الكلّيّة منخفضةٌ نوعًا ما، وبما أنّي أسكنُ في سكن الطلّاب، فتكاليف معيشتي قليلة».

سأله تسوكورو: «هل الأجدى ماليًّا أن تلتحق بقسم الفيزياء بدلًا من الفلسفة؟»

فقال هايدا بابتسامته العذبة المعتادة: «إن نظرنا إلى الخرّيجين الذين لا يكسبون شيئًا، فالقسمان سواء. إلّا إذا فزتَ بجائزة نوبل مثلًا».

كان هايدا وحيد أبوَيْه، قليل الأصدقاء، فأَنس وحدَته بكلبه والموسيقى الكلاسيكيّة. ولأنَّ السكن الذي التحق به لم يكن مناسبًا للاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكيّة (ولا الاحتفاظ بكلبٍ بالطبع)، فقد صار يحمل أسطواناته ويذهب بها إلى شقّة تسوكورو. معظمها كان قد استعاره من مكتبة الجامعة، لكنّه كان يُحضر أسطواناته الفونوغرافيّة من حينٍ إلى آخر. وفي شقّة تسوكورو مسجّلٌ جيّد، لكنَّ الأسطوانات الوحيدة التي تركتها أخته كانت أسطوانات «باري مانيلو» و «بِت شوپ بويز»، فلم يكن يلمس المسجّل على الإطلاق.

يفضّل هايدا الاستماع إلى موسيقى الآلات، وموسيقى الحجرة، والتسجيلات الصوتيّة[1]، ولا يميل إلى الموسيقى التي يعلو فيها الجانب الأوركستراليّ ويبرز. أمّا تسوكورو فلم يكن لديْه اهتمامٌ بالموسيقى الكلاسيكيّة (ولا أيّ موسيقى أخرى)، لكنّه يحبّ الاستماع إليها مع هايدا.

ذات مرّةٍ كانا يستمعان إلى مقطوعةٍ على البيانة، فأدرك تسوكورو أنّه سمع تلك المعزوفة مرّاتٍ عديدةٍ من قبل. لم يكن يعرف اسمها ولا مؤلّفها. مقطوعةٌ حزينةٌ هادئةٌ تبدأ بلحنٍ بطيءٍ يرسخ في الذاكرة، يُعزف بالنغمات المفردة، ثم ينتقل إلى مجموعةٍ من التنويعات الهادئة. رفع تسوكورو عينيْه عن الكتاب الذي كان يقرؤه، وسأل هايدا عنها.

ـ «هذه مقطوعة لُو مال دو پيي، لفرانتس لِست. من مجموعة **سنوات الحجّ**. السنة الأولى: سويسرا».

ـ «لو مال دو...؟»

ـ «لو مال دو پيي، بالفرنسيّة. تُترجم عادةً إلى «الحنين إلى الوطن» أو «الشجن». وإنْ فصّلناها أكثر، يمكننا أن نقول «حزنٌ غير مبرَّرٍ ينشأ في قلب المرء من منظرٍ ريفيّ». يصعب ترجمتها ترجمةً دقيقة».

ـ «كنتُ أعرف فتاةً تعزفها كثيرًا. زميلةً لي في الثانويّة».

ـ «لطالما أحببتُ هذه المقطوعة، رغم أنّها ليست شهيرة. هل كانت صديقتك تجيد العزف على البيانة؟»

(1) موسيقى الآلات (music instrumental): الموسيقى التي تخلو من الغناء. موسيقى الصالون أو الحجرة (chamber music): ضربٌ من ضروب الموسيقى الكلاسيكيّة، يُكتب لعددٍ صغيرٍ من الآلات الموسيقيّة، بحيث تكفيها حجرةٌ أو صالون. التسجيلات الصوتيّة (vocal recordings): تسجيل الصوتِ منفردًا قبل دمجه بصوت الموسيقى. (المترجم)

ـ «يصعب عليّ الحكم، فأنا لا أعرف الكثير في الموسيقى. لكنّني كنتُ أستعذب المقطوعة كلّما سمعتها منها. لا أدري كيف أعبّر عن الأمر. كان بها حزنٌ هادئ، لكنّه لم يكن مثيرًا للشجن».

ـ «إذن لا بدَّ من أنّها كانت تجيد عزفها. المقطوعةُ قد تبدو بسيطةً، ولكن يصعب الوصول إلى تعابيرها الصحيحة. فإنْ عزفتَها كما هي مكتوبةً على النوتة، أصبحتْ مملَّةً للغاية. وإنْ عبَّرتَ عنها بانفعالٍ شديد، بدتْ مبتذلة. الفارقُ إنَّما يكمن في طريقة استخدامك للدوَّاسة، إذْ يمكنك بها أن تغيِّرَ طابع المعزوفة بأكملها».

ـ «من الذي يعزف البيانة؟»

ـ «عازفٌ روسيٌّ يُدعى لازار بيرمَن. حين يعزف من موسيقى لِست يبدو كمن يرسم منظرًا من دقائق الخيال. معظم الناس تعدُّ موسيقى لِست سطحيَّةً، خالية الروح. بالطبع لديْه بعض المقطوعات المراوغة، لكنَّك إنْ استمعتَ جيِّدًا إلى موسيقاه اكتشفتَ عمقًا لا تلاحظه في المرَّة الأولى. في معظم الأحيان تكون مخبوءةً خلف زخارف كثيرة. وهذا ينطبق بالذات على مجموعة سنوات الحجّ. لا يجيد عزف هذه المقطوعة ويُحسن فيها إلَّا القلَّة. من بين العازفين المعاصرين بيرمَن يتقنها، ومن بين القدماء في رأيي كلاوديو أراو».

لا يكفّ هايدا عن الكلام حين يتحدَّثان عن الموسيقى. هكذا ظلّ يسترسل، يحدِّد الخصائص الدقيقة في عزف بيرمَن لموسيقى لِست، لكنَّ تسوكورو لم يكن في الواقع يصغي إليه. فقد انبثقت في عقله صورةٌ لشيرو وهي تعزف المقطوعة. صورةٌ عقليَّة، واضحةٌ ثلاثيَّة الأبعاد. وكأنَّ تلك اللحظات الجميلة تعود إليه سباحةً، ضدّ تيَّار الزمن.

ها هي ذي بيانةُ ياماها الكبيرة في صالة بيتها. مضبوطة الأنغام دومًا، كضمير شيرو. سطحُها الصقيل ناصعٌ دون لطخةٍ أو بصمةٍ تشوِّه بريقَه. ضوءُ العصرِ يتسرّب من النافذة. أطيافٌ تحطّ في الحديقة عند أشجار السرو. ستارةُ الدانتيل المتموّجة تحت النسمات. أكوابُ الشاي على الطاولة. شعرُها الأسود المشدود إلى الخلف بأناقة، وتركيزُها وهي تحدّق في النوتة. أصابعها الطويلةُ الجميلة فوق المفاتيح. ساقاها، إذْ تضغطان على الدوّاسات، بقوّةٍ خفيّة يصعب تخيُّلها في حالاتٍ أخرى. باطنُ ساقيْها اللامع كالبورسلين، أبيضُ ناعم. وكلّما طُلب إليها أن تعزف شيئًا، اختارت هذه المقطوعة أكثر من غيرها. «لو مال دو پيي». حزنٌ غير مبرَّرٍ ينشأ في قلب المرء من منظرٍ ريفيّ. الحنين إلى الوطن. الشجن.

وبينما تسوكورو مغمضٌ عينَيْه، مستسلمٌ للموسيقى، شعر بصدره يضيق فجأةً بشعورٍ موحشٍ خانق، وكأنّه ابتلع كتلةً صلبةً من سحابة. انتهت المقطوعة، وانتقلت الأسطوانة إلى المعزوفةِ التالية، لكنّه لم يقل شيئًا، وترك تلك المشاهد تفعل فعلها فيه. كان هايدا ينظر إليه بين الحين والآخر.

فقال وهو يعيد الأسطوانة إلى مغلّفها: «أودُّ أن أترك الأسطوانة هنا، من بعد إذنك. في كلّ الأحوال لا أستطيع أن أستمع إليها في السكن».

وما تزال هذه العلبة ذات الأسطوانات الثلاث في شقّة تسوكورو، تعشعش إلى جانب «باري مانيلو» و «پِت شوپ بويز».

كان هايدا كذلك طبّاخًا رائعًا. ولكي يُبدي امتنانه لضيافة تسوكورو والسماح له بالاستماع إلى الموسيقى، راح يشتري بعض الأغراض ويجهّز وجبةً في شقّته. كانت أخت تسوكورو قد تركت

مجموعةً من القدور والمقالي، وطقم أطباق. هذا ما ورثه منها، إلى جانب معظم الأثاث، واتّصالاتٍ هاتفيَّةٍ تأتيه من وقتٍ إلى آخر من عشّاقها السابقين («المعذرة، لم تعد أختي تقيم هنا»). يتناول العشاء مع هايدا مرّتيْن أو ثلاث كلّ أسبوع. يستمعان إلى الموسيقى، يتحدّثان، ويأكلان ما طبخ هايدا. صحيحٌ أنَّ أغلب الوجبات التي كان يطبخها هايدا أطباقٌ يوميَّةٌ بسيطة، لكنّه كان يجرّب في العطلات وصفاتٍ أكبر، إذْ يكون لديْه وقتٌ أطول. وكلّ ما يطبخه لذيذ. كانت لديْه موهبةٌ في الطبخ فيما يبدو؛ فقد كان يطبخ الوجبات بمهارةٍ وذكاء، سواء أكانت عجّةً خالية، أم حساء ميزو، أم صلصة الكريمة، أم الپاپيا.

قال تسوكورو شبه مازح: «يا أسَفًا عليك في قسم الفيزياء. يجدر بك أن تفتح مطعمًا».

فضحك هايدا. «اقتراحٌ جميل، لكنّي لا أحبّ التقيُّد بمكانٍ واحد. أريد أن أكون حرًّا، أذهب حيث أشاء، متى أشاء، وأفكّر فيما أشياء».

ـ «لكنّ هذا ليس سهلًا».

ـ «صحيح، لكنّي حسمتُ أمري. أريد أن أبقى حرًّا. أحبّ الطبخ، لكنّي لا أريد أن أدفن نفسي في مطبخٍ وأمتهن الطبخ. إن حدث هذا سأكره شخصًا ما بالتأكيد».

ـ «تكره شخصًا؟»

ـ «**الطبّاخ يكره النادل، وكلاهما يكره الزبون**. عبارةٌ من مسرحيّة **المطبخ** لأرنولد وِسكر. ألا ترى أنَّ من يُسلب حريّته دائمًا ما ينتهي به الأمر إلى كراهية شخصٍ ما؟ عن نفسي، لا أريد أن أعيش هكذا».

- «بلا قيود، تفكّر في الأشياء بحرّيّة. هذا ما تطمح إليه؟»

- «بالضبط».

- «لكنّ التّفكير في الأشياء بحرّيّةٍ ليس سهلًا في رأيي».

- «أن تتخلّى عن جسدك. أن تنزع عنك هذا القفص، وتنعتق من أغلالك، وتسمح للمنطق الصرف بأن ينطلق. أن تمنح المنطق حياةً طبيعيّة. هذا جوهرُ الفكر الحرّ».

- «لا يبدو الأمرُ سهلًا».

فهزّ هايدا رأسه: «ليس صعبًا جدًّا. يعتمدُ على نظرتك إليه. معظم الناس يمارسون ذلك من وقتٍ إلى آخر، دون إدراكٍ منهم. ولهذا يحافظون على عقولهم. كلُّ ما في الأمر أنّهم يفعلون ذلك دون وعيٍ منهم».

تأمّل تسوكورو كلام هايدا. كان يطيب له الحديث إلى هايدا عن هذا النوع من الأفكار المجرّدة. بطبيعته لم يكن متحدّثًا منطلقًا، لكنّ حواراته مع هذا الشاب تحفّز عقله، فيحدثُ أن ينساب الكلامُ منه. لم يجرّب هذا من قبل، إذْ حتّى في ناغويا مع أصدقائه الأربعة كان مستمعًا في أغلب الوقت.

قال: «ولكنْ إنْ لم تستطع أن تفعل ذلك عن قصد، فلن تتحقّق حرّيّة الفكر التي تشير إليها، أليس كذلك؟»

فأومأ هايدا: «بالضبط. لكنّ الأمر في صعوبته أشبه بأن تحلم عن قصد. فهذا أبعد من متناول الشخص العادي».

- «وأنتَ تريد أن تستطيع فعل ذلك عن قصد».

- «نوعًا ما».

- «لا أتصوَّر أنّهم يدرّسون هذه التقنيّة في قسم الفيزياء».

فضحك هايدا. «ولم أتوقَّع منهم ذلك طبعًا. ما أبحث عنه هنا هو البيئة الحرَّة، والوقت. ولا شيء أكثر. في المحيط الأكاديميّ إن أردت أن تناقش معنى التّفكير، فعليك أوّلًا أن تتّفق على تعريفٍ نظريّ. وهنا تتعقَّد الأمور. ما الأصالةُ إلّا تقليدٌ حصيف. هكذا قال فولتير، الواقعيّ».

- «تتّفق مع قوله؟»

- «لكلّ شيءٍ حدود، حتّى الأفكار. لا يجدر بك أن تخاف من الحدود، ولكنْ عليك أيضًا ألّا تهاب تحطيمها. هذا هو الأهمّ إن أردتَ أن تكون حرًّا: احترامُ الحدودِ والسخطُ عليها في الوقت نفسه. دائمًا ما تكون الأشياء الثانويَّة هي الأهمّ في الحياة».

- «هل لي أن أسألك سؤالًا؟»

- «بالتّأكيد».

- «في الديانات المختلفة، يحدثُ للأنبياء شيءٌ من الوجد، فيتلقّون وَحْيًا من كائنٍ مجرَّد».

- «صحيح».

- «يحدثُ هذا على نحوٍ يتسامى على الإرادة الحرّة، أليس كذلك؟ أقصد أنّه يحدث دونَ إرادة».

- «هذا صحيح».

- «وذلك الوحي يفوقُ حدودَ النبيّ، ويشتغلُ على نحوٍ عالميٍّ أوسع».

- «نعم».

- «ولا يوجد تناقضٌ أو غموضٌ في ذلك الوحي».

فأومأ هايدا في صمت.

ـ «إنْ كان هذا صحيحًا، فما قيمة الإرادة الحرّة إذن؟»

«سؤالٌ عظيم». قالها هايدا مبتسمًا، كابتسامة قطّةٍ تتمطّى في قيلولتها تحت الشمس. «ليتني أملك جوابًا لسؤالك، ولكن للأسف. ليس بعد».

بدأ هايدا يبيتُ في شقّة تسوكورو في الإجازات الأسبوعيّة. يتحدّثان حتّى وقتٍ متأخّرٍ من اللّيل، ثمّ يجهّز هايدا سرير الأريكة في الصالة، وينام. وحين يفيق صباحًا، يعدُّ القهوة ويطبخ العجّة. كان لا يتهاون أبدًا في موضوع القهوة، ويستخدم دائمًا بنًّا فوّاحًا، يطحنه بمطحنةٍ كهربائيّةٍ صغيرةٍ يحضرها معه. كان حبّه الشديد للقهوة الترفَ الوحيد الذي يملكه في حياته الفقيرة.

باح تسوكورو لصديقه الجديد ونديمه بأشياء كثيرةٍ من حياته الخاصّة، غير أنّه تجنّب الإشارة إلى أصدقائه الأربعة في ناغويا. لم يكن يسهل عليه أن يتحدّث عن الأمر، فالجراح كانت ما تزال جديدةً، غائرة.

لكنّه حين يكون مع هذا الصديق، يستطيع في الغالب أن ينسى أولئك الأربعة. لا، ينسى ليست الكلمة الصحيحة. فالألم الذي لاقاه من صدّهم ظلّ مستمرًّا معه، لكنّه أصبح كالتيّار، بين مدٍّ وجزر. يمتدُّ إلى قدمَيْه في بعض الأحيان، ثمّ في أحيانٍ أخرى ينحسر بعيدًا، فيكاد لا يراه. هكذا صار تسوكورو يشعر شيئًا فشيئًا أنّه يغرس جذوره في تربة طوكيو الجديدة، يقيم حياةً جديدةً فيها، رغم صغرها ووحشتها. بدت له حياته في ناغويا شيئًا من الماضي، حياةً أشبه بالأجنبيّة. كانت هذه، دون شكٍّ، خطوةً إلى الأمام يرجع الفضلُ فيها إلى صديقه الجديد، هايدا.

لهايدا رأيٌ في كلّ موضوع، وكان يستطيع دائمًا أن يجادل في رأيه بالمنطق. وبمرور الوقت الذي قضاه تسوكورو مع صديقه، زاد احترامُه له أكثر فأكثر. بَيْدَ أنّه لم يستطع أن يفهم السَّبب الذي يجعل هايدا ينجذب إليه، أو يهتمّ حتّى بأمره. على كلّ حال، كانا يقضيان وقتًا ممتعًا معًا، فلا يشعران بمرور الوقت الذي يقضيانه في المزاح.

لكنّه حين يخلو إلى نفسه يشتاقُ إلى حبيبة. يريد أن يحضن امرأةً، يلمس جسدها، يستنشق عبقها. كانت رغبةً طبيعيّةً لشابٍّ في سنّه. لكنّه ما إنْ يحاول أن يستحضر صورة امرأةٍ، أو يفكّر في احتضان امرأةٍ حتّى تتبدّى له تلقائيًّا صورةُ شيرو وكورو. تظهران دومًا معًا في هذا العالم المتخيَّل، لا تنفصلان، وهذا ما أورث تسوكورو شعورًا كئيبًا لا يملك تفسيرًا له. يسأل نفسه: لماذا هاتان، حتى الآن؟ لقد صدّتاني صدًّا قاطعًا، وقالتا إنّهما لا تريدان رؤيتي أو التحدُّث إليّ أبدًا. فلماذا لا تخرجان من عقلي في هدوءٍ وتتركاني؟ كان تسوكورو تازاكي آنذاك في الثانية والعشرين، لكنّه ما سبق له أن احتضن امرأةً بين ذراعَيْه، ولا قبّل امرأةً، أو أمسك يدها، أو حتّى ظفر بموعدٍ غراميّ.

كثيرًا ما حدّث نفسه بأنّه يعاني ولا شكّ من علّةٍ جوهريّة. لا بدّ من أنّ شيئًا يسدّ التدفُّق الطبيعيّ للمشاعر، ويشوّه شخصيّتي. لكنّ تسوكورو لم يعرف ما إذا كان هذا الانسداد قد جاء بعد ما وقع بينه وبين أصدقائه، أم إنّه أمرٌ فطريّ، مشكلةٌ أساسيّةٌ فيه لا علاقة لها بالجرح الذي تعرَّض له.

ذات سبتٍ، كان يتحدّث إلى هايدا في وقتٍ متأخّرٍ كالعادة، وتطرّقا إلى موضوع الموت. تحدّثا عن أهمّيّة الموت، ومُضيّ الإنسان في الحياة رغم معرفته بأنّه سوف يموت. كانا يناقشان الأمر بالمعنى النظريّ، وأراد تسوكورو أن يشرح لصديقه كيف أنّه كان قريبًا من الموت، ويحدّثه عن

التغيُّرات العميقة التي حصلت له من تلك التجربة في جسده وعقله. كان يودّ أن يحكي لهايدا عن الأشياء الغريبة التي رآها، لكنّه أدرك أنّه إنْ ذكرها فسوف يصبح لزامًا عليه أن يشرح الأحداث كلّها، من أوّلها إلى آخرها. من أجل ذلك، ظلّ تسوكورو كعادته مستمعًا، بينما انطلق هايدا في الحديث.

نفد الكلام منهما بُعيد الحادية عشرة، وحلّ الصمتُ في الغرفة. في العادة، يخلدُ كلٌّ منهما إلى فراشه، كي يستيقظ باكرًا. لكنّ هايدا ظلّ في مكانه، متربّعًا فوق الأريكة، غارقًا في التّفكير. ثمّ تحدّث بنبرةٍ متردّدةٍ، على غير عادته.

ـ «لديّ قصّةٌ غريبةٌ عن الموت. حكاها لي أبي. قال إنّها تجربةٌ حقيقيّةٌ مرّ بها حين كان في أوائل العشرين. في مثل سنّي الآن. سمعتُ القصّة مرّاتٍ عديدة، وأذكر كلّ تفاصيلها. قصّةٌ عجيبةٌ جدًّا، ويصعبُ عليّ إلى الآن أن أصدّق بأنّها وقعتْ فعلًا، لكنّ أبي ليس من النوع الذي يكذب في هذه الأمور. ولا من النوع الذي يختلق قصّةً كهذه. بالتّأكيد، تعرف أنّ الإنسان إذا ما اختلق قصّةً، فسوف تتغيّر تفاصيلها في كلّ مرّةٍ يحكيها. ذلك أنّه يحاول أن يزخرف الأشياء، وينسى ما قاله سابقًا... لكنّ قصّة أبي ظلّت كما هي من بدايتها إلى نهايتها في كلّ مرّة. لهذا السّبب، أعتقد أنّه مرّ بهذه التجربة فعلًا. أنا ابنُه، وأعرفه جيّدًا، فلا أملك إلّا أن أصدّق ما قاله، أمّا أنت يا تسوكورو فلا تعرفه، ويحقُّ لك أن تصدّق أو لا تصدّق. لكنْ ثِق بأنّ هذا ما قاله لي. يمكنك أن تعدّ القصّة ضربًا من الحكايات الشعبيّة، أو من الحكايات الخارقة للطبيعة، لا فرق عندي. القصّة طويلةٌ، والوقتُ قد تأخّر، ولكنْ هل تسمح لي أن أحكيها؟»

ـ «بالطبع. لا بأس، فلم أنعس بعد».

-5-

«أمضى والدي في شبابه عامًا كاملًا يهيمُ في أرجاء اليابان. كان هذا في نهاية الستينيّات، في ذروة ما عُرف بعصر الثّقافة المضادّة، حين كانت الحركة الطلّابيّة تقلب الجامعات رأسًا على عقب. لا أعرف كلّ التفاصيل، لكنّ حماقاتٍ كثيرةً وقعت حين كان طالبًا في الجامعة، فلمّا طفح كيلُه من السياسة انسحب من الحركة، وطلب إجازةً من الدراسة وراح يطوف في البلاد. التحق بوظائف شتّى من أجل لقمة العيش، وقرأ كثيرًا في وقت فراغه، والتقى أناسًا من كلّ مشرب، واكتسب خبرةً عمليّةً كبيرة. يقول أبي عن تلك الأيام إنّها أسعد أيّامه، إذْ تعلّم فيها دروسًا مهمّة. كان يقصّ عليّ طَرَفًا من حكايات تلك الأيّام، مثل جنديٍّ هَرِم يستذكر معاركه في أرضٍ بعيدة. بعد أيّام التسكُّع تلك، عاد إلى الجامعة واستأنف حياته الأكاديميّة، ثمّ لم يذهب قطّ في رحلةٍ طويلةٍ أخرى. حسب علمي، كان يقضي وقته ما بين البيت والمكتب. وهذا غريبٌ، أليس كذلك؟ فمهما بدتْ حياةُ المرء هادئةً مستكينة، إلّا أنّه لا

بدَّ من فترةٍ كان قد وصل فيها إلى طريقٍ مسدود، وفقد صوابه. أعتقد أنَّ الناس يحتاجون إلى هذه المرحلة في حياتهم».

في شتاء ذلك العام، عمل والد هايدا أجيرًا في منتجعٍ صغيرٍ للعيون الساخنة في جبال أويتا بجنوب اليابان. راقه المكان فقرَّر البقاء فيه فترة. كانت له الحرِّيَّة في أن يفعل ما يحلو له في وقته، ما دام قد أنجز المطلوب منه من أعمالٍ متفرِّقة. كان أجرُه قليلًا، لكنَّهم منحوه غرفةً مجانيَّةً وثلاث وجباتٍ في اليوم، علاوةً على السماح له بالاستحمام في العيون الساخنة كما يشاء. كان يقضي وقت فراغه في غرفته الضئيلة يقرأ. والعاملون هناك كانوا يحسنون معاملة هذا الشابّ الصموت القادم من طوكيو. الوجباتُ بسيطةٌ، لكنَّها لذيذة، مُعدَّةٌ من مقادير محلِّيَّةٍ طازجة. الأهمُّ من ذلك أنّ المكان كان معزولًا عن العالم الخارجيّ، فلا يوجد تلفاز، والصحف كانت تأتي بعد يومٍ من صدورها، وأقرب محطَّةٍ للحافلات تبعد ثلاثة كيلومتراتٍ عن الجبل. أمَّا العربةُ الوحيدة التي كان يمكنها الوصول إلى هناك والعودة إلى المنتجع عبر الشارع المتهالك فكانت سيَّارة «جيب» رثَّةٌ يملكها أصحاب المنتجع. هذا ولم تكن الكهرباء قد أُدخلت عندهم إلَّا قبل فترةٍ وجيزة.

أمام الفندق نبعٌ جبليٌّ جميلٌ يمكن للمرء أن يصطاد فيه كثيرًا من الأسماك الزاهية ذات اللحم المتين. دائمًا ما تعبر فوق سطح النبع طيورٌ مزعجةٌ بأصواتها التي تخرق الآذان، ولم يكن غريبًا أن تصادف خنزيرًا برِّيًا أو قرودًا تحوم في الجوار. هذا وكانت الجبال تحوي كنزًا دفينًا من النباتات البرِّيَّة المأكولة. في هذه البيئة المعزولة إذن، ترك هايدا نفسه للقراءة والتأمُّل، ولم يعد يعبأ بما يحدث في العالم الحقيقيّ.

فلمّا قضى شهرَيْن في الفندق بدأ يتحدَّث إلى نزيلٍ من نزلاء الفندق. كان يبدو في منتصف الأربعينيَّات من عمره، طويل القامة، نحيف الذراعَيْن والساقَيْن، قصير الشعر. يلبس نظَّارةً مذهَّبة الإطار، وقد انحسر منبت شعره، فأصبحت قمَّة رأسه ناعمةً كبيضةٍ جديدة. جاء إلى الفندق منذ أسبوعٍ مشيًا على قدمَيْه، يحمل حقيبة سفرٍ بلاستيكيَّة على كتفه. لا يخرج من غرفته إلَّا وهو يرتدي معطفًا جلديًّا وبنطال جينز، وحذاءً طويلًا. وحين تزداد البرودةُ يعتمر قبَّعةً صوفيَّةً ويلفّ على رقبته وشاحًا كحليًّا. كان اسمُه ميدوريكاوا. هذا، على الأقلّ، هو الاسم الذي كتبه في دفتر النزلاء، إلى جانب عنوانٍ في مدينة «كوغاني» بطوكيو. كان يحرص في كلّ صباحٍ على أن يدفع أجرة الليلة السابقة نقدًا.

قال تسوكورو في نفسه: ميدوريكاوا؟ (النهر الأخضر). ها هو اسمٌ آخر يحمل لونًا. لكنَّه لم يعلِّق، وأنصت إلى بقيَّة الحكاية.

لم يكن ثمَّة شيءٌ يلفت الانتباه في ما يفعله ميدوريكاوا. فكان يقضي وقته في الاستحمام في العيون، والمشي في الجبال القريبة، أو الجلوس إلى الكوتاتسو (طاولة لتدفئة القدمَيْن) يقرأ الكتب التي أحضرها معه (وأغلبها روايات بوليسيَّة خفيفة). وفي المساء، يتلذَّذ بشرب زجاجتَيْن صغيرتَيْن من الـ«ساكي» الساخن، لا أكثر من ذلك ولا أقلّ. كان صموتًا مثل هايدا، لا يتحدَّث إلَّا حين يُضطرّ فعلًا إلى ذلك، لكنَّ هذا لم يكن يزعج العاملين في الفندق. ذلك أنَّهم اعتادوا هذا الصنف من النزلاء. فجميع من يأتون إلى هذه العيون الساخنة في ذلك المكان القصيّ كانوا غريبين، وأكثر منهم غرابةً أولئك الذين يقضون فتراتٍ طويلة.

ذات صباحٍ، قُبيل الفجر، كان هايدا يستجمُّ في العين الساخنة قرب النهر، وجاء ميدوريكاوا يستجمُّ هو الآخر، فبدأ يتحدَّث إليه. كان ميدوريكاوا، لسببٍ أو لآخر، مهتمًا جدًّا بهذا الشابّ الذي يعمل في كلّ المهام. لعلّ شيئًا من اهتمامه به جاء حين رآه في الرواق يقرأ كتابًا لجورج باتاي.

قال ميدوريكاوا: أنا عازف بيانةٍ في موسيقى الجاز، من طوكيو. أُصبتُ بخيبات أملٍ شخصيَّة، وهدَّتني المشكلات اليوميَّة، فجئتُ إلى هذا المكان في عمق الجبال وحدي أنشد الراحة. في حقيقة الأمر، لم أخطِّط مساري، وصادف أن وصلتُ إلى هنا. لكنَّ المكان أعجبني. متجرِّدٌ من كلِّ شيءٍ سوى الضرورات الأساسيَّة. سمعتُ أنَّك من طوكيو أيضًا، صحيح؟

أخبره هايدا عن وضعه بإيجازٍ قدر الإمكان، وهو ما يزال في الماء الساخن تحت ضوءٍ خافت. قال إنَّه طلب إجازةً من الجامعة وراح يطوف في أنحاء البلاد. ثمَّ أضاف إنَّه لم يكن هناك ما يدعوه إلى البقاء في طوكيو، لاسيَّما بعد حصار الحرم الجامعيّ.

فسأله ميدوريكاوا: ألا يهمُّك ما يحدث الآن في طوكيو؟ إنَّه عرضٌ مبهر. ضجَّةٌ تتبعها ضجَّة، كلّ يوم. وكأنَّ العالم كلّه انقلب. ألا يؤسفك أن تفوِّت ذلك؟

قال له هايدا: العالم لا ينقلب بسهولة. الناس هم الذين ينقلبون رأسًا على عقب، وهذا شيءٌ لا آسَفُ على تفويته. احترم ميدوريكاوا طريقة الشاب الموجزة والمباشرة في الحديث.

سأله: أتعرف مكانًا هنا يمكنني أن أعزف فيه على بيانة؟

فردَّ هايدا: توجد مدرسةٌ متوسّطةٌ في الجانب الآخر من الجبل. قد يسمحون لك بالعزف في غرفة الموسيقى بعد انتهاء اليوم الدراسيّ. ابتهجَ ميدوريكاوا لسماع ذلك، وقال: هل يمكنك أن تأخذني إلى هناك، إنْ لم يكن في الأمر مشقَّةٌ عليك؟ أبلغ هايدا صاحب الفندق، فكلَّفه بمرافقة ميدوريكاوا إلى المدرسة، واتَّصل بهم لتجهيز القاعة. بعد الغداء، سار الاثنان على الجبل. كان المطر قد توقَّف، فصار المسار زَلِقًا، غير أنَّ ميدوريكاوا كان يمشي بسرعةٍ وخطى واثقة، يعلِّق حقيبته قُطريًّا على كتفِه. ورغم أنَّ سيماءَه سيماءُ ابن مدينةٍ، إلَّا أنَّه أكثر صلابةً ممَّا يبدو.

نظر ميدوريكاوا في البيانة القديمة القائمة في غرفة الموسيقى، فوجد المفاتيح غير مستوية، غير مُدَوزنة، لكنَّ البيانة في المجمل تؤدِّي الغرض. جلس على الكرسيّ القديم، ومدَّ أصابعه، مرَّرها على المفاتيح الثمانية والثمانين كلِّها، ثمَّ راح يجرِّب بعض النغمات. خماسيَّات، سباعيَّات، تساعيَّات، إحدى عشريَّات. لم يرقْه الصوت، لكنَّه بدا يستمتع بمجرَّد الضغط على المفاتيح. أخذ هايدا يراقب كيف تتحرَّك أصابعه برشاقةٍ ومرونة، فقال في نفسه لا بدَّ من أن يكون هذا عازفًا معروفًا.

وبعد أن جرَّب ميدوريكاوا البيانة، أخرج من حقيبته كيسَ قماشٍ صغيرًا، فوضعه بعنايةٍ فوق البيانة. كان الكيس مصنوعًا من قماشٍ غالي الثمن، مربوطًا بخيطٍ من الأعلى. قال هايدا في نفسه لعلَّه رمادُ شخصٍ ما. بدا له أنَّ وضع الكيس على البيانة واحدٌ من طقوسه حين يعزف. هكذا توحي طريقته المتمرّسة في فعل ذلك.

بدأ ميدوريكاوا يعزف في تردُّدٍ مقطوعة «حول منتصف الليل». عزف كلَّ نغمةٍ في حرصٍ، على مهل، كشخصٍ يضع أصابع قدمَيْه في

نبعٍ، يتفحَّص سرعة الماء ويبحث له عن موطئ قدم. وبعد أن عزف الثيمة الأساسيَّة، راح يرتجل في عزفٍ طويل. بمرور الوقت، ازدادت أصابعه رشاقةً وسخاءً، مثل أسماكٍ تسبح في مياهٍ صافية. يُسراه تلهم اليمنى، واليمنى تستنهض اليسرى. لم يكن والد هايدا يعرف الكثير عن موسيقى الجاز، لكنَّه كان يعرف مقطوعة «ثيولونيوس منك» هذه، وقد نفذ ميدوريكاوا بعزفه إلى جوهر المقطوعة. كان عزفُه شجيًّا للغاية حتَّى أنَّ هايدا نسي تمامًا ما في البيانة من خلل. كان وحدَه الجمهور الذي يستمع، هناك في غرفة الموسيقى المدرسيَّة في أعماق الجبال، فشعر بالموسيقى تغسل كلّ رِجسٍ في داخله. تقاطع جمالُ الموسيقى مع الهواء العليل وماء النبع الصافي، فصارت تعمل كلّها في انسجام. ميدوريكاوا هو الآخر غرق في عزفه، وكأنَّ تفاصيل الواقع كلّها اختفت. لم يسبق لهايدا أن رأى شخصًا مستغرقًا إلى ذلك الحدّ فيما يفعل، فلم يستطع أن يرفع عينَيْه عن أصابع ميدوريكاوا التي تتحرَّك ككائناتٍ حيَّةٍ مستقلَّةٍ بذاتها.

فَرَغ ميدوريكاوا من العزف في ربع ساعة، فأخرج منشفةً سميكةً من حقيبته، وراح يمسح وجهه المتعرِّق بعناية. أغمضَ عينَيْه فترةً كأنَّما يتفكَّر، ثمَّ قال أخيرًا: «حسنٌ، يكفي هذا. لِنَعد». مدَّ يده والتقط كيس القماش من البيانة، فأعاده بلطفٍ إلى حقيبته.

تجرَّأ والد هايدا على سؤاله: «ماذا في الكيس؟»

فأجابه ميدوريكاوا ببساطة: «رُقيةٌ لجلب الحظ».

«تقصد شيئًا مثل إلهِ حارسٍ للبيانات؟»

فقال ميدوريكاوا بابتسامةٍ مرهقةٍ ترتسم على شفتَيْه: «لا. بل هو أشبه بأنَاي الأخرى. للأمر قصةٌ غريبة، لكنَّها طويلةٌ جدًّا، وأنا مرهقٌ لا أستطيع أن أحكيها الآن».

توقّف هايدا هنا ونظر إلى ساعة الجدار. ثمّ نظر إلى تسوكورو. كان هذا هايدا الابن طبعًا، لكنّ هايدا الأب كان في مثل سنّه في هذه القصّة، فبدأ الاثنان يتقاطعان في عقل تسوكورو. كان شعورًا غريبًا، كأنّما امتزجت تلكما الزمانيّتان في زمانيّةٍ واحدة. لعلّه لم يكن الأب هو الذي وقعتْ له تلك القصّة، بل الابن. لعلّ هايدا ينسب القصّة إلى أبيه، في حين أنّها قصّته هو. لم يستطع تسوكورو أن يهشّ هذا الوهم عن عقله.

ـ «تأخّر الوقت. يمكنني أن أكمل القصّة لاحقًا إن كنتَ ناعسًا».

فقال تسوكورو: لا، لا بأس. لستُ ناعسًا. في الواقع، كانت قد تجدّدت طاقته، فأراد أن يستمع إلى بقيّة الحكاية.

ـ «حسنٌ، سأواصل إذن. لستُ ناعسًا كذلك».

✹

كانت تلك هي المرّة الوحيدة التي استمع فيها هايدا لعزفِ ميدوريكاوا على البيانة. فما إن انتهى هذا من عزف «حول منتصف الليل» في غرفة الموسيقى المدرسيّة، حتّى بدا أنّه فقد كلّ اهتمامه بالعزف مرّةً أخرى. سأله هايدا محاولًا أن ينتزعه ممّا هو فيه: «ألم تعد تريد أن تعزف؟»، فما كان جوابُه إلّا هزّةَ رأسٍ صامتة. كفّ هايدا عن السؤال، فمن الواضح أنّ الأمر لم يَعُد يهمّ ميدوريكاوا. كم تمنّى هايدا أن يسمعه يعزف مرّةً أخرى.

لم يكن ثمّة شكٌّ في أنّه يمتلك موهبةً حقيقيّة. ففي عزفه قوّةٌ تحرّك المستمع جسديًا ووجدانيًا، قوّةٌ تنقلك إلى عالمٍ آخر. لم يكن عزفُه من النوع الذي تسهل محاكاته.

لكنّ هايدا لم يستطع أن يفهم معنى هذه الموهبة المذهلة وأثرها على ميدوريكاوا. أتراها نعيمًا مدهشًا، أم حِملًا ثقيلًا؟ نعمةً أم نقمة؟ أم شيئًا يحتوي كلّ ذلك في وقتٍ واحد؟ في كلّ الأحوال، لا توحي تعابير ميدوريكاوا بسعادةٍ كبيرة، إذْ تتراوح ما بين الكآبة والفتور. ثمّة ابتسامةٌ خفيفةٌ ترتسم على شفتَيْه أحيانًا، لكنّها دائمًا خافتة، لا تخلو من مفارقةٍ ساخرة.

ذات يومٍ، كان هايدا يحتطب في الفناء الخلفيّ، فجاءَه ميدوريكاوا.

- «هل تشرب؟»

- «قليلًا».

- «جيّد. هل تشرب معي الليلةَ بضع كؤوس؟ سئمتُ الشرب وحدي».

- «لديَّ بضع أعمالٍ أنجزها في المساء، لكنّي سأنتهي منها قبل السابعة والنصف».

- «حسنٌ. أنتظرك في غرفتي إذن».

وصل هايدا إلى غرفة ميدوريكاوا، فوجد العشاء مجهّزًا لهما، مع زجاجات الساكي الساخن. جلسا متقابلَيْن، يأكلان ويشربان. لم ينهِ ميدوريكاوا حتّى نصف عشائه، وراح يجترع الساكي، يصبّه بنفسه. لم يتحدّث عن حياته هو، بل راح يسأل هايدا عن مسقط رأسه (أكيتا) وحياته الجامعيّة في طوكيو. فلمّا عرف أنّ هايدا يدرس الفلسفة طرح عليه أسئلةً متخصّصة. عن منظور هيغل للعالم، وعن كتابات أفلاطون. كان واضحًا أنّه قد قرأ في ذلك النوع من الكتب قراءةً منهجيّة. فلم تكن الروايات البوليسيّة كلّ ما يقرأه.

قال ميدوريكاوا: «إذن، فأنتَ تؤمن بالمنطق، أليس كذلك؟»

- «بلى. أؤمن بالمنطق وأعتمد عليه. في نهاية المطاف هذا هو أسُّ الفلسفة».

- «إذن فأنتَ لا تحبّ أيّ شيءٍ يتعارض مع المنطق، صحيح؟»

- «بصرف النظر عن حبّي أو كرهي، أنا لا أرفض التفكير في الأشياء غير المنطقيّة. لا أقول إنّني أؤمن إيمانًا عميقًا بالمنطق. لكنّي أعتقد أنّه مهمّ لإيجاد نقطة التقاطع بين المنطقيّ وغير المنطقيّ».

- «هل تؤمن بالشيطان؟»

- «الشيطان؟ تقصد ذاك الذي له قرنان؟»

- «نعم، لكنّي لا أعلم ما إذا كان له قرنان فعلًا أم لا».

- «إن كنتَ تقصد الشيطان بوصفه مجازًا للشرّ، فأنا أؤمن به طبعًا».

- «وماذا لو اتّخذ هذا المجاز شكلًا فعليًا؟»

- «لا أدري، إلّا إذا رأيتُه فعلًا».

- «ولكنْ إن رأيتَه يكون قد فات الأوان».

- «نحن نتحدّث في فرضيّات. فإن أردت التوسّع، سنحتاج إلى أمثلةٍ ملموسة. كحاجة الجسر إلى دعامات. فكلّما استغرقتَ في الفرضيّة، تخلخلتْ أكثر. حينها تصبح الاستنتاجات التي تستخرجها منها مضلّلةً».

«أمثلة؟». أخذ جرعةً من الساكي وقطب جبينه. «ولكنْ أحيانًا حين يظهر مثالٌ فعليّ، فإنّ المسألة تنحصر فيما إذا كنت تقبل ذلك المثال أم لا تقبله، أو ما إذا كنت تؤمن به. لا يوجد حلٌّ وسط. فليس سوى أن تُقْدم على قفزةٍ عقليّة. المنطقُ لا يسعفك».

ـ «قد لا يسعف. المنطقُ ليس كتيّب إرشاداتٍ تعود إليه عند الحاجة. ولكنْ لاحقًا، يُفترض أن تستطيع تطبيق المنطق على أيّ حالة».

ـ «ولكنْ حينها يكون قد فات الأوان».

ـ «لا علاقة لهذا بالمنطق».

فتبسّم ميدوريكاوا. «أنت محقٌّ طبعًا. لو اكتشفتَ بعد فترةٍ أنّ الأوان قد فات، فهذا شيءٌ، ومنطقيّته شيءٌ آخر. حُجّةٌ قويّة. لا جدال فيها».

ـ «سيّد ميدوريكاوا، هل سبق لك أن فعلتَ ذلك؟ أن تقبل شيئًا، وتؤمن به، وتقدم على قفزةٍ عقليّةٍ فوق المنطق؟»

ـ «لا. أنا لا أؤمن بأيّ شيء. لا بالمنطق، ولا باللّامنطق. لا بالله، ولا بالشيطان. لا أعرف توسعة الفرضيّة، أو ما يشبه القفزة العقليّة. أنا أقبل كلّ شيءٍ كما هو في صمت. هذه مشكلتي الأساسيّة فعلًا، إذْ لا يمكنني أن أقيم حاجزًا ذا قيمةٍ بين الموضوع والمادة».

ـ «لكنّك موهوبٌ جدًّا، في الموسيقى».

ـ «هذا رأيك؟»

ـ «بموسيقاك شيءٌ يحرّك الناس. لا أعرف الكثير في الجاز، لكنّ هذا ما أراه».

فهزّ ميدوريكاوا رأسه على مضض. «قد تكون الموهبة شيئًا لطيفًا أحيانًا. تضفي عليك جمالًا، تجذب الانتباه إليك، وقد تجني المال منها إن حالفك الحظّ. تتقاطرُ النساء عليك. بهذا المعنى، يكون امتلاكُ الموهبة أفضل من عدمه. لكنّ الموهبة لا تشتغل إلّا حين يدعمها تركيزٌ

عقليٌّ وجسديٌّ قاسٍ لا يكلّ. ولكن إنْ تقلقل برغيٌّ واحد، أو انهار رابطٌ واحد في جسدك، فسوف يختفي تركيزك، كالندى في وقت الفجر. مجرّد ألم بسيطٍ في أسنانك، أو تصلُّبٍ في كتفَيْك كفيلٌ بحرمانك من العزف جيِّدًا على البيانة. خبرتُ هذا بالفعل. تسوّسٌ واحد، أو كتفٌ واحدٌ يؤلمك، فإذا بالصورة والصوت الجميل الذي أردتَ أن توصله قد طار بعيدًا. نعم، جسمُ الإنسان على هذا القدر من الهشاشة. منظومةٌ معقَّدةٌ يمكن إتلافها بشيءٍ تافهٍ جدًّا. وفي معظم الأحيان، لا يمكن إصلاحها بسهولة. صحيح، يمكنك أن تتجاوز مسألة التسوُّس أو تصلُّب الكتفَيْن، لكنَّ هنالك أشياء كثيرةً جدًّا لا يمكن تجاوزها. إن كانت الموهبةُ هي الأساس الذي نعتمد عليه (ولكنَّه أساسٌ غير موثوق لا تعرف ما يمكن أن يحدث له بين لحظةٍ وأخرى) فما جدوى هذه الموهبة؟»

ـ «قد تكون الموهبة زائلة، وكثيرون لا يستطيعون أن يحافظوا عليها طوال حياتهم، لكنَّها تمنحك قفزةً روحيَّةً هائلة. هي أقرب لأن تكون ظاهرةً عالميَّةً مستقلَّة، أكبر من حدود الفرد».

تفكَّر ميدوريكاوا قليلًا قبل الإجابة. «تُوفِّي موزارت وشوبرت في شبابهما، لكنَّ موسيقاهما خالدة. هل هذا ما تقصده؟»

ـ «قد يكون هذا مثالًا واحدًا».

ـ «هذا النوع من المواهب هو الاستثناء. ومعظم من يمتلكونها يدفعون ثمنًا لعبقريَّتهم، إذْ يقبلون حياةً مُقَصَّرةً وموتًا قبل الأوان. يعقدون صفقةً، يدفعون فيها حياتهم. لا أدري ما إذا كانت الصفقة مع الله أم الشيطان». ثمَّ تنهَّد وصمت فترة. «سأغيِّر الموضوع قليلًا، لكنَّني في واقع الأمر على مشارف الموت. بقي لي شهرٌ واحد».

هنا جاء دور هايدا في الصمت. فلم ينبس ببنت شفة.

- «لستُ أصارعُ مرضًا مثلًا. أنا في صحّةٍ جيّدة، ولا أفكّر في الانتحار. لا تقلق، إن كان هذا ما دار في ذهنك».

- «كيف عرفتَ إذن أنّه بقي لك شهرٌ واحدٌ؟»

- «شخصٌ أخبرني. قال لي لديك شهران فقط في هذه الحياة. كان هذا قبل شهر».

- «ومَن يمكن أن يقول شيئًا كهذا؟»

- «لم يكن طبيبًا، ولا عرّافًا. مجرّد شخصٍ عاديّ. لكنّه في ذلك الوقت، كان على مشارف الموت أيضًا».

قلّب هايدا الأمر في رأسه، لكنّه لم يجد مكانًا للمنطق. «إذن... هل جئتَ إلى هنا بحثًا عن مكانٍ تموت فيه؟»

- «شيءٌ كهذا».

- «لم أفهم. ولكنْ ألا توجد طريقةٌ تتجنّب بها الموت؟»

- «طريقةٌ واحدة. أن تأخذ تلك المكانة (أو تذكرة الموت)، وتنقلها إلى شخصٍ آخر. أعني أن تجد شخصًا آخر يموت عوضًا عنك. تسلّمه الراية وتقول له «تفضّل، حان دورك»، وتذهب إلى حال سبيلك. إن فعلتَ هذا، تجنّبتَ الموت، إلى حين. لكنّي لا أنوي فعل ذلك. منذ فترةٍ طويلةٍ، تراودني رغبة الموت في أقرب وقتٍ ممكن. لعلّ هذا ما أحتاج إليه».

- «إذن ليست لديْك مشكلةٌ في الموت؟»

- «الحياة صارت لا تُطاق. لا مشكلة لديّ في الموت. ولا طاقة عندي للبحث وإيجاد طريقةٍ تساعدني على التخلّص من حياتي. ما أستطيع فعله هو أن أتقبّل الموت في هدوء».

ـ «ولكنْ كيف يحدث أن تنقل تذكرة الموت هذه إلى شخصٍ آخر؟»

فهزّ ميدوريكاوا كتفَيْه وكأنَّ الأمر بالفعل لا يعنيه. «الأمر سهل. ينبغي للشخص الآخر أن يفهم ما أقوله، ويتقبّله، ويوافق، ويقبل أن يأخذ التذكرة. هكذا تكتمل عمليّة النقل. يمكن أن تكون الموافقة شفهيّة. أو حتّى بالمصافحة. لا ضرورة لورقةٍ أو عقدٍ موقَّعٍ مختوم. فالأمر ليس معاملةً رسميّة».

أمال هايدا رأسه. «ولكنْ بالطبع ليس سهلًا أن تجد شخصًا يقبل أخذ التذكرة منك، ما دام ذلك يعني أنّه سيموت قريبًا».

ـ «كلامك في محلّه. لا يمكنك عرض الأمر على أيّ شخصٍ كيفما اتّفق. فلا يمكن أن تمشي إلى جانب شخصٍ وتهمس له: من فضلك، هل توافق على الموت بدلًا منّي؟ لا بدّ من أن تنتقي الشخص. وهنا مكمن الصعوبة».

نقّل ميدوريكاوا عينَيْه في أرجاء الغرفة ببطءٍ، وتنحنح.

قال: «هل تعرف أنّ لكلّ شخصٍ لونًا؟»

ـ «لا».

ـ «لكلّ شخصٍ لونٌ خاصٌّ به، يلمع بخفوتٍ حول معالم جسده. كالهالة. أو الإضاءة الخلفيّة. وأنا أستطيع أن أرى تلك الألوان بوضوح».

صبّ لنفسه قدحًا آخر من الساكي وأخذ يرتشفه، ويستطعمه على مهل.

فسأله هايدا في ارتياب: «وهل وُلدتَ بهذه القدرة على رؤية الألوان؟»

هزّ ميدوريكاوا رأسه: «لا. ليست فطريّة. إنّها قدرةٌ مؤقّتة. تأخذها في مقابل أن تقبل بموتٍ وشيك. تُنقل هذه القدرة من شخصٍ إلى آخر، وفي الوقت الحالي أنا المؤتمن عليها».

صمت هايدا فترةً. لم يجد ما يقوله.

قال ميدوريكاوا: «ثمّة ألوانٌ أحبُّها في هذا العالم، وألوانٌ أكرهها. ألوانٌ مبهجة، وأخرى مُحزنة. لبعض الناس لونٌ قويٌّ جدًّا، ولآخرين لونٌ خافت. يُتعبك هذا الأمر أحيانًا، إذْ ترى كلّ هذه الألوان رغمًا عنك. لهذا السّبب، لا أحبّ الحشود. لهذا السّبب، انتهى بي المطافُ إلى هذا المكان النائي».

لم يكن سهلًا على هايدا أن يستوعب ما يسمعه. «معنى ذلك أنّك تستطيع رؤية اللون الذي يصدر عنّي الآن؟»

- «نعم، بالطبع. لكنّني لن أُخبرك أيَّ لونٍ هو. ما أحتاج إليه هو العثور على أناسٍ لهم نوعٌ معيَّنٌ من الألوان، ووهجٌ معيَّن. أولئك هم الوحيدون الذين أستطيع أن أنقل إليهم تذكرة الموت. فلا يمكنني تسليمها لأيّ شخصٍ وحسب».

- «وهل هم كثيرون في هذا العالم؟»

- «لا. أظنّهم واحدًا من كلّ ألف، أو ربّما ألفَيْن. ليس سهلًا أن تجدهم، لكنّه ليس مستحيلًا. والأصعب من ذلك أن تجد الفرصة للجلوس إليهم ومناقشة الأمر معهم».

- «ولكنْ أيّ نوعٍ من البشر هؤلاء الذين لديْهم استعدادٌ للموت بدلًا من شخصٍ لا يعرفونه أصلًا؟»

تبسَّم ميدوريكاوا. «لا أدري. كلّ ما أعرفه هو أنّ لهم لونًا معيَّنًا، وقوّةً معيَّنةً في الوهج تؤطّر أجسادهم. تلك الصفاتُ الظاهريَّة فقط. وإنْ كان لي أن أخمِّن (وهذا رأيي الشخصيّ ليس إلّا)، سأقول إنَّهم أشخاصٌ لا يخشون الإقدام على القفزة. وأنا متأكّد من أنّ لديْهم أسبابًا كثيرةً لذلك».

«حسنٌ، سلَّمنا بأنَّهم لا يخشون الإقدام على القفزة، ولكنْ ما الذي يدعوهم إلى القفز أصلًا؟» مرَّتْ فترةٌ لم ينطق فيها ميدوريكاوا، وبدا أنَّ صوت النبع الجبليّ ازداد قوّة. ثمَّ ابتسم أخيرًا.

- «هنا تأتي قدرتي على الإقناع».

- «وهذا ما أريد سماعه».

- «حين توافق على الموت، تحصل على قدرةٍ استثنائيَّة. يمكنك أن تسمّيها قوَّةً خاصَّة. رؤية الألوان التي تصدر عن البشر مجرَّد وظيفةٍ واحدةٍ لتلك القوَّة، لكنَّ الأساس هو القدرة على توسعة وعيك. عندها يصبح في مقدورك أن تفتح ما سمّاه ألدوس هكسلي «أبواب البصيرة». إذْ تغدو بصيرتك صافيةً نقيَّة. كلُّ شيءٍ من حولك يصبح واضحًا، كانقشاع الضباب. تنمو لديك نظرةٌ عليمةٌ بهذا العالم، وتُبصر أشياء لم ترها من قبل قطّ».

- «هل كان عزفُك في ذلك اليوم نتيجةً لتلك القدرة؟»

فهزَّ ميدوريكاوا رأسه هزَّةً خفيفة. «لا. هذا أمرٌ أجيده منذ زمن. أعزف هكذا منذ سنوات. البصيرةُ مكتفيةٌ بذاتها، لا تكشف عن نفسها في تمثُّلاتٍ خارجيَّةٍ ملموسة. ولا توجد منافع ملموسة لها أيضًا. ليس من السَّهل شرحُ ذلك، فعليك أن تجرِّب كي تفهم. ما أستطيع قوله هو

أنّك ما إن ترى ذلك المشهد الحقيقيّ بعينَيْك، حتى يغدو العالم الذي عشتَ فيه سطحيًا تافهًا. لا يوجد منطقٌ أو لا منطقٌ في ذلك المشهد. لا خير ولا شرّ. كلّ الأشياء مدمجةٌ في شيءٍ واحد. وأنت جزءٌ من ذلك الدمج. تتخلّى عن جسدك، كي تصبح كائنًا ما ورائيًا. تُصبح حَدسًا. شعورٌ يمزج بين الروعة وقلّة الحيلة في وقتٍ واحد؛ إذْ تُدرك (في اللحظة الأخيرة تقريبًا) كم كانت حياتك ضحلةً سطحيّة. ترتعشُ أطرافك تعجُّبًا من قدرتك على احتمال حياةٍ كهذه إلى ذلك الوقت».

- «وترى أنّ هذا الشعور يستحقّ التجربة، رغم أنّه يعني قبول الموت؟ علاوةً على أنّه سيظلّ معك لفترةٍ قصيرةٍ ليس إلّا؟»

فأومأ ميدوريكاوا: «تمامًا. وهذا يعني أنّه شعورٌ ثمينٌ جدًّا. أؤكّد لك».

صمتَ هايدا قليلًا.

فقال ميدوريكاوا مبتسمًا: «ما رأيك؟ هل بدأتَ تفكّر في قبول التذكرة؟»

- «أتسمح لي بسؤال؟»

- «تفضّل».

- «هل.. يعني ذلك أنّني واحدٌ من القلّة الذين لهم ذلك اللون والوهج؟ الواحد من الألف أو الألفيْن؟»

- «نعم. عرفتُ هذا لحظةَ رأيتك».

- «هل أنا ممّن يرغبون في الإقدام على القفزة؟»

- «هذا ما لستُ أعرفه. ينبغي عليك أن تطرح السؤال على نفسك، أليس كذلك؟»

- «لكنَّك قلتَ إنَّك لا تريد تسليم التذكرة لأحد».

- «اعذرني. أنا أنوي أن أموت، ولا أشعر برغبةٍ في تسليمها لأحد. مثل بائعٍ لا يريد أن يبيع شيئًا».

- «ولكنْ إنْ متُّ، ما الذي يحدث للتذكرة؟»

- «غلبتَني. هذا سؤالٌ جيّد. لعلَّها تختفي معي، أو تبقى على نحوٍ ما وتُنقل من جديدٍ من شخصٍ إلى آخر. كخاتم ڤاغنر[1]. لا أدري، وبكلِّ صراحةٍ لا يهمُّني أن أعرف. أقصد أنّي لن أكون مسؤولًا عمّا يحدث بعد موتي».

حاول هايدا أن يصفَّ تلك الأفكار في نظامٍ معيَّنٍ في رأسه، لكنّه لم يفلح.

فقال ميدوريكاوا: «ليس في ما قلتُ رائحةُ المنطق، أليس كذلك؟»

- «هي قصَّةٌ مدهشةٌ، ولكنْ يصعب تصديقها».

- «لأنَّه لا يوجد تفسيرٌ منطقيّ؟»

- «بالضبط».

- «نعم، لا توجد طريقةٌ لإثباتها».

- «الطريقةُ الوحيدةُ لمعرفة ما إذا كانت القصَّةُ حقيقيَّةً أم لا، وإثباتها، هي أن تعقد الصفقة فعلًا. أليست هذه هي الطريقة التي يسير عليها الأمر؟»

---

(1) إشارةٌ إلى سلسلةٍ من أربع أوبرات كتبها الموسيقيّ الألمانيّ رتشرد ڤاغنر وتُعرف باسم «خاتم النبلنغ Der Ring des Nibelungen»، وفي قصَّتها خاتمٌ عجيبٌ ينتقل من شخصيَّةٍ إلى أخرى. (المترجم)

أومأ ميدوريكاوا. «بالضبط. لا يمكنك إثباتها إلّا إذا قفزت. وبمجرّد أن تقفز، لن تعود هناك حاجةٌ إلى إثباتها. لا يوجد حلٌّ وسط. إمّا أن تقفز أو لا تقفز. إمّا هذه أو تلك».

- «ألستَ خائفًا من الموت؟»

- «لا. رأيتُ كثيرين من عديمي الجدوى يموتون، ولئن استطاع أمثال هؤلاء أن يخوضوا هذا الأمر، فلن يصعب عليّ».

- «هل تفكّر في ما بعد الموت؟»

- «تقصد العالم الآخر والحياة الآخرة، وهذه الأمور؟»

أومأ هايدا.

فقال وهو يفرك لحيته: «حسمتُ أمري ألّا أفكّر فيها. مضيعةٌ للوقت أن تفكّر في أشياء لا يمكنك أن تعرفها، أو أشياء لا يمكنك أن تؤكّدها حتى وإن كنت تعلمها. في النهاية، لا يختلف هذا عن منحدر الفرضيّات الزِلق الذي كنتَ تتحدّث عنه».

سحبَ هايدا نفسًا عميقًا. «لماذا حكيتَ لي كلّ هذا؟»

قال ميدوريكاوا وهو يشرب: «لم أقل هذا لأحدٍ حتى الآن، ولم أكن أنوي أن أقول. كنتُ أريد الاختفاء في هدوء، لكنّي حين رأيتك قلتُ في نفسي هذا الإنسان يستحقّ أن أخبره».

- «ولا يهمّك ما إذا صدّقتك أم لا؟»

تثاءب ميدوريكاوا قليلًا، وقد وصل النعاس إلى عينَيْه.

- «لا يهمّني أن تصدّق. لأنّك ستصدّق عاجلًا أم آجلًا. ذات يومٍ ستموت، وحين تُحتضر (لا أعرف طبعًا كيف ستموت ولا أين) ستتذكّر

بالتّأكيد ما قلتُه لك. وسوف تتقبّل ما قلتُه تمامًا، وتستوعب كلّ تفصيلةٍ من تفاصيل المنطق فيه. المنطق الحقيقيّ. كلُّ ما فعلتُه هو أنْ غرستُ البذور».

كان المطر قد عاود الهطول، خفيفًا، هادئًا. صوتُ النبع المندفع من أعلى الجبل أغرق صوت المطر، ولم يتبيَّن هايدا وجود المطر إلّا من التغيُّر الطفيف في الهواء على بشرته.

فجأةً، بدت له جلسته قبالة ميدوريكاوا في تلك الغرفة الصغيرة غريبةً جدًّا، وكأنَّهما في وسط شيءٍ مستحيل، شيءٍ يناقض أساسيَّات الطبيعة. أحسَّ هايدا بدوار، وتناهت إليه نفحةٌ خفيفةٌ من الموت، رائحةُ لحمٍ يتعفَّن على مهل. لكنَّه محضُ توهمٍ بالتّأكيد؛ فلم يمت أحدٌ بعد.

قال ميدوريكاوا في هدوء: «عمَّا قريبٍ سوف تستأنف دراستك في طوكيو، وتعود إلى الحياة الحقيقيَّة. عليك أن تعيشها بكلِّ ما فيها. ومهما صارت الأشياءُ ضحلةً لا طعم لها، فإنَّ الحياة تستحقّ أن تعاش. أؤكِّد لك ذلك. وليس في ما أقوله شيءٌ من تناقضٍ أو مفارقة. الأمرُ وما فيه أنَّ الأشياء الجديرة في حياتي أصبحتْ عبئًا ثقيلًا، ولم أعد أقوى على احتمالها. لعلّي لستُ خليقًا بها. لهذا السَّبب، أصبحتُ مثل قطّةٍ تُحتضر، تزحف إلى مكانٍ هادئ مظلم، تنتظر ساعتها في صمت. الأمرُ ليس سيّئًا جدًّا. أمَّا أنت فوضعك مختلف. سوف تستطيع أن تتعامل مع ما تطرحه الحياة في طريقك. وما عليك إلّا أن تستخدم خيط المنطق قدر استطاعتك، كي تخيط لنفسك كلّ شيءٍ يستحقّ الحياة من أجله».

قال هايدا الابن: «وهذه نهاية القصّة. بعد يومَيْن من ذلك اللقاء، غادر ميدوريكاوا الفندق بينما كان أبي ينجز بعض الأعمال. ذهب، كما جاء، حاملًا حقيبته على كتفه، ونزل من الجبل ثلاثة كيلومتراتٍ إلى محطّة الحافلات. لم يعرف أبي قطّ إلى أين ذهب. دفع فاتورة الليلة السابقة ورحل من دون أن يقول شيئًا، ومن دون أن يترك رسالةً لأبي. كلُّ ما تركه خلفه مجموعة من الروايات البوليسيّة. وما لبث أبي أن رجع إلى طوكيو، فعاد إلى الجامعة وانكبّ على دراسته. لا أدري ما إذا كان ذلك اللقاء هو الذي دفع أبي إلى إنهاء رحلته الطويلة، لكنّي حين سمعتُ أبي يحكي الحكاية شعرتُ أنّ لذلك اللقاء دورًا كبيرًا».

جلس هايدا على الأريكة، ومدَّ أصابعه الطويلة يمسّد كاحلَيْه.

ـ «بعد عودة أبي إلى طوكيو، أخذ يسأل عن عازف بيانةٍ يُدعى ميدوريكاوا، فلم يجد أحدًا بهذا الاسم. لعلّه استخدم اسمًا مستعارًا، ولذلك لا يعرف أبي إلى يومنا هذا ما إذا كان الرجل قد مات فعلًا بعد شهر».

سأله تسوكورو: «لكنّ والدك ما يزال حيًّا وفي صحّةٍ جيّدة، أليس كذلك؟»

أومأ هايدا. «نعم. لم يصل إلى نهاية حياته».

ـ «وهل صدّق والدُك تلك القصّة الغريبة التي رواها له ميدوريكاوا؟ ألم يعدُّها مجرّد قصّةٍ ذكيّةٍ صيغت للعبث معه؟»

ـ «أتدري، يصعب الحكم. أعتقد أنّ الأمر بالنسبة إلى أبي، في ذلك الوقت، لم يكن مسألة تصديقٍ أو تكذيب. أعتقد أنّه قَبِل القصّة

على غرابتها، مثلما تبتلع أفعى فريستها من دون أن تمضعها، بل تتركها تنهضم على مهل».

توقّف هايدا هنا، وأخذ نفَسًا عميقًا.

- «أشعر بنعاسٍ شديد. ما رأيك أن ننام؟»

كانت الساعة تقترب من الواحدة بعد منتصف الليل. دخل تسوكورو غرفته، وجهّز هايدا الأريكة وأطفأ الأضواء. وفيما كان تسوكورو مستلقيًا على سريره بمنامته، تناهى إليه صوتُ ماءٍ يندفع من نبعٍ جبليّ. لكنَّ ذلك مستحيلٌ بالطبع؛ فقد كانا في وسط طوكيو.

وسرعان ما راح في نومٍ عميق.

في تلك اللّيلة وقعت عدّة أشياءٍ غريبة.

-6-

بعد خمسة أيّامٍ من لقاء تسوكورو بسارا في إبيسو، أيملَ لها من حاسوبه، داعيًا إيّاها إلى العشاء. فجاءه ردُّها من سنغافورة: «أعود إلى اليابان خلال يومَيْن، ولديَّ وقتٌ مساء السبت، بعد يومٍ من عودتي. سعيدةٌ بتواصلك. عندي موضوعٌ أودُّ أن أحدِّثك فيه».

موضوعٌ تتحدَّث فيه؟ لم يعرف تسوكورو ما تُراه يكون، لكنَّ موعدها أدخل السرور إلى قلبه، وجعله يدرك مرَّةً أخرى قدر رغبته فيها. ففي الفترة التي لم يرها فيها شعر كأنَّما هناك شيئًا مفقودًا في حياته، واستقرَّ في صدره ألمٌ خفيفٌ كئيب. لم يكن قد جرَّب هذا الشعور منذ فترةٍ طويلة.

لكنَّ الأيّام الثلاثة التي تلت تلك الرسالة كانت مرهقةً لتسوكورو؛ إذْ استجدَّ أمرٌ مفاجئ غيرُ متوقّع. كان هناك مخطَّطٌ لاستخدامٍ مشتركٍ في خطٍّ من خطوط المترو، غير أنَّ هذا المخطَّط تعثَّر بعد اكتشاف اختلافاتٍ في شكل عربات القطار، ما أفضى إلى مشكلةٍ تتعلَّق بالسلامة (قال في

نفسه: لماذا لم يخبرونا بهذا من قبل؟). لذلك استلزم الأمرُ إصلاحاتٍ طارئةً للأرصفة في عدّة محطّات، وكُلّف تسوكورو بوضع جدولٍ لتلك الإصلاحات. كان يعمل على مدار الساعة تقريبًا، لكنّه استطاع أن يجد وقت فراغٍ من مساء السبت إلى صباح الأحد. هكذا خرج مساء السبت من مكتبه (وهو ما يزال ببذلته الرسميّة) وتوجّه مباشرةً إلى المكان الذي اتّفق مع سارا على اللقاء فيه في «آوياما». ولفرط تعبه غطّ في نوم عميقٍ في القطار حتّى كاد يفوته تبديل القطار في محطّة «أكاساكا ـ متسوكو».

قالت له حين رأتْه: «تبدو منهكًا».

فشرح لها بإيجازٍ وتبسيطٍ قدر الإمكان سبب انشغاله الشديد في الأيّام القليلة السابقة.

ـ «كنتُ أنوي أن أعود إلى البيت وأستحمّ، وأرتدي ثيابًا مريحة، لكنّي اضطُررتُ إلى المجيء مباشرةً من العمل».

أخرجتْ سارا من كيس تسوّقٍ علبةً بديعة التغليف، طويلةً رفيعةً ومسطّحة. ناولتْه إيّاها وقالت: «هذه هديّةٌ منّي لك».

نزع تسوكورو ورق التغليف، فوجد في العلبة ربطة عنقٍ زرقاء أنيقةً، مصنوعةً من الحرير. من ماركة إيف سان لوران.

ـ «رأيتُها في محلّ السوق الحرّة في سنغافورة، وخطر لي أنّها تليق بك».

ـ «شكرًا لك. جميلة».

ـ «بعضُ الرجال لا يحبّون أن يُهدَون ربطات عنق».

ـ «لستُ من هؤلاء، فأنا لا أجد في نفسي الرغبة أبدًا لشراء ربطات العنق. وذوقك جميلٌ جدًّا».

- «يسعدني ذلك».

خلع تسوكورو ربطة عنقه (المخطّطة)، وارتدى ربطة العنق الجديدة. كان يرتدي بذلةً صيفيّةً لونُها أزرق داكن، مع قميصٍ أبيض، فكانت ربطة العنق ملائمةً جدًّا. مالت سارا فوق الطاولة ومدّت يدها المتمرّسة فعدّلت العقدة في ربطة عنقه. تهادتْ إليه نفحةٌ من عطرٍ جميل.

قالت مبتسمة: «تبدو جميلةً جدًّا عليك».

نظر إلى ربطة العنق القديمة فوق الطاولة فبدتْ له أرثّ ممّا كان يظنّ، وكأنّها عادةٌ غير حميدةٍ لم يكن واعيًا بها. هنا استشعر ضرورة أن يبدأ الاهتمام بمظهره. لم يكن هناك دافعٌ أو داعٍ كبيرٌ للاهتمام بالملبس في شركة السكك الحديديّة التي يعمل فيها، فكلُّ العاملين هناك تقريبًا ذكور، كما أنّه بمجرّد وصوله إلى المكتب ينزع ربطة العنق ويشمّر ذراعَيْه. كان يقضي وقتًا طويلًا بين مواقع الإنشاء، هناك حيث لا أحد يلتفت إلى نوع البذلة أو ربطة العنق. كما أنّه لم يصاحب امرأةً منذ فترةٍ طويلة.

أسعدتْه تلك الهديّة، فسارا لم يسبق لها أن أهدتْه شيئًا. قال في نفسه عليّ أن أعرف تاريخ ميلادها. لا بدّ من أن أقدّم لها شيئًا. شكرها مرّةً أخرى، ثمّ طوى الربطة القديمة وأدخلها في جيب سترته. كانا في مطعمٍ فرنسيٍّ في قبو بنايةٍ في آوياما، سبق لسارا أن زارتْه. المطعم بسيطٌ وبه أطعمةٌ وأنبذةٌ معقولة الأسعار. كان في الواقع أقرب إلى الحانة الصغيرة، غير أنّ مساحة الجلوس كانت واسعةً مريحة. والعاملون هناك كانوا كذلك ودودين خدومين. طلبا إبريق نبيذٍ أحمر، وراحا يتفحّصان قائمة الطعام.

كانت سارا ترتدي فستانًا ذا رسوماتٍ زهريّةٍ دقيقة، وسترةً خفيفةً بيضاء، وكلاهما يبدو من ماركةٍ معروفة. لم يكن تسوكورو يعرف كم تتقاضى سارا في عملها، لكنّ الواضح أنّها تنفق مبلغًا غير يسيرٍ على ملابسها.

حدّثته أثناء الأكل عن مهمّتها في سنغافورة. كانت تفاوض على أسعار الفنادق، وتختار المطاعم، وترتّب النقل، وتخطّط الرحلات، وتتأكّد من وجود مرافق صحّيّة. فتصميم الرحلات السياحيّة الجديدة ينطوي على مهامٍّ كثيرةٍ جدًّا: تجهيز قائمةٍ طويلةٍ بالمهام، ثمّ السفر إلى الوجهات، وتفقّد كلّ البنود واحدًا تلو الآخر، وزيارة جميع الأماكن للتأكّد من إعداد كلّ شيءٍ كما ينبغي. خطر له أنّ هذا يشبه ما تفعله شركته حين تبني محطّةً جديدة. وبينما هو يستمع إليها، أدرك من دون أدنى مجالٍ للشكّ كفاءتها ودقّتها في العمل.

قالت: «أظنّني سأُضطرّ إلى السفر مرّةً أخرى قريبًا. هل زرتَ سنغافورة؟»

ـ «لا. في الحقيقة لم أسافر خارج اليابان قطّ. لم أحظَ بفرصةٍ للسفر في مهمّة عملٍ في الخارج، وكنتُ دائمًا ما أستثقل السفر بمفردي».

ـ «سنغافورة مدهشة. الطعام رائع، وهناك منتجعٌ بديع. كم جميلٌ لو أخذتك في جولةٍ هناك».

تخيّلَ تسوكورو كيف سيقضي وقتًا رائعًا إن سافر معها، وحدهما فقط.

شرب كأس نبيذٍ واحدًا كالعادة، وشربتْ هي بقيّة الإبريق. لم يبدُ أنّ الكحول تؤثّر فيها، إذْ لا تحمرّ وجنتاها أبدًا مهما شربت. طلب تسوكورو صحنًا من «بورغينيون اللحم»، فيما طلبتْ هي بطًّا مشويًّا.

وحين فرغتْ من طبقها، حارَت في أمرها أتطلب طبقًا من الحلو أم لا، ثمَّ قرَّرت أن تطلب. أمَّا تسوكورو فطلب فنجان قهوة.

قالت سارا وهي ترشف من شايها الذي ختمتْ به وجبتها: «بعد لقائنا آخر مرَّةٍ وجدتُ نفسي أفكِّر كثيرًا. في أصدقائك الأربعة من المرحلة الثانويَّة. في تلك الجماعة الجميلة، وفي تعلُّق الواحد منكم بالآخر».

أومأ لها تسوكورو وانتظرها تواصل كلامها.

ـ «لقد أسرتْني حكاية تلك المجموعة فعلًا. ربَّما لأنِّي لم أجرِّب شيئًا كهذا قطّ».

ـ «لعلَّه كان من الأفضل لي لو لم أجرِّبه أنا أيضًا».

ـ «بسبب الألم الذي تعرَّضت له في النهاية؟»

أومأ لها.

فقالت وقد ضاقت عيناها: «أتفهَّم شعورك، ولكنْ رغم ما آلت إليه الأمور والألم الذي تعرَّضت له، أعتقد أنَّ وجودهم في حياتك كان أمرًا حسنًا. قليلًا ما يتقارب الناس على ذلك النحو، فما بالك بخمسة أشخاصٍ يحدث بينهم ذلك الترابط. تلك مُعجزة».

ـ «أوافقك الرأي. كان الأمر أشبه بالمعجزة. وأنا أيضًا أرى أنَّ وجودهم في حياتي كان أمرًا حسنًا. لكنَّ هذا تحديدًا هو الذي زاد من وقع الصدمة حين اختفى ذلك الترابط، أو لنقل حين انتُزع منِّي. الفَقدُ، والعزلةُ... أوصافٌ بعيدةٌ كلّ البعد عمَّا شعرتُ به من ألم».

ـ «لكنَّ الأمر مضى عليه أكثر من ستّ عشرة سنة. أنتَ الآن في أواخر الثلاثينيَّات من عمرك. لا بدَّ من أنَّك شعرتَ بألمٍ رهيبٍ آنذاك، ولكنْ ألم يحن الوقت لكي تتجاوز الأمر؟»

ـ «أتجاوزُ الأمر. ماذا تقصدين بالضبط؟»

أرختْ سارا يدَيها على الطاولة، وفرّقت بين أصابعها العشرة قليلًا. كانت تلبس خاتمًا على الخنصر الأيسر به جوهرةٌ صغيرةٌ على شكل لوزة. حدّقت في الخاتم برهةً، ثمّ رفعتْ عينَيْها.

ـ «أشعر بأنّ الوقت قد حان لكي تعرف لماذا استُبعدتَ، أو ما دفع أصدقاءك إلى استبعادك فجأةً هكذا».

همّ تسوكورو بارتشاف ما تبقّى من قهوته، لكنّه أدرك أنّ فنجانه كان فارغًا، فأعاده فوق صحنه. دقّ الفنجانُ الصحن فقرقع عاليًا، ما حدا بالنادل إلى أن يهرع فيملأ كأسيْهما بماءٍ بارد.

انتظر تسوكورو حتّى يذهب النادل.

ـ «كما أخبرتك، أودّ أن أُخرج هذا الموضوع من عقلي. لقد تمكّنتُ شيئًا فشيئًا من إغلاق ذلك الجرح، والانتصار على الألم نوعًا ما. استغرق ذلك وقتًا طويلًا. فلماذا أنكأ الجرحَ الآن؟»

حدّقت سارا في عينَيْه وتحدّثتْ في هدوء: «أفهم ما تقوله، ولكنْ ربّما لا يكون الجرح مغلقًا إلّا من الخارج. أمّا داخل الجرح، وتحت القشرة، ربّما ما يزال الدم يتدفّق في صمت. ألم يخطر هذا في بالك؟»

فكّر تسوكورو في كلامها، لكنّه لم يجد ما يقوله.

ـ «هلّا أخبرتني بأسمائهم كاملةً؟ واسم مدرستك الثانويّة، والسنة التي تخرّجتم فيها، والجامعات التي التحقتم بها، وآخر عناوين تواصلتَ معهم فيها؟»

ـ «وما الذي تريدينه بهذه المعلومات؟»

- «أريد أن أعرف قدر الممكن أين هم الآن وكيف يعيشون».

فجأةً تثاقلت أنفاس تسوكورو. رفع كأسَه وازدرد قليلًا من الماء. «لماذا؟»

- «كي تقابلهم وتتحدّث إليهم. كي يشرحوا لك السبب في تخلّيهم عنك».

- «وإنْ قلتُ لكِ إنّي لا أريد؟»

قلبتَ يديْها فوق الطاولة، فوجّهتْ راحتاها للأعلى، وظلّت تنظر في عينَيْه دون أن تطرف لحظة.

سألتْه: «هل لي أن أتكلّم بصراحةٍ تامّة؟»

- «طبعًا».

- «ما أريد أن أقوله ليس سهلًا».

- «أريد أن أعرف ما تفكّرين فيه. من فضلك. قولي ما يدور في بالك».

- «هل تذكر في لقائنا الأخير حين قلتُ لك إنّي لا أريد الذهاب معك إلى شقّتك؟ أتعرف السّبب؟»

هزَّ رأسه.

- «نِعم الرجل أنت، وأنا معجبةٌ بك فعلًا. أكثر من إعجاب صديق». توقّفتْ قليلًا، ثمّ قالت: «لكنّي أعتقد أنّ لديْك.. مشكلاتٍ عاطفيّةً عالقة».

فنظر إليها في صمت.

- «يصعب عليّ أن أتحدّث عن هذه الجزئيّة. أقصد يصعب التعبير عنها. فإنْ عبّرتُ بالكلام بدا شديد التبسيط. لا أستطيع أن أشرحها بعقلانيّةٍ أو منطق. الأمرُ أقرب إلى الحدس».

- «وأنا أثق بحدسك».

عضّتْ سارا شفتَها العليا ونظرت بعيدًا، كأنّما تقيس مسافةً ما، ثمّ تحدّثت. «حين تطارحنا الغرام، شعرتُ أنّك في مكانٍ آخر. في مكانٍ بعيدٍ عن وجودنا في الفراش. كنتَ في غاية اللطف، والأمرُ كان رائعًا، ومع ذلك...»

رفع تسوكورو فنجان القهوة الفارغ مرّةً أخرى، وضمّه بيدَيْه، ثمّ وضعه على الصحن، لكنْ دون أن يُحدث صوتًا.

- «غريب. لم أكن أفكّر طوال الوقت إلّا فيكِ أنتِ. لا أذكر أنّ بالي كان في مكانٍ آخر. صدقًا، لا أعتقد أنّ بالإمكان ساعتها أن أفكّر في أيّ شيءٍ غيرك».

- «ربّما. ربّما لم تكن تفكّر إلّا فيّ. ما دمتَ تقول ذلك فإنّي أصدّقك. ولكنْ كان هناك شيءٌ آخر في عقلك. أقلّه أنّني شعرتُ بمسافةٍ بيننا. لعلّه شيءٌ لا تتنبّه إليه إلّا المرأة. على أيّ حال، ما أريدك أن تعرفه هو أنّني لا أستطيع المضيّ في علاقةٍ كهذه فترةً طويلة، حتّى إن كنتُ مفتونةً بك. أنا متملّكةٌ وصريحةٌ أكثر ممّا قد أبدو عليه. فإنْ كنّا سندخل في علاقةٍ جادّة، لا أريد أن يقف هذا الشيء بيننا، أيًّا ما كان. هذا الشيء غير المعرّف. فهمتَ قصدي؟»

- «أنّكِ لا تريدين مقابلتي بعد اليوم؟»

- «لا، لا أقصد هذا. لا مشكلة عندي في أن نلتقي ونتحدّث. بل إنّني أستمتع كثيرًا بذلك. لكنّني لا أريد الذهاب معك إلى شقّتك».

- «تقصدين الجنس؟»

فقالت بصراحة: «نعم. لا أستطيع».

ـ «لأنَّ عندي.. مشكلاتٍ عاطفيّة؟»

ـ «بالضبط. لديْك مشكلاتٌ كامنة، أشياءُ قد تكون غائرةً بعمقٍ أكبر بكثيرٍ ممّا تدركه. لكنّي أرى أنّها من المشكلات التي يمكن التغلُّب عليها، شريطة أن تعقد العزم على ذلك. الأمر أشبه بإصلاح عيبٍ في إحدى المحطّات. لكنَّك كي تنجح في ذلك عليك أن تجمع البيانات المطلوبة، وترسم المخطّط الدقيق، وتعدّ جدول عملٍ مفصّل. والأهمّ من ذلك كلّه أن تحدّد أولويّاتك».

ـ «وكي أفعل ذلك، عليَّ أن ألتقي أولئك الأربعة وأتحدَّث إليهم. هل هذا ما ترمين إليه؟»

أومأتْ. «ينبغي لك أن تواجه الماضي، لا كفتى ساذجٍ يسهل جرحه، بل كرجلٍ مستقلّ محترفٍ في مهنته. لا أن ترى ما تريد رؤيته، بل ما ينبغي أن تراه. وإلّا حملتَ معك ذلك العبء طوال حياتك. لهذا السبب أريدك أن تخبرني بأسماء أصدقائك الأربعة. سأبدأ بالعثور على عناوينهم».

ـ «كيف؟»

فهزّت رأسها في دهشة. «أنت خرّيج هندسة، ولا تستخدم الإنترنت؟ ألم تسمع بغوغل وفيسبوك؟»

ـ «أستخدم الإنترنت في العمل، طبعًا. وأعرف غوغل وفيسبوك، لكنّي أكاد لا أستخدمهما أبدًا. كلّ ما في الأمر أنّي لستُ مهتمًّا بهما».

ـ «اتركهما لي إذن. فهذا ما أجيد فعله».

بعد العشاء، مشَيا إلى «شيبويا». كان الجوّ جميلًا في ذلك المساء مع انتهاء الربيع، والقمر الأصفر الكبير مغطًّى بالضباب. في الهواء شيءٌ من رطوبة، وحاشية فستانها ترفرف إلى جانبه مع النسيم. وبينما هو يمشي آنذاك تخيَّل جسمها من وراء الملابس، وفكّر في مضاجعتها مرّةً أخرى، فأحسَّ بشيئِه ينتصب. لم تكن لديْه مشكلةٌ في أن يشعر بتلك الرغبات، فهي في نهاية المطاف رغباتٌ واشتهاءاتٌ طبيعيّةٌ لرجلٍ مثله. ولكنْ لعلّ في جوهر تلك الرغبات أو في جذرها الحقيقيّ (كما ألمحتْ سارا) شيءٌ غير منطقيّ، غير سويّ. لم يستطع أن يحدّد. فكلّما فكّر في الحدّ بين الوعي واللاوعي، قلّ يقينه في هُويّته ذاتها.

تردَّد قليلًا، ثمّ قال: «ينبغي أن أصحّح شيئًا فيما قلتُه لكِ في لقائنا الأخير».

استفزّ فضولَها فألقتْ إليه نظرةً وهي تمشي. «وما هو؟»

ـ «كانت لديَّ علاقاتٌ نسائيّة، لكنّها لم تسفر عن شيءٍ حقيقيّ، لأسبابٍ متعدّدة. قلتُ لكِ إنَّ الخطأ لم يكنْ كلّه منّي».

ـ «نعم أذكر ذلك».

ـ «عرفتُ ثلاث نساءٍ أو أربع في السنوات العشر الماضية، وكلُّ تلك العلاقات كانت جادّةً مستمرّة. لم أكن أعبث. لكنَّ السّبب في فشل تلك العلاقات منّي أنا، وليس لوجود مشكلةٍ في أيٍّ واحدةٍ منهنّ».

ـ «وما المشكلة؟»

ـ «تختلف المشكلةُ من علاقةٍ إلى أخرى، غير أنَّ واحدًا من الأشياء التي تجمع بينها هو أنّني لم أكن في الواقع منجذبًا إلى أيٍّ

منهنّ. كنتُ معجبًا بهنّ، وأمضيتُ معهنّ وقتًا جميلًا، وما زلتُ أحتفظ بذكرياتٍ كثيرةٍ حُلوة، لكنّي لم أشعر قطّ برغبةٍ طاغيةٍ تجتاحني في أيّ واحدةٍ منهنّ».

لزمتْ الصمتَ برهةً، ثمّ قالت: «إذنْ فقد أقمتَ خلال عشر سنواتٍ عدّة علاقاتٍ جادّةٍ مستمرّةٍ مع نساءٍ لم تكن منجذبًا إليهنّ على الإطلاق؟»

- «نعم، تقريبًا».

- «لا يبدو لي هذا الأمر عقلانيًا».

- «أتّفق معك».

- «لعلّك لم ترغب في أن تتزوّج أو يقيّدُ أحدٌ حرّيّتك؟»

فهزّ تسوكورو رأسه. «لا، لا أعتقد أنّ هذا هو السّبب. فأنا ممّن يتعطّشون إلى الاستقرار».

- «ورغم ذلك، شعرتَ بشيءٍ في نفسك يمنعك؟»

- «ربّما نعم».

- «لم تستطع أن تقيم علاقةً إلّا بنساءٍ لا تُضطرّ إلى فتح قلبك لهنّ».

- «لعلّي خشيتُ أن أهوى امرأةً وأتعلّق بها، ثمّ تتركني فجأةً ذات يوم، وأبقى وحيدًا».

- «إذن فقد كنتَ دائمًا (بوعيٍ أو دون وعيٍ) تترك مسافةً بينك وبين المرأة التي تواعدها. أو تختار امرأةً تستطيع أن تقيم تلك المسافة بينك وبينها. أليس كذلك؟»

لم يجب تسوكورو، لكنَّ صمتَه كان موافقةً على ما قالتْه، غير أنَّه كان يعلم في قرارة نفسه أنَّ هذا لم يكن جوهر المشكلة.

قالت سارا: «وقد يحدث هذا بيننا».

ـ «لا، لا أعتقد ذلك. الأمر مختلفٌ معك. لا أقول ذلك مجاملةً، فأنا أريد أن أفتح قلبي لك. أشعر بهذا حقيقةً. ولهذا السَّبب أخبرتكِ بكلّ هذا».

ـ «تريد أن نظلّ نلتقي؟»

ـ «نعم طبعًا».

ـ «وأنا أيضًا أريد ذلك. أنتَ إنسانٌ طيِّب، صادقٌ وأمين».

ـ «شكرًا».

ـ «إذن أخبرني بأسماء الأربعة. وبعد ذلك، لك القرار. بعد أن أعثر عليهم، يبقى الخيار لك، فلستَ مضطرًا إلى رؤيتهم إن شعرتَ بأنَّك لا تريد ذلك. لكنَّ الفضول يملأني لمعرفة ما حلّ بأولئك الذين ما زالوا يثقلون كاهلك».

حين عاد إلى شقَّته، أخرج دفترًا صغيرًا من درج مكتبه، وفتح صفحات العناوين، ثمَّ طبع على حاسوبه المحمول أسماء الأربعة وعناوينهم وأرقام هواتفهم، كما يعرفها منذ آخر لقاء.

كي أكاماتسو

يوشيو أومي

يوزوكي شيران

إري كورونو

فلمّا حدّق في الأسماء الأربعة، وتأمّل الذكريات التي تستحضرها، شعر بالماضي يندمج في صمتٍ مع الحاضر، فها هو زمنٌ يُفترض أن يكون قد ولّى منذ زمنٍ يحومُ حوله، مثل دخانٍ لا لون له ولا رائحة، يتسرّب إلى الغرفة عبر شِقٍّ صغيرٍ في الباب. وأخيرًا، عاد فجأةً إلى الحاضر، ونقر على حاسوبه، فأرسل الرسالة إلى بريد سارا. تأكّد من خروج الرسالة من بريده، ثمّ أطفأ الجهاز. وانتظر عودة الزمنِ إلى الواقع مرّةً أخرى.

لكنّ الفضول يملؤني لمعرفة ما حلّ بأولئك الذين ما زالوا يثقلون كاهلك.

خطر له وهو مستلقٍ على سريره أنّ سارا على حقّ. فأولئك الأربعة ما يزالون عالقين بي، ربّما إلى حدٍ أكبر ممّا قد تتصوّره سارا أبدًا.

السيّد أحمر.

السيّد أزرق.

الآنسة بيضاء.

الآنسة سوداء.

-7-

عدّةُ أشياءٍ غريبةٍ وقعتْ في تلك الليلة، بعد أن قصَّ له هايدا حكاية أبيه مع عازف البيانة الذي التقاه في منتجع العيون الحارّة في جبال كيوشو. فَزِع تسوكورو من نومه. أيقظه صوتُ طرقٍ، كحصاةٍ تدقُّ النافذة. لعلّه محض خيال، لكنّه لم يكن متأكّدًا. أراد أن ينظر إلى المنبّه على طاولة السرير، لكنّه لم يستطع تحريك عنقه. كان جسدُه كلُّه جامدًا. لم يكن خَدِرًا، لكنّه حين حاول تحريك جسده، لم يستطع. وكأنَّ الرابط بين عقله وعضلاته انقطع.

كان الظلام يغلّف غرفته، إذْ لم يكن تسوكورو يستطيع النوم إلّا في الظلام الكامل، فكان دائمًا ما يُحكم إسدال الستائر حين يأوي إلى سريره كي لا يتسرَّب شيءٌ من الضوء. ورغم ذلك، شعر بوجود شخصٍ آخر في الغرفة، مختبئًا في الظلام، يراقبه. حبَس الشخصُ أنفاسه، وأخفى رائحته، وغيَّر لونه، وانكفأ في الظلام، مثل حيوانٍ مموَّه. غير أنَّ تسوكورو عَرف بطريقةٍ ما مَن يكون ذلك الشخص. هايدا.

السيّد رمادي.

الرماديّ مزيجٌ من الأبيض والأسود. ما إنْ تُغيِّر درجته حتّى يذوب في مستوياتٍ متعدِّدةٍ من العتمة.

كان هايدا يقف في زاويةٍ من الغرفة المظلمة، يحدِّق في تسوكورو وهو مستلقٍ على ظهره في السرير. ظلَّ هايدا فترةً طويلةً لم يحرِّك ساكنًا في جسده، كمن يتظاهر بأنَّه تمثال. لعلَّ الشيء الوحيد الذي تحرَّك فيه رموشه الطويلة. تناقضٌ غريبٌ بين هايدا الذي قرَّر أن يبقى ساكنًا، وتسوكورو الذي أراد أن يتحرَّك، لكنَّه لم يستطع. قال تسوكورو في نفسه: لا بدَّ من أن أقول شيئًا. عليَّ أن أتحدَّث وأكسر هذا التعادل الوهميَّ. لكنَّ صوته انحبس. لم تتحرَّك شفتاه، وتجمَّد لسانه. لا شيء تهادى من حنجرته سوى أنفاسٍ جافَّةٍ لا صوت لها.

ما الذي يفعله هايدا هنا؟ ولماذا يقف هكذا يحدِّق فيَّ؟

خَلُص تسوكورو إلى أنَّه لم يكن حلمًا. فكلُّ شيءٍ واضحٌ، وضوحًا لا يليق بحلم. لكنَّه لم يستطع أن يحدِّد ما إذا كان ذلك الشخص الواقف هناك هايدا الحقيقيَّ أم لا. فهايدا الحقيقيّ، بدمه ولحمه، كان يغطّ في نومٍ عميقٍ على أريكة الصالة. لا بدَّ من أن يكون هايدا الواقف هنا نوعًا من الإسقاط الذي تحدَّر من هايدا الحقيقيّ. هكذا بدا الأمر.

لم يشعر تسوكورو بخطرٍ أو تهديدٍ من وجوده. كان واثقًا من أنَّ هايدا لن يؤذيه أبدًا. لقد أدرك ذلك بغريزته منذ أن التقاه.

عَرف تسوكورو في ماضيه شخصًا حادَّ الذكاء أيضًا، مثل هايدا. كان ذلك صديقه القديم أكا، رغم أنَّ ذكاءه كان من طبيعةٍ عمليَّة، نفعيَّة. أمَّا هايدا فكان ذكاؤه أصفى، وأشدَّ تجريدًا، مكتفيًا بذاته. في كثيرٍ من

الأحيان، لا يفهم تسوكورو ما يدور في ذهن هايدا. ثمّة شيءٌ في عقل هايدا يندفع، فيتخطّى تسوكورو، لكنّه لم يعرف ما ذلك الشيء. وحين يحدث ذلك يشعر بالحَيرة، والوحدة، والهجر، لكنّه لم يشعر بانزعاجٍ أو قلقٍ قطّ من هذا الصديق الشابّ. كلُّ ما في الأمر أنَّ عقل هايدا كان فائق السرعة، يتحرّك في مجالٍ واسعٍ جدًّا، على مستوى آخر تمامًا. ولذلك كفَّ تسوكورو عن محاولة مجاراته.

لا بدَّ من أنَّ عقل هايدا يحتوي على شيءٍ يشبه الدارة ذات السرعة الفائقة، كي تتماشى مع سرعة أفكاره، فتدفعه إلى تغيير ناقل السرعة لتسريع عقله. فإنْ لم يفعل ذلك وظلَّ يسير بغيارٍ بطيءٍ يتماشى مع سرعة تسوكورو، سترتفع الحرارةُ في هيكل عقله ويختلّ. هذا على الأقلّ ما دار في بال تسوكورو. بعد فترةٍ، سيتخلّى هايدا عن تلك الدارة السريعة، ويبتسم في هدوءٍ كأنَّ شيئًا لم يحدث، ويبطئ سرعته ليتماشى مع عقل تسوكورو.

كم طالت تحديقة هايدا؟ لم يستطع تسوكورو أن يحدّد. كان هايدا واقفًا هنالك، من دون حراك، في منتصف الليل، يحدّق فيه دون أن ينطق. بدا أنَّ لديْه شيئًا يريد قوله، رسالةً يريد أن يوصلها، لكنّه لم يستطع تحويل تلك الرسالة إلى كلام. وهذا ما أثار انزعاجه، على غير عادته.

وبينما تسوكورو على سريره، تذكّر ما حكاه هايدا عن ميدوريكاوا، وكيف أنَّ هذا وضع كيسًا صغيرًا فوق البيانة قبل أن يعزف عليها. كان على مشارف الموت، كما قال. فما الذي كان في الكيس يا ترى؟ انتهت قصّة هايدا ولمّا يُكشف عن محتويات الكيس. انتاب تسوكورو فضولٌ شديدٌ لمعرفة ما يوجد في داخل الكيس، وكان يريد أن يوضّح

له أحدٌ ما أهمّيّة الكيس في الحكاية. لماذا وضع ميدوريكاوا ذلك الكيس بكلّ عنايةٍ فوق البيانة؟ لا بدّ من أنّ هذا هو مفتاح اللغز في تلك القصّة.

لكنّه لم يحصل على جواب. وبعد صمتٍ طويل، غادر هايدا (أو أناه الأخرى) الغرفةَ في هدوء. بدا لتسوكورو أنّه سمع أنفاس هايدا الخفيفة، لكنّه لم يكن متأكّدًا. تلاشى حضورُ هايدا واختفى، مثل دخان بخورٍ يبتلعه الهواء، فعاد تسوكورو وحيدًا في غرفته. ظلّ عاجزًا عن تحريك جسده، فالسلك ما بين إرادته وعضلاته ما يزال مقطوعًا، وكأنّ الصامولة التي تربطهما وقعت.

تساءل تسوكورو في نفسه عن مقدار الحقيقة فيما رآه. لم يكن ذلك حلمًا أو وهمًا. لا بدّ من أنّه كان حقيقةً، لكنّه يفتقر إلى الثقل الذي يضفيه الواقع.

السيّد رمادي.

عاد تسوكورو إلى النوم بالتّأكيد، لكنّه أفاق مرّةً أخرى في حلم. وإنْ أردنا الدقّة، فقد لا يكون حلمًا. كان واقعًا، غير أنّه واقعٌ مشبّعٌ بكلّ ما يلحق بالأحلام. كان مجالًا مختلفًا من عالم الواقع، ينطلق فيه الخيال في وقتٍ ومكانٍ معيّنَيْن.

الفتاتان في السرير، عاريتان كما ولدتهما أمّاهما، تلتصقان به من جانبَيْه. شيرو وكورو. كانتا في السادسة عشرة أو السابعة عشرة، دائمًا في تلك السنّ تحديدًا. نهودهما وأفخاذهما ملتصقةٌ به، وجسداهما ناعمان دافئان. يحسّ تسوكورو بذلك كلّه، إحساسًا واضحًا. كلٌّ منهما تعيث بجسده بأصابعها ولسانها، في صمتٍ وفي نهمٍ، وهو مثلهما عارٍ تمامًا.

لم يكن ذلك واردًا في رغبة تسوكورو، ولا مشهدًا يودُّ أن يتخيَّله. كان أمرًا لا ينبغي له أن يحدث. لكنَّ تلك الصورة ازدادت وضوحًا، رغمًا عنه، وغدا الإحساس بها أقوى وأشدَّ واقعيَّة.

أصابع الفتاتَيْن رقيقةٌ لطيفةٌ رفيعة. أربعة أيدٍ، وعشرون إصبعًا، تجول في كلِّ سنتيمترٍ من جسمه، كمخلوقاتٍ ناعمةٍ خفيَّةٍ وُلدت في الظلام، فأثارت شهوتَه أيَّما إثارة. أحسَّ بقلبه يهتاج، بقوَّةٍ لم يعهدها من قبل، كأنَّما عاش دهرًا في منزلٍ ثمَّ اكتشف فجأةً غرفةً سرِّيَّةً لم يكن يعلم شيئًا عنها. اهتزَّ قلبُه، مثل طبلةٍ، تدقُّ نغمًا واضحًا. ذراعاه وساقاه ما تزال في خَدَرٍ، فلم يستطع أن يحرِّك إصبعًا من أصابعه.

التفَّت الفتاتان بنعومةٍ على جسده. نهدا كورو ممتلآن ناعمان، ونهدا شيرو صغيران، لكنَّ حلمتَيْها نافرتان مثل حصاتَيْن مدوَّرتَيْن. شعرُ عانتَيْهما رطبٌ، كغابةٍ مطيرة. امتزجت أنفاسهما بأنفاسه، فاتَّحدت، مثل تيَّاراتٍ تأتي من بعيد، فتشتبك خفيةً في قاع البحر المعتم.

تواصلت تلك اللمسات العطشى إلى أن أولجَ تسوكورو في إحدى الفتاتَيْن. شيرو. ركبت فوقه، وأمسكت بشيئه المنتصب، فأولجتْه فيها. انسلَّ شيئُه داخلها دون مقاومة، كأنَّما ابتُلع في فراغٍ لا هواء فيه. استجمعتْ شيرو أنفاسها، ثمَّ بدأتْ تُدير نصفها الأعلى ببطء، كأنَّها ترسم رسمًا معقَّدًا في الهواء، وهي تلفُّ فخذَيْها. طار شعرُها الأسود الناعم الطويل فوقه مثل سوط. كانت الحركات جريئةً، لا تشبه شيرو في شيء.

وطوال الوقت، كانت شيرو وكورو تتعاملان مع الأمر كما لو أنّه حدثٌ طبيعيّ، لا شيئًا ينبغي التّفكير فيه. لم تتردَّدا لحظة. كانتا

تتلمّسانه معًا، لكنّه أولج في شيرو. لماذا شيرو؟ هكذا تساءل في نفسه حائرًا. لماذا شيرو تحديدًا؟ يُفترض أن تكونا متساويتَيْن تمامًا. يُفترض أن تكونا كيانًا واحدًا.

ولم يستطع التّفكير أكثر، إذْ تسارعتْ حركات شيرو، وازدادت صخبًا، فما لبث أن قذف داخلها. كان الوقتُ ما بين الإيلاج والقذف قصيرًا. بل رأى أنّه كان أقصر بكثيرٍ ممّا ينبغي. ولكنْ لعلّه فقد الإحساس بالوقت. على أيِّ حال، كانت الشهوة قد بلغتْ مبلغًا لا يمكن إيقافها معه، فغَمَرتْه دون سابق إنذارٍ، مثل موجةٍ كبيرةٍ تنهال عليه.

غير أنّه لم يكن يقذف داخل شيرو، بل هايدا. اختفت الفتاتان فجأةً، وحلَّ هايدا مكانهما. فبمجرّد أن بلغ تسوكورو نشوته، انحنى هايدا بسرعةٍ، وأدخل شيء تسوكورو في فمه، فأفرغ كلَّ سائله في فمه (كي لا يتّسخ اللحاف). قذف تسوكورو بقوّةٍ وغزارة، لكنَّ هايدا تلقّى السائل كلّه بصبر. فلمّا انتهى تسوكورو، نظّف هايدا شيأه بلسانه. بدا معتادًا على ذلك. هذا ما بدا على الأقلّ. وفي هدوءٍ، نهض هايدا من السرير وسار إلى الحمّام. سمع تسوكورو اندفاع الماء من الصنبور. لعلّه كان يغسل فمه.

ورغم أنَّ تسوكورو قد قذف، فقد ظلَّ شيؤه منتصبًا. كان يحسّ بدفء فرج شيرو ونعومته، وكأنّه ما يُسمّى بتوهُّج ما بعد الجنس. على أنّه ظلَّ عاجزًا عن إدراك الحدّ بين الحلم والخيال، بين ما كان مُتخيّلًا، وما كان حقيقة.

بحث تسوكورو في الظلام عن كلام. ليس كلامًا موجّهًا إلى شخصٍ بعيْنه، لكنّه شعر بضرورة أن يقول شيئًا، وإنْ كانت كلمةً واحدةً يملأ بها فجوة الصمت قبل أن يعود هايدا من الحمّام. لكنّه لم يستطع أن

يجد شيئًا. وطوال الوقت، كانت تدور في رأسه نغمةٌ بسيطة، لم يدرك إلّا لاحقًا أنّها كانت لحن «لو مال دو پيي». **سنوات الحج**، السنة الأولى: سويسرا. حزنٌ غير مبرّرٍ ينشأ في قلب المرء من منظرٍ ريفيّ.

ثمّ غشاه نومٌ عميق.

لم يفق إلّا قبيل الثامنة صباحًا.

نظر فورًا في سرواله الداخليّ، بحثًا عن آثار منّي. فكلّما احتلمَ وجدَ أثرًا لذلك، لكنّه لم يجد شيئًا هذه المرّة. ذُهل. كان واثقًا بأنّه قد قذف بقوّةٍ في حلمه، أو على الأقلّ في ذلك المكان الذي لم يكن واقعًا. ما يزال يشعر بتوهُّج ما بعد الجنس. لا بدّ من أن يكون قدرٌ كبيرٌ من المنيّ **الحقيقيّ** قد خرج منه. ولكنْ لا أثر.

ثمّ تذكّر أنّ هايدا أفرغ المنيّ كلّه في فمه.

أغلق عينَيْه متجهّمًا. هل حدث ذلك فعلًا؟ مستحيل. كلُّ ذلك حدث في أغوار عقلي. مهما نظرتُ إلى الأمر. إذن، أين ذهب كلُّ ذلك المنيّ؟ هل اختفى كلّه أيضًا في تجاويف عقلي؟

نهض تسوكورو عن سريره حائرًا، وهو ما يزال يرتدي منامته، وسار نحو المطبخ. كان هايدا مرتديًا ملابسه، يقرأ على الأريكة. كان غارقًا في كتابه السميك، في عالمٍ آخر، ولكنْ ما إن رأى تسوكورو حتّى أغلق الكتاب وابتسم له ابتسامةً عريضة، ثمّ ذهب إلى المطبخ لإعداد القهوة والعجّة والخبز المحمّص. وما لبثتْ أن انتشرتْ رائحةُ القهوة في الشقّة، تلك الرائحة التي تفرّق ما بين خيط النهار وخيط الليل. جلسا متقابلَيْن إلى الطاولة، يتناولان الفطور ويستمعان إلى موسيقى خفيضة. وكالعادة، تناول هايدا خبزًا محمّصًا داكنًا مع العسل.

تحدَّث هايدا في حماسٍ عن البنّ الجديد الذي اكتشفه، وجودة التحميص، ثمّ جلس صامتًا يتفكّر. لعلّه كان يفكّر في الكتاب الذي كان يقرأه. عيناه مثبّتتان على شيءٍ متخيَّل. عينان صافيتان شفّافتان لم يستطع تسوكورو أن يقرأ شيئًا فيهما. تلك النظرةُ التي يعرفها في هايدا حين يفكّر في فرضيّةٍ مجرَّدة. تلكما العينان دائمًا ما تذكّران تسوكورو بنبعٍ جَبليٍّ حين تنظرُ إليه من فجوةٍ بين الأشجار.

لا شيء بدا مختلفًا. كان صباح أحدٍ اعتياديًّا. طبقةٌ رفيعةٌ من سحابٍ تغطّي السماء، وشعاع شمسٍ خفيف. حين تحدَّث هايدا، كان ينظر في عينَي تسوكورو مباشرةً، فلم يستطع هذا أن يقرأ شيئًا في نظرته. لعلّه لم يحدث شيءٌ في الواقع. وخلص تسوكورو إلى أنّ الأمر لا يعدو أن يكون وهمًا أفرزه عقله الباطن. شعر بربكةٍ وخجل. لقد احتلمَ كثيرًا بشيرو وكورو معًا، إذْ يتكرَّر ذلك بين فترةٍ وأخرى، من دون إرادةٍ منه. لكنّها المرّة الأولى التي يكون فيها الحلم الجنسيّ من أوّله إلى آخره واضحًا جدًّا، وحقيقيًّا إلى حدٍّ مفزع. غير أنّ ما حيّره فعلًا هو وجودُ هايدا في ذلك الحلم.

قرَّر تسوكورو أن يدع الأمر عنه، فمهما فكَّر فيه لن يجد جوابًا. لذلك، وضع تلك الشكوك في درجٍ داخل عقله يسمّيه «العالقات»، وأرجأ أيّ تفكيرٍ في الأمر. كانت لديْه أدراجٌ كثيرةٌ كهذا، تحمل في أجوافها شكوكًا وأسئلةً لا حصر لها.

بعد الفطور، توجَّها إلى مسبح الجامعة، وسبحا نصف ساعة. وبما أنّه صباح يوم الأحد فقد كان المسبح شبه خالٍ، فاستمتعا بالسباحة كما يشاءان. ركّز تسوكورو على تحريك العضلات المطلوبة على نحوٍ دقيقٍ منضبط (عضلات الظهر، والفخذيْن، والبطن). أمّا التنفّس

والركل فكانا يحدثان على نحوٍ طبيعيّ. ما إنْ يضبط الإيقاع حتى يحدث الباقي من تلقاء نفسه. وكالعادة كان هايدا يسبق تسوكورو في السباحة. راقبه هذا وهو يسبح، مفتونًا بالزبد الأبيض الذي ينطلق مع ركلات هايدا المتناغمة. كان دائمًا ما يشعر في ذلك المشهد بأنّه كالمنوّم مغناطيسيًّا.

بعد الاستحمام وتغيير الملابس، لم يعد في عينَي هايدا ذلك الصفاء والضوء الثاقب، لكنّهما استعادتا شكلهما اللطيف المعتاد. أمّا تسوكورو فقد خمدَت حَيرته بعد ذلك التدريب. خرجا من المسبح واتّجها نحو المكتبة دون كلامٍ تقريبًا. لم يكن هذا غريبًا. قال هايدا: «ثمّة شيءٌ أريد أن أبحث عنه في المكتبة». ولم يكن هذا غريبًا أيضًا، فقد كان هايدا يحبّ البحث عن الأشياء في المكتبة. وهذا يعني: أريد أن أقضي بعض الوقت وحدي. فقال تسوكورو: «سأعود إلى الشقّة، وأغسل ثيابي».

وصلا عند مدخل المكتبة، ولوّح كلٌّ منهما للآخر مودّعًا، وتفرّق كلٌّ في سبيله.

اختفى هايدا فترةً، وغاب عن المسبح والصفوف الدراسيّة. وهكذا، عاد تسوكورو إلى حياته المنعزلة، يأكل وحده، ويسبح وحده، ويدوّن ملاحظاته في الصفّ، ويحفظ المفردات والتعابير الأجنبيّة. مرّ الوقت كيفما اتّفق، من دون أن يترك أثرًا يُذكر. فكان تسوكورو بين وقتٍ وآخر يضع أسطوانة «لو مال دو پيي» في مشغّل الأسطوانات ويستمع إليها.

بعد أسبوعٍ من غياب هايدا، خطر لتسوكورو أنّ صديقه ربّما قرّر ألّا يلتقيه مجدّدًا. لعلّه غادر إلى مكانٍ ما من دون سببٍ ومن دون أن يقول شيئًا. تمامًا كما فعل أصدقاؤه الأربعة من قبل.

ثمَّ بدأ تسوكورو يفكّر في أنَّ صديقه قد ابتعد عنه بسبب الحلم الجنسيّ الذي رآه. لعلَّ شيئًا قد حدث فاستطاع هايدا أن يرى كلَّ ما يحدث في وعي تسوكورو، فاشمئزَّ منه. أو ربَّما غضب.

لا، لم يكن هذا واردًا؛ فلا يمكن للأمر أن يخرج من حدود وعيه. لا سبيل لهايدا أن يعرف ما حدث هناك. ورغم ذلك، لم يستطع تسوكورو أن ينحّي الشعور بأنَّ عينَي هايدا الصافيتَيْن قد حطّتا على تلك الجوانب الشائنة المدفونة في عقله. فشعر بالخزي.

في كلِّ الأحوال، أدرك تسوكورو مرَّةً أخرى أهمّيَّة هايدا في حياته، وكيف استطاع أن يحوّل حياته اليوميَّة إلى شيءٍ أكثر ثراءً وبهجة. اشتاق إلى حواراتهما، وضحكة هايدا الخفيفة المميَّزة. الموسيقى التي كان يحبُّها، والكتب التي كان يتلو شيئًا منها، وآراؤه في الأحداث الجارية، وحسّ دعابته، واقتباساته الدقيقة، والطعام الذي يحضّره، والقهوة التي يحمّصها. لقد ترك غياب هايدا مساحاتٍ فارغةٍ في حياته.

كان هايدا قد أضفى كثيرًا على حياة تسوكورو، لكنَّه تساءل في نفسه: ما الذي قدَّمه هو لهايدا؟ أيّ ذكرياتٍ تركها لديْه؟

ثمَّ وجد نفسه يقول: لعلَّ قدري أن أبقى وحيدًا. كان الناس يأتون إليه، لكنَّهم دائمًا يرحلون. يأتون، باحثين عن شيءٍ ما، فإمَّا أنَّهم لا يجدوه، أو لا يروقهم ما يجدونه (أو ربَّما يصابون بخيبة أملٍ أو غضب)، فيرحلون. هكذا يختفون من دون إنذار، من دون تفسير، من دون كلمة وداع، مثل فأسٍ صامتةٍ تهوي على الروابط بينه وبينهم، تلك الروابط التي ما يزال الدم يتدفّق فيها، مع نبضٍ هادئ.

لا بدَّ من أنَّ هنالك خطبًا فيه، خطبًا جوهريًّا يصيب الآخرين بخيبة الأمل. قال بصوتٍ عالٍ: «تسوكورو تازاكي عديم اللون». ببساطةٍ لا شيء عندي أقدّمه للآخرين، بل ليس عندي شيءٌ أقدّمه لنفسي.

في صباح اليوم العاشر من آخر لقاءٍ بينهما أمام المكتبة، ظهر هايدا أمام مسبح الكلّيّة. وبينما كان تسوكورو على وشك أن يعود سباحةً إلى نقطة البداية، ربّت شخصٌ على ظهر يده اليمنى حين لمست حافّة المسبح. رفع عينَيْه فرأى هايدا جاثيًا بلباس السباحة، وقد رفع نظّارة السباحة فوق جبهته، وعلى وجهه ابتسامته المعتادة. ورغم انقطاعهما طوال تلك الفترة، إلّا أنّهما لم يقولا شيئًا، واكتفيا بالإيماء، كالعادة، وراحا يسبحان في المسار نفسه. لا تواصل بينهما في الماء إلّا من خلال حركة العضلات والركلات المتناغمة. لم تكن هناك حاجةٌ إلى الكلام.

قال هايدا لاحقًا: «عدتُ إلى أكيتا فترة». كان ينشّف شعره بعد أن انتهيا من السباحة والاستحمام. «حدثَ طارئٌ عائليٌّ فجأة».

أومأ له تسوكورو، وقال شيئًا مبهمًا. لم يكن من عادة هايدا أن يغيب عشرة أيّامٍ في منتصف الفصل الدراسيّ؛ فقد كان يحرص (مثل تسوكورو) على ألّا يفوّت المحاضرات إلّا في حالات الضرورة القصوى. لا بدَّ إذن من أنَّ شيئًا مهمًّا قد حدث. لكنَّ هايدا لم يقل شيئًا آخر عن سبب عودته إلى بلدته، ولم يحاول تسوكورو أن يلحَّ عليه. في كلِّ الأحوال، فإنَّ عودة صديقه على ذلك النحو الطبيعيّ (وكأنَّ شيئًا لم يحدث) جعلتْه يشعر بأنّه يستطيع أن يبصق قدرًا كبيرًا من الهواء العالق في رئتَيْه. وكأنَّ ضغطًا ثقيلًا قد انزاح من على صدره. ففي نهاية المطاف، لم يهجره صديقه.

لم يتغيَّر شيءٌ بينهما. كانا يتحدَّثان ويأكلان معًا. يجلسان على الأريكة، يستمعان إلى أسطوانات الموسيقى الكلاسيكيَّة التي يستعيرها هايدا من المكتبة، يتناقشان في الموسيقى والكتب التي قرآها. أو يتصامتان في ودٍّ. في العطلات الأسبوعيَّة، يذهب هايدا إلى شقَّته، يتحدَّثان حتَّى وقتٍ متأخِّر، ويبيت هايدا على الأريكة. لم يحدث مرَّةً أخرى أن دخل هايدا (أو أناه الأخرى) غرفة تسوكورو في الظلام (بافتراض أنَّ هذا قد حدث فعلًا من قبل). احتلمَ تسوكورو عدَّة مرَّاتٍ بشيرو وكورو، لكنَّ هايدا لم يحضر قطُّ.

رغم ذلك، شعر تسوكورو أنَّ عينَي هايدا الصافيتَيْن قد رأتا ما بداخله في تلك الليلة، ونظرتا إلى ما يقبع في عقله الباطن. ما تزال آثارٌ من تحديقة هايدا تلسعه، مثل حرقٍ خفيف. لقد رأى هايدا آنذاك اشتهاءات تسوكورو ورغباته السرِّيَّة، تفحَّصها وشرحها واحدةً بعد الأخرى، ورغم ذلك ظلَّ صديقًا لتسوكورو. كلُّ ما في الأمر أنَّه احتاج إلى وقتٍ يقضيه بعيدًا عن تسوكورو كي يتقبَّل ما رآه، ويرتِّب مشاعره، ويلملم شتات نفسه. وهذا يفسِّر ابتعاده عن تسوكورو في تلك الأيَّام العشرة.

كان هذا محضَ تخمينٍ، طبعًا. مجرَّد تأمُّلاتٍ غير عقلانيَّة لا أساس لها. بل يمكن تسميتها وهمًا. لكنَّ تسوكورو ظلَّ متوتِّرًا، لم يستطع أن يزيح تلك الفكرة من عقله. فما إنْ يتصوَّر أنَّ تلافيف عقله انكشفت عاريةً، حتَّى يشعر بالتقلُّص إلى حشرةٍ مثيرةٍ للشفقة تحت صخرةٍ مبتلَّة.

غير أنَّ تسوكورو تازاكي ظلَّ محتاجًا إلى صديقه هذا، أكثر من أيِّ شيءٍ آخر.

-8-

رحل هايدا عن تسوكورو إلى غير عودةٍ في نهاية شباط/فبراير، أي بعد ثمانية أشهرٍ من لقائهما الأوّل.

كانت الامتحانات النهائيّة قد انتهت، وأُعلنت النتائج، فعاد هايدا إلى أكيتا. قال لتسوكورو: «سأعود قريبًا. الشتاءات في أكيتا قارسة، ولا أستطيع أن أحتمل أكثر من أسبوعَيْن هناك. أفضّل البقاء في طوكيو، ولكنْ عليّ أن أساعد أهلي في إزالة الثلج عن سقف المنزل، لذلك سأذهب فترةً إلى هناك». لكنّ أسبوعَيْن مرّا، وثلاثة أسابيع، ولم يَعُد هايدا إلى طوكيو، أو يتواصل مع تسوكورو.

في بادئ الأمر، لم يستشعر تسوكورو قلقًا. خطر له أنّ هايدا استمتع بوقته في البلدة أكثر ممّا كان يتوقّع. أو ربّما هطلت ثلوجٌ أكثر من المعتاد. تسوكورو نفسه ذهب إلى ناغويا ثلاثة أيّام في منتصف آذار/ مارس. لم يكن يودُّ ذلك، لكنّه لم يستطع أن يبقَى في طوكيو طوال الوقت. بطبيعة الحال، لم يكن هناك ثلجٌ يزيله عن سقف منزلهم، لكنّ

والدته كانت قد اتّصلت به بإلحاحٍ تسأله عن سبب تخلُّفه عن العودة بعد انتهاء الدراسة. كذب عليها قائلًا: «لديَّ مشروعٌ مهمٌّ عليَّ أن أنهيه في هذه العطلة». فألحّت عليه: «مع ذلك، لا بدَّ من أن تستطيع المجيء إلى هنا يومَيْن على الأقل». واتّصلت به إحدى شقيقتَيْه أيضًا، تشدِّد على اشتياق أمّه إليه. «عليك فعلًا أن تعود إلى البيت، وإنْ فترةً قصيرة». فقال: «حسنٌ، فهمت. سآتي».

فلمّا ذهب إلى ناغويا لزم البيت ولم يخرج إلّا لتمشية الكلب مساءً في الحديقة. كان يخشى أن يصادف واحدًا من أصدقائه الأربعة، لا سيّما بعد احتلامه المتكرِّر بشيرو وكورو، فقد كان الأمر أشبه باغتصابهما في خياله. الحقيقةُ أنّه لم يكن يتحلّى بما يكفي من الشجاعة للقائهما وجهًا لوجه، حتّى وإنْ كانت تلك الأحلام خارج سيطرته، ولا يمكن لهما أن تعرفا ما يدور في أحلامه. كان يخشى أن تنظرا إلى وجهه نظرةً واحدةً فتعرفان ما يجري في أحلامه، فتنكران عليه أوهامه الأنانيّة القذرة.

حاول أن يبتعد عن الاستمناء قدر الإمكان، لا لأنّه يشعر بتأنيب ضميرٍ من الفعل نفسه، ولكنْ لأنّه كلّما همَّ بذلك خطرت له صورة شيرو وكورو. كان يحاول التّفكير في شيءٍ آخر، لكنّهما تتسلّلان دائمًا إلى خياله. والأنكى من ذلك أنّه كلّما تجنّب الاستمناء، زادت احتلاماتُه، ولا تخلو من شيرو وكورو إلّا ما ندر. النتيجةُ واحدةٌ إذن، ولكنْ على الأقلّ لم تكن هذه الأحلام صورًا يبتكرها هو عن قصد. يعرف أنّه يختلق الأعذار، لكنّ هذا التفسير لم يكن قليل الأهمّيّة، رغم أنّه ليس إلّا إعادة صياغةٍ للأحداث.

أمّا ما يجري في تلك الأحلام فكان نفسه في كلّ مرّة. قد يتغيّر المكان وشيءٌ من التفاصيل، لكنّ الفتاتَيْن كانتا دائمًا عاريتَيْن، تطوّقانه،

تتحسّسان جسده بالأصابع واللسان، تداعبان شيأه، ثمّ تضاجعانه. وفي نهاية الأمر، كان دائمًا ما يقذف في داخل شيرو. قد يضاجع كورو بعنفوان، لكنّه يدرك في اللحظة الأخيرة أنّه استبدل شيرو، وقذف فيها. كان تلك الأحلام قد ابتدأت في صيف عامه الجامعيّ الثاني، بعد أن طُرد من المجموعة، ولم تَعُد لديْه أيّ فرصةٍ لرؤية الفتاتَيْن مرّةً أخرى، لاسيّما بعد أن قرّر نسيان أصدقائه الأربعة تمامًا. لا يذكر أنّه رأى تلك الأحلام قبل ذلك، ولا يعرف سبب ظهورها في حياته. كان ذلك لغزًا، سؤالًا آخر يخزّنه في درج «العالقات» في عقله الباطن.

عاد تسوكورو إلى طوكيو محمّلًا بمشاعر عابرة من الإحباط. ما يزال هايدا مختفيًا. لم يأتِ إلى المسبح أو المكتبة. اتّصل تسوكورو بسكن هايدا غير مرّةٍ، فقيل له إنّ هايدا غير موجود. أدرك أنّه لم يكن يعرف عنوان هايدا في أكيتا أو رقم هاتفه. انتهتْ عطلة الربيع، وبدأ عامٌ دراسيٌّ جديد، فكان تسوكورو الآن في عامه الجامعيّ الأخير. تفتّحت أزهار الكرز، ثمّ انتشرتْ، ولمّا يأتيه خبرٌ من صديقه.

ذهب إلى سكن الطلّاب، فقال له مدير السكن إنّ هايدا تقدّم بطلبٍ في نهاية العام الدراسيّ السابق للانتقال من السكن، وأخذ كلّ متعلّقاته. فلمّا سمع تسوكورو ذلك أُسقط في يده. لم يكن مدير السكن يعرف شيئًا عن سبب انتقال هايدا، أو المكان الذي ذهب إليه. أو ربّما كان يعرف لكنّه ادّعى غير ذلك.

وذهب تسوكورو كذلك إلى مكتب التسجيل في الكلّيّة، فعلم منهم أنّ هايدا تقدّم بطلب إجازةٍ من الدراسة، لكنّهم لم يوافقوا على إخباره سبب الإجازة أو أيّ معلومةٍ أخرى. كلّ ما عرفه هو أنّ هايدا وقّع على استمارة الإجازة واستمارة إخلاء السكن بعد انتهاء الامتحانات

النهائيّة مباشرةً. في ذلك الوقت، كان ما يزال يلتقي تسوكورو، ويسبح معه، ويبيت عنده في العطلات الأسبوعيّة. لكنّه رغم ذلك، كتم عنه ما كان ينوي فعله. كان قد قال لتسوكورو على نحوٍ عابر: «سأعود إلى أكيتا وأبقى هناك أسبوعَيْن فقط»، ثمّ اختفى عن الأنظار.

حدّث تسوكورو نفسه بأنّه قد لا يرى هايدا أبدًا. فلسببٍ من الأسباب، كان هايدا مصمّمًا على الرحيل من دون أن يقول شيئًا. لم يحدث هذا مصادفةً؛ فلا بدّ من أنّ هنالك سببًا واضحًا لهذا القرار. لكنّ تسوكورو شعر أنّ هايدا لن يعود أبدًا، أيًّا ما كان ذلك السّبب. وتبيّن لاحقًا صدق حدسه؛ إذْ لم يَعُد هايدا إلى الدراسة قطّ، على الأقلّ طوال الفترة المتبقّية لتسوكورو في الكلّيّة. ولم يتواصل معه قطّ.

أنذاك خطر لتسوكورو أنّ ما حدث غريب؛ فها هو هايدا يكرّر ما فعله والده. يترك دراسته قرب العشرين من العمر ويختفي، كأنّما يتتبّع خطى أبيه. أم أنّ تلك القصّة التي حكاها عن أبيه مجرّد أكذوبة؟ أكان يحاول أن يقول شيئًا عن نفسه، فيجعل القصّة تبدو وكأنّها حدثت لأبيه؟

لم يُصب تسوكورو بحَيرةٍ كبيرةٍ حين اختفى هايدا هذه المرّة. لم يشعر بمرارةٍ من هجران هايدا. بل إنّه شعر بهدوءٍ محايدٍ يحطّ على حياته. لكنّه في بعض الأحيان، يخطرُ له خاطرٌ غريب، وهو أنّ هايدا تحمّل جزئيًا خطيئة تسوكورو وشائبته، ولذلك كان عليه أن يبتعد.

لا شكّ في أنّ تسوكورو شعر بالوحدة من دون صديقه. أسِف على ما آلت إليه الأمور بينهما، فقد كان هايدا صديقًا عزيزًا، واحدًا من القلّة الذين التقاهم في حياته. ولكنْ ربّما كان ذلك محتومًا. كلّ ما تركه هايدا له مطحنةُ القهوة الصغيرة، وكيسٌ نصف مملوءٍ من البنّ، وعلبةً

ثلاثيّة الأسطوانات للازار بيرمن يعزف «لو مال دو پيي»، وذكرى عينَيْه الشفيفتَيْن، وتلك التحديقة.

في أيار/مايو، أي بعد شهرٍ من معرفة تسوكورو برحيل هايدا عن السكن، جرّب الجنسَ الحقيقيَّ مع امرأةٍ لأوّل مرّةٍ في حياته. كان قد بلغ الحادية والعشرين آنذاك، أو بالأحرى الحادية والعشرين وستّة أشهر. كان قد التحق في بداية العام الجامعيّ بتدريبٍ عمليٍّ في شركةٍ معماريّة، وضاجع امرأةً عزباء تكبره بأربع سنواتٍ التقاها في العمل. كانت تؤدّي أعمالًا مكتبيّةً في الشركة نفسها. ضئيلةُ الحجم، طويلة الشعر، كبيرة الأذنَيْن، رائعةُ الساقَيْن، مشدودة القوام. كانت في الواقع مليحةً أكثر منها جميلة. وحين تُلقي النكات، تكشفُ ابتسامتُها عن أسنانٍ جميلةٍ بِيض. عاملَتْه بلطفٍ منذ يومه الأوّل، وأحسَّ بإعجابها به. وبما أنَّ تسوكورو نشأ مع أختَيْن كبيرتَيْن، فقد كان يألف النساء الأكبر منه. كانت هذه في سنِّ أخته الثانية.

وجد تسوكورو فرصةً كي يدعوها إلى العشاء ثمّ إلى شقّته، وهناك تشجَّع لاستدراجها إلى السرير. استجابت له من دون تردُّدٍ يُذكر. ورغم أنّها كانت تجربته الأولى، إلّا أنَّ الأمور سارت بسلاسة، فلا ارتباك ولا توتُّر، من البداية حتّى النهاية. وبسبب ذلك، بدت المرأة مقتنعةً بأنَّ خبرته الجنسيّة تفوق ما لدى أكثر الشباب في سنّه، رغم أنَّ تجاربه الجنسيّة كانت محصورةً على أحلامه.

كان معجبًا بها فعلًا. فقد كانت ذكيّةً جذّابة، ورغم أنّها لم تكن تستثير ملكاته الفكريّة مثل هايدا، إلّا أنَّ لها شخصيّةً مرحةً منفتحة، مع حبٍّ كثير للاستطلاع، ومؤانسة في الحوار. كانت تستمتع بالجنس أيضًا، وقد تعلّم من تجاربه معها شيئًا كثيرًا عن جسد المرأة.

لم تكن تجيد الطبخ، لكنَّها تستمتع بالتنظيف، فسرعان ما جعلت شقَّته تلمع من فرط نظافتها. غيَّرتْ ستائره وملاءات السرير وأغطية الوسائد والمناشف ومماسح الحمَّامات، فأضفتْ على حياته الجديدة من بعد هايدا لونًا وحيويَّة. لكنَّ الحقيقة أنَّه لم يُقدِم على الجنسِ معها لأنَّه كان يشتعل رغبةً، ولا لأنَّه كان مفتونًا بها، ولا حتَّى لكي يخفِّف من وحدته. لعلَّه لا يريد الاعتراف بذلك أبدًا، لكنَّه كان يريد أن يثبت لنفسه أنَّه لم يكن مِثليًّا، وأنَّه قادرٌ على مضاجعة امرأةٍ حقيقيَّةٍ، لا في أحلامه فحسب. كان هذا هدفه الرئيس.

وقد تحقَّق له ما يريد.

كانت تبيت معه في عطلات الأسبوع، تمامًا كما كان يفعل هايدا. يتطارحان الغرام على مهل، إلى قُبيل الفجر في بعض الأحيان. كان يحاول جاهدًا وهو معها في الفراش ألَّا يفكِّر في شيءٍ سواها وسوى جسدها. كان يركِّز، ويطفئ خياله، ويبعد كلَّ شيءٍ لا ينتمي إلى تلك اللحظة وذلك المكان (جسدَي شيرو وكورو العاريَيْن، وشفتَيْ هايدا) قدر استطاعته. وبفضل حبوب منع الحمل فقد كان يفرغ شهوته في داخلها من دون قلق. كان الجنسُ معه ممتعًا بالنِّسبة إليها ومُشبعًا لرغبتها، وحين تبلغ نشوتها تصيح بصوتٍ غريب. فيقول تسوكورو في نفسه: **لا بأس. أنا طبيعيٌّ إذن**. وبسبب هذه العلاقة اختفتْ أحلامُه الجنسيَّة.

استمرَّت علاقتهما ثمانية أشهر، ثمَّ قرَّرا الانفصال قُبيل تخرُّجه في الكلِّيَّة. عرضتْ عليه شركةُ للسكك الحديديَّة وظيفةً، وانتهت فترة عمله مع الشركة المعماريَّة. في الوقت الذي كانت تقابل فيه تسوكورو كان لديْها حبيبٌ آخر، في بلدتها في نيغاتا، تعرفه منذ طفولتها (وقد باحت

لتسوكورو بذلك منذ أوّل يومٍ لهما في الفراش). كان موعد زواجها في نيسان/إبريل، وقد قرّرتْ أن تترك وظيفتها في الشركة المعماريّة وتنتقل إلى مدينة «سانجو» حيث يعمل خطيبها. قالت لتسوكورو ذات يومٍ في السرير: «لذلك لن أستطيع أن أقابلك بعد ذلك».

قالت له وهي تضع يدها على يده: «إنّه من خيرة الناس. يناسبني وأناسبه».

فقال تسوكورو: «أكره ألّا أراكِ ثانيةً. ولكنْ ينبغي لي أن أهنّئك».

قالت: «شكرًا»، ثمّ أضافت، وكأنّها تكتب هامشًا صغيرًا على زاوية صفحة: «قد تسنح لي فرصةٌ لمقابلتك مرّةً أخرى، ذات يوم».

تسوكورو: «رائع»، رغم أنّه لم يستطع أن يفكّ شفرة الهامش. فجأةً، تساءل في نفسه ما إذا كانت تصرخ بالطريقة نفسها حين تكون مع خطيبها. ثمّ طارحها الغرام مرّةً أخرى.

ساءه بالفعل أنّه لن يستطيع رؤيتها مرّةً في الأسبوع. كان يدرك أنّه في حاجةٍ إلى امرأةٍ يضاجعها باستمرار إن كان يريد أن يتجنّب تلك الأحلام الجنسيّة ويعيش في الحاضر. مع ذلك، فقد كان زواجها في واقع الأمر خطوةً جيّدة بالنّسبة إليه، ذلك أنّه لم يكن يشعر نحوها بأكثر من الإعجاب الهادئ والرّغبة الجسديّة الطبيعيّة. وفي ذلك الوقت تحديدًا، كان تسوكورو على وشكّ أن يبدأ مرحلةً جديدةً في حياته.

-9-

كان تسوكورو في العمل، يُزجي وقته بفرز الأوراق التي تراكمت فوق مكتبه، فيلقي بتلك التي لم يَعُد في حاجةٍ إليها، ويعيد ترتيب الخردوات التي يعجُّ بها درج المكتب. جاءه اتّصالٌ من سارا على هاتفه المحمول، وكان يوم خميسٍ، أي بعد خمسة أيّامٍ من لقائهما الأخير.

ـ «هل يسمح وقتك بالحديث؟»

ـ «طبعًا. ليس لديَّ عملٌ يشغلني، على غير العادة».

فقالت: «ممتاز. هل لديْك وقتٌ للّقاء لاحقًا؟ وإن كان لقاءً قصيرًا؟ لديَّ عشاء عملٍ في السابعة، ولكنْ يمكننا أن نلتقي قبل ذلك. ليتك تستطيع المجيء إلى غينزا».

نظر في ساعته. «يمكنني أن أصل إلى هناك في الخامسة والنصف. أخبريني أين ألقاكِ».

ذكرتْ له اسم مقهى قرب تقاطع «غينزا» و«يونتشومي»، فعرف تسوكورو المكان.

أنهى ما كان يفعله قبل الخامسة، وغادر المكتب، ثمّ استقلّ القطار على خطّ «مارونوتشي» من «شنجوكو» إلى «غينزا». ولحسن الحظّ، فقد كان يرتدي ربطة العنق التي أهدته سارا إيّاها.

وصل إلى المقهى فوجدها هناك. كانت قد طلبتْ قهوةً وجلستْ في انتظاره. فلمّا رأتْ ربطة العنق تهلّل وجهُها، وارتسم مع ابتسامتها خطّان صغيران فاتنان على جانبيْ شفتَيْها. جاءت النادلةُ فطلب تسوكورو فنجان قهوة. كان المحلّ مزدحمًا بأولئك الذين جاءوا يلتقون معارفهم بعد العمل.

قالت سارا: «المعذرة، أعرف أنّي كلّفتك عناء مسافةٍ طويلة».

- «لا، لا بأس. من الجيّد أن آتي إلى غينزا بين فترةٍ وأخرى. كنتُ أرجو أن نذهب إلى مكانٍ ما ونتعشّى معًا».

زمّتْ شفتَيْها وتنهّدت. «وأنا كذلك، لولا ارتباطي بعشاء عمل. لدينا زائرٌ فرنسيٌّ من كبار الشخصيّات، وعليَّ أن آخذه إلى واحدٍ من مطاعم الكايسيكي الغالية. كم أكره هذه العشاءات. أتوتّر فيها كثيرًا ولا أستطيع حتّى أن أستطعم ما آكله».

لاحظ تسوكورو أنّها اعتنت بهندامها أكثر من المعتاد. كانت ترتدي بذلةً مخيّطةً لونُها لون القهوة، وتضع دبُوسًا زينيًّا على ياقتها، به ماسةٌ صغيرةٌ تلتمع في وسطه. تنّورتها قصيرة، مع جوربَيْن طويلَيْن عليهما نقشٌ بلونِ البذلة.

فتحتْ سارا حقيبة يدها المارونيّة اللّامعة على حجرها، فأخرجت منها مظروفًا كبيرًا أبيض اللون. في داخله عدّة أوراقٍ مطويّة. ثمّ أغلقتْ الحقيبة بالإبزيم، فأصدر صوتًا لطيفًا، من ذلك النوع الذي يلفت الانتباه.

ـ «بحثتُ عن أصدقائك الأربعة. كما وعدتك».

بُهت تسوكورو. «ولكنْ لم يمضِ على لقائنا إلّا بضعة أيّام».

ـ «أنا سريعةٌ جدًّا في عملي. تكفيني زبدةُ الموضوع، فأنجز الأمر بسرعة».

ـ «ما كنتُ لأنجز المهمّة بتلك السرعة».

ـ «لكلٍّ منّا تخصّصه. لا يمكنني أنا أن أبني محطّة قطار».

ـ «ولا حتّى أن ترسمي تصميمها».

فابتسمتْ وقالت: «ولا بعدَ مئتي سنة».

ـ «إذن، تعرفين أين هم الآن؟»

ـ «نوعًا ما».

«نوعًا ما». للعبارة رنينٌ غريبٌ في مسمعه. «ماذا تقصدين؟»

رشفتْ سارا طويلًا من قهوتها، وأعادت الفنجان إلى صحنه، ثمّ سكتتْ قليلًا وراحت تتأمّل أظافرها اللّامعة. كانت جميلة، مطليّةً باللون المارونيّ مثل حقيبتها (ربّما بدرجةٍ أخفّ). كان تسوكورو مستعدًّا للمراهنة براتب شهرٍ على أنّها لم تكن مصادفة.

ـ «اسمح لي أن أحكي الأشياء بالتّرتيب، كي أعبّر عنها على نحوٍ صحيح».

فأومأ لها تسوكورو. «تفضّلي. احكيها بالطريقة التي تناسبك».

شرحتْ له سارا بإيجازٍ طريقة بحثها. فقد بدأتْ بالبحث في الإنترنت وشبكات التواصل الاجتماعيّ المختلفة، بما فيها فيسبوك وغوغل وتويتر، وتمكّنت من الوصول إلى معلوماتٍ عن حياة كلّ واحدٍ

من أصدقائه الأربعة. لم يكن الأمر صعبًا في حالة أو وأكا؛ فقد كان كلٌ منهما ينشر معلوماته، وأغلبها متعلّقة بأعمالهما.

قالت سارا: «إنْ تفكّرتَ في الأمر ستجده غريبًا. فنحن نعيش في عصر اللامبالاة، لكنّنا محاطون بقدرٍ هائلٍ من المعلومات عن الآخرين. فيمكنك بسهولةٍ أن تجمع المعلومات عنهم إن أردت. ورغم ذلك نكاد لا نعرف شيئًا عن الآخرين».

فقال تسوكورو: «هذه الملاحظات الفلسفيّة تليق فعلًا بهندامك الليلة».

قالت مبتسمة: «شكرًا».

لكنّ الأمر لم يكن على ذلك القدر من السهولة في حالة كورو، إذْ لا توجد لديْها أسبابٌ عمليّةٌ تدفعها إلى نشر معلوماتها الشخصيّة للآخرين. ومع ذلك، استطاعت سارا أخيرًا أن تستدلّ على عنوانها بالبحث في الإنترنت عن قسم الفنون الصناعيّة بكلّيّة أيتشي الإقليميّة للفنون.

كلّيّة أيتشي الإقليميّة للفنون؟ كان من المفترض أن تلتحق كورو بقسم اللغة الإنجليزيّة في كلّيّةٍ خاصةٍ للفتيات في ناغويا. لكنّ تسوكورو لم يقل شيئًا، واستبقى السؤال لنفسه.

قالت سارا: «لم أجد معلوماتٍ كثيرةٍ عنها. لذلك هاتفتُ منزل أبوَيْها. اختلقتُ قصّةً، فقلتُ إنّي زميلةٌ قديمةٌ من أيّام المدرسة، وإنّي أحرّر نشرةً أخباريّةً للخرّيجين وأحتاج إلى معرفة عنوانها الحالي. كانت والدتها لطيفةً جدًّا، وحكت لي أشياء كثيرةً عنها».

ـ «أنا واثقٌ من براعتكِ في استمالتها للكلام».

فقالت سارا بتواضع: «ربَّما».

جاءت النادلة وهمَّت بصبِّ مزيدٍ من القهوة في فنجان سارا، لكنَّها أشارت لها بيدها ألَّا تفعل. ثمَّ تابعت حديثها بعد ذهاب النادلة.

ـ «وأمَّا جمع المعلومات عن شيرو فقد كان صعبًا وسهلًا في الوقت نفسه. لم أتوصَّل إلى أيِّ معلوماتٍ شخصيَّةٍ عنها على الإطلاق، لكنَّني وجدتُ كلَّ ما أريده في مقالٍ صحفيٍّ».

ـ «مقال صحفيٌّ؟»

عضَّت سارا شفتَيْها، وقالت: «هذا موضعٌ حسَّاسٌ جدًّا. لذلك، دعني كما قلتُ سابقًا أحكي الأشياء بالترتيب الصحيح».

ـ «المعذرة».

ـ «أوَّل ما أريد أن أعرفه هو: إنْ عرفتَ أين يوجد أصدقاؤك الأربعة الآن، هل تريد أن تلتقيهم؟ حتَّى إنْ وجدتَ فيما سأخبرك به شيئًا مزعجًا؟ حقائق ربَّما تتمنَّى لو لم تعرفها؟»

هزَّ تسوكورو رأسه، وقال: «لا أستطيع أن أخمِّن تلك الحقائق، لكنِّي على أيِّ حالٍ، أنوي أن ألتقيهم. لقد اتَّخذت قراري».

حدَّقتْ سارا في وجهه برهةً قبل أن تتحدَّث.

ـ «كورو (أي إري كورونو) تعيش في فنلندا الآن، ونادرًا ما تعود إلى اليابان».

ـ «فنلندا؟»

ـ «نعم، تعيش في هِلسِنكي مع زوجٍ فنلنديٍّ وابنتَيْن. فإنْ أردتَ أن تراها عليك أن تسافر إلى هناك».

تصوَّرَ تسوكورو خريطةً تقريبيَّةً لأوروبا في عقله. «لم أسافر قطُّ، ولديَّ رصيد إجازات. وسيكون جميلًا أن أشاهد السكك الحديديَّة في شمال أوروبا».

فابتسمتْ سارا. «كتبتُ لك عنوان شقَّتها في هِلسنكي ورقم الهاتف. أمَّا لماذا تزوَّجت من فنلنديٍّ وكيف صارت تعيش هناك، فيمكنك البحث عن ذلك بنفسك. أو تسألها».

ـ «شكرًا لك. العنوان ورقم الهاتف كافيان، وزيادة».

ـ «إنْ أردت السفر إلى فنلندا يمكنني مساعدتك في الترتيبات».

ـ «لأنَّكِ متخصِّصةٌ في السفر».

ـ «ولا تنسَ أنِّي ماهرةٌ ومتمكِّنة».

ـ «بالطبع».

ثمَّ فتحتْ سارا الورقة الثانية. «أمَّا أو (يوشيو أومي)، فيعمل بائعًا في وكالة «لكزس» في ناغويا. من الواضح أنَّه ناجحٌ في عمله وقد حصد جوائز المبيعات في السنوات القليلة الماضية. ورغم أنَّه ما يزال شابًّا، إلَّا أنَّه أصبح رئيسًا لقسم المبيعات».

فتمتم تسوكورو لنفسه: «لكزس».

حاول أن يتخيَّل أو في بذلةٍ رسميَّةٍ في معرض سيَّاراتٍ ساطع الأضواء، يشرح لعميلٍ من العملاء ملمس الجلد وجودة الطلاء في سيَّارةٍ من أحدث الطُرز وأفخرها. لكنَّه لم يستطع أن يرسم الصورة في ذهنه. بل رأى أو في قميص الرغبي، متعرِّقًا، يزدرد شاي شعيرٍ باردٍ من الإبريق مباشرةً، ويلتهم من الطعام ما يكفي لشخصَيْن.

- «هل فوجئت بذلك؟»

- «يبدو الأمر غريبًا بعض الشيء، لكنّي حين أفكّر في الأمر، أجد أنّ أو قد يكون بائعًا متميّزًا بالفعل. فهو شخصٌ نزيه. ورغم أنّه ليس فصيحًا، لكنّ الآخرين يثقون في كلامه. ليس من النوع الذي قد يلجأ إلى الخدع الرخيصة، وما دام يعمل هناك منذ فترة، لا يصعب تخيُّل أن يكون ناجحًا في عمله».

- «على حدّ علمي فإنّ اللكزس نوعٌ فائقٌ من السيّارات، جديرةٌ بالاقتناء».

- «ما دام بائعًا عظيمًا إلى هذا الحدّ، فقد يقنعني أنا أيضًا بشراء لكزس حين أقابله».

فضحكتْ سارا وقالت: «نعم، ربّما».

تذكّر تسوكورو والده الذي لم يكن يركب سيّارةً إلّا «مرسيدس بنز». وبعد كلّ ثلاث سنواتٍ، يستبدل بسيّارته واحدةً أخرى جديدةً من الفئة نفسها. بل قد يأتي مدير المعرض من تلقاء نفسه كلّ ثلاث سنواتٍ ليستبدل بسيّارته واحدةً جديدةً بأفضل المواصفات. كانت سيّاراته دومًا لامعةً برّاقة، لا تشوبها شائبةٌ أو خدش. لم يكن يقود السيّارة بنفسه، فكان لديْه سائقٌ دائمًا. النوافذ معتّمةٌ بلونٍ رماديٍّ داكن، فلا يُرى داخلها. أغطية الإطارات لامعةٌ مثل عملاتٍ معدنيّةٍ جديدة. والأبواب تصدر صوتًا يشبه خزنة البنك حين تُغلق. أمّا الداخلُ، فكان أشبه بغرفةٍ مقفلة؛ إذْ تشعر حين تجلس في المقعد الخلفيّ أنّك بعيدٌ تمامًا عن ضوضاء العالم الخارجيّ وربكته. لكنّ تسوكورو لم يكن يحبّ أن يركب سيّارة أبيه. كانت هادئةً أكثر ممّا ينبغي، ففضّل عليها المحطّات المزدحمة والقطارات التي تعجّ بالركّاب.

ـ «التحق أو بمعارض تويوتا منذ تخرُّجه، وحين أطلقت الشركة معارض لكزس في اليابان اختاروه للانتقال إليها بسبب ما حقَّقه من مبيعاتٍ فائقةٍ عام 2005م. وداعًا كورولا، أهلًا باللكزس». مرَّةً أخرى تأمَّلتْ سارا طلاء أظافرها في اليد اليسرى، وتابعت: «لذلك لن يصعب عليك أن تلتقي أو، ما عليك إلَّا أن تزور معرض لكزس، وستجده هناك».

ـ «أها».

وانتقلتْ سارا إلى الورقة التالية.

ـ «وأمَّا أكا (كي أكاماتسو) فقد كانت حياتُه صاخبةً إنْ قارنَّاها بحياة أو، تخرَّج في قسم الاقتصاد بجامعة ناغويا متفوِّقًا على سائر زملائه، وعمل في مصرفٍ كبير. واحد من تلك التي تُسمَّى المصارف الكبرى. ولسببٍ لا أعرفه، ترك وظيفته بعد ثلاث سنواتٍ والتحق بشركة تمويلٍ معروفةٍ يأتي تمويلها من خارج ناغويا. واحدةٌ من شركات التمويل الشخصيّ التي يشوب سمعتها شيءٌ من البغض. كان هذا تغييرًا غير متوقَّعٍ في مساره، لكنَّه لم يدم طويلًا؛ فقد ترك العمل معهم بعد عامَيْن ونصف، وحصل على تمويلٍ من جهةٍ من الجهات وأسَّس شركةً تقدِّم مزيجًا من محاضرات التَّطوير الشخصيّ ومركز التَّدريب للشركات. يسمِّيه «منتدى الأعمال الإبداعيَّة». حقَّق المشروع نجاحًا مدهشًا، وأصبح لديْهم طاقمٌ كبيرٌ من الموظَّفين، ومكتبٌ في بنايةٍ راقيةٍ في وسط البلدة بناغويا. أن أردت أن تعرف المزيد يمكنك زيارة موقعهم الإلكترونيّ. اسم الشركة «أكثر». ألا تبدو في الاسم مسحةً عصريَّة؟»

ـ «منتدى الأعمال الإبداعيَّة».

ـ «الاسم جديدٌ، لكنّه لا يختلف كثيرًا عن محاضرات التطوير الشخصيّ. هي في الأساس دورةُ غسيل دماغٍ سريعةٍ مُرتجلةٍ لتعليم «الأتباع» في الشركات. لكنّهم هنا يستخدمون دليلًا تدريبيًّا عوض النصوص المقدّسة، ويغرونهم بالترقية والرواتب العالية عوض الاستنارة والجنّة. دينٌ جديدٌ لعصرٍ نفعيٍّ، غير أنّه لا توجد مكوّناتٌ غيبيّةٌ متعاليةٌ كما هو الأمر في الدين، وكلُّ شيءٍ مرقمنٌ ومنظّر. الأمور واضحةٌ جدًّا ويسهل فهمها، وثمّة أشخاصٌ قليلون يجنون دافعًا إيجابيًّا منها. لكنّ الحقيقة هي أنّها ليست أكثر من دسِّ شيءٍ من التنويم المغناطيسيّ في منظومة أفكارٍ تناسب أهدافهم، خليطٌ منتقى من النظريّات والإحصاءات التي تتماشى مع الأهداف التي يرمون إليها. ومع ذلك، للشركة سمعةٌ ممتازة، ولها عقودٌ مع كثيرٍ من الشركات المحلّيّة. ومن ينظر في موقعهم الإلكترونيّ يجد طيفًا من البرامج التي لا بدّ من أن تلفت انتباه الناس، بدءًا من التدريب الجماعيّ للموظّفين الجدد (فيما يشبه معسكرات التدريب)، ودوراتٍ صيفيّةٍ تعزيزيّةٍ لموظّفي المستوى المتوسّط تُعقد في منتجعاتٍ راقية، وانتهاءً بغداءاتٍ عملٍ عالية المستوى للمدراء الكبار. والطريقة التي يغلّفون بها تلك الندوات جذّابةٌ فعلًا، إذْ تركّز على فنون اللياقة في بيئة العمل ومهارات التواصل الصّحيح للموظّفين الصغار. ورغم أنّ هذا آخر ما أودُّ أن أفعله، إلّا أنّي أتفهّم انجذاب الشركات إليه. هل باتت طبيعة المشروع واضحةً لديْك الآن؟»

ـ «أعتقد ذلك. لكنّ إطلاق مشروعٍ كهذا يتطلّب رأس مالٍ كبير. من أين لأكا أن يأتي به؟ والده أستاذٌ جامعيّ، نظيف اليد. على حدِّ علمي، لم يكن موسر الحال، ولا أتصوّر أنّه مستعدٌّ للاستثمار في مشروعٍ به ذلك القدر من المخاطرة».

ـ «لا أدري. هذا لغز. أريد أن أسألك: من معرفتك بأكاماتسو في أيّام الدراسة، هل يبدو لك من النوع الذي قد تتصوّر أن يصبح مرشدًا روحيًا أو معلّمًا؟»

هزّ تسوكورو رأسه نافيًا. «لا، بل كان أقرب إلى الشخص الهادئ الموضوعيّ الأكاديميّ. كان بليغًا، سريع البديهة، حادّ الذكاء. لكنّه في معظم الوقت يحاول ألّا يُظهر ذلك. ربّما لا يجدر بي أن أقول هذا، لكنّه كان يطيب له أن يبقى في خلفيّة المشهد، يدبّر الأمور. لا أستطيع أن أتصوّره واقفًا أمام الناس يحاول أن يلهمهم ويشجّعهم».

فقالت سارا: «الناس يتغيّرون».

ـ «صدقتِ. الناس فعلًا يتغيّرون. ومهما كنّا مقرّبين، ومهما بحنا بأفكارنا ومشاعرنا، إلّا أنّ واحدنا ربّما لم يكن يعرف شيئًا ذا قيمةٍ عن الآخر».

حدّقتْ سارا في تسوكورو برهةً قبل أن تقول: «على أيّ حال، كلاهما يعملان في ناغويا، ولم يبتعدا عنها منذ مولدهما. الدراسة في ناغويا، والعمل في ناغويا. يذكّرني هذا برواية كونان دويل **العالم المفقود**. هل ناغويا جميلةٌ إلى هذا الحدّ؟»

لم يستطع تسوكورو أن يجيب، وانتابه شعورٌ غريب. فلو أنّ الظروف غير الظروف لربّما قضى حياته بأكملها داخل أسوار ناغويا أيضًا، من دون أن يرى في الأمر أيّ غرابة.

صمتت سارة. طوتْ الورقات وأعادتها إلى المظروف ووضعته فوق الطاولة، ثمّ شربت قليلًا من الماء. لكنّها حين تحدّثتْ من جديدٍ اكتسى صوتُها نبرةً جادّة.

- «وأمّا الشخص الأخير، شيرو (يوزوكي شيران)، فللأسف ليس لها عنوانٌ حاليّ».

تمتم تسوكورو: «ليس لها عنوانٌ حاليّ».

استغرب قولَها. لو أنّها قالت لا أعرف عنوانها الحاليّ، لفهم. أمّا ليس لها عنوانٌ حاليّ، فهي عبارةٌ غريبة. تفكّر في دلالاتها. أتراها اختفت؟ أتراها مشرّدة؟

- «للأسف لم تَعُد في عالمنا».

- «لم تَعُد في عالمنا؟»

ولا يدري لماذا برزتْ أمام عينَيْه صورةٌ لشيرو في مكّوكٍ يحوم في الفضاء.

- «ماتت قبل ستّ سنوات. ولذلك ليس لها عنوانٌ حاليّ. لديْها شاهد قبرٍ في ضاحيةٍ من ضواحي ناغويا. كم كان ثقيلًا على نفسي أن أخبرك بذلك».

لم يعرف بم يجيب. تبدّدت قواه، كماءٍ يتسرّب من ثقبٍ في كيس. تلاشى الطنينُ من حوله، ولم يصله إلّا شيءٌ من صوت سارا. كان صدى بعيدًا لا معنى له، كأنّما يسمعه من قعر مسبح. رفع نفسه، ووقف، وأخرج رأسه من الماء، فاستطاع أخيرًا أن يسمع، وعاد المعنى للكلمات. كانت سارا تتحدّث إليه.

- «لم أكتب تفاصيل وفاتها. أعتقد أنّه من الأفضل أن تعرفها بنفسك. حتّى وإن استغرق الأمر بعض الوقت».

أومأ تسوكورو شاردًا.

قبل ستّ سنوات؟ كانت في الثلاثين من عمرها قبل ستّ سنوات. وما تزال في الثلاثين. حاول أن يتصوّرها في تلك السنّ، لكنّه لم يستطع. فلا يطرأ في باله سوى شيرو في السادسة عشرة أو السابعة عشرة. اجتاحه حزنٌ رهيب. لم يكن له حتّى أن يكبر معها؟

مالت سارا على الطاولة ووضعتْ يدها الصغيرة الدافئة على يده. كان سعيدًا بتلك اللمسة، ممتنًا، لكنّها بدتْ شيئًا يحدث في الوقت نفسه في مكانٍ بعيد، لشخصٍ آخر.

ـ «لم أكن أودُّ أن تعرف بهذه الطريقة. لكنَّك كنتَ ستسمع بالأمر ذات يوم».

«أعرف». كان يدرك ذلك بالطبع، لكنَّ عقله يحتاج إلى وقتٍ كي يتصالح مع الواقع. لم يكن ذنبها أو ذنبه.

قالت سارا وهي تنظر في ساعتها: «عليَّ أن أغادر الآن». ناولتْه المظروف. «طبعتُ كلَّ المعلومات عن أصدقائك الأربعة. لم أكتب سوى الحدِّ الأدنى منها. فالأهمّ هو أن تلتقي أصدقاءك وجهًا لوجه، وحينها ستعرف المزيد».

«شكرًا لك». استغرق الأمر منه وقتًا كي يعثر على الكلمات المناسبة، وينطق بها. «سأطلعكِ قريبًا على ما تؤول إليه الأمور».

ـ «سأنتظرك إذن. في أثناء ذلك، لا تتردَّد إنْ كان هنالك شيءٌ أستطيع فعله».

شكرها مرّةً أخرى.

خرجا من المقهى وتوادعا. وقف تسوكورو على الشارع ينظر إليها ببذلتها الصيفيّة البنّيّة بلون القهوة بالحليب، تلوّح له وتختفي في

الزحام. تمنّى أن يكون معها، أن يقضيا وقتًا أطول، يتحدّثان على مهل. غير أنّ لسارا حياتها، وأغلب ما فيها يحدث خلف الستار، في مكانٍ لم يعرفه بعد، وتفعل أشياء لا علاقة لها به.

كان مظروف سارا في جيب بذلته الداخليّ. فيه أوراقٌ مطويّةٌ كُتبت عليها خلاصةٌ موجزةٌ لحيوات أصدقائه الأربعة. واحدةٌ منهم لم تَعُد موجودةً هنا. لم يبقَ منها إلّا حفنةٌ من رمادٍ أبيض. أفكارُها، وآراؤها، ومشاعرها، وآمالها، وأحلامها.. كلُّها اختفت من دون أثر. وكلّ ما تبقّى ذكرياتٌ عنها. شعرُها الأسود الناعم الطويل، وأصابعها الرشيقة فوق البيانة، وساقاها الناعمان الأبيضان الرشيقان (المعبّرانِ على نحوٍ غريب)، وعزفُها مقطوعة «لو مال دو پيي». شعرُ عانتها المبلّل، وحلمتاها النافرتان. لا، تلك ليست ذكريات. كانت... فضّل ألّا يفكّر في الأمر.

إلى أين يذهب الآن؟ تساءل وهو يتّكئ على عمود إنارة. تشير ساعةُ يده إلى قُبيل السابعة. ما يزال هناك شيءٌ من الضوء في السماء، لكنّ نوافذ المحالّ كانت تزداد ضياءً في كلّ دقيقة، كيما تغري المارّة في ذلك الشارع. كان الوقت ما يزال مبكّرًا، ولا شيء يتوجّب عليه أن يفعله. لم يكن يرغب في العودة إلى شقّته. لم يرد أن يبقى وحيدًا، في مكانٍ هادئ. كان بمقدوره أن يذهب إلى أيّ مكان. تقريبًا. لكنّه لم يعرف أين يذهب.

قال في نفسه ليتني أستطيع أن أشرب أكثر. فأغلب الرجال في وضعه يلجأون إلى حانةٍ ويسكرون، لكنّه لم يكن يحتمل أكثر من مقدارٍ محدّدٍ من الكحول. الخمرُ لا تخدّر حواسّه، أو تمنحه نسيانًا مرغوبًا، بل مجرّد صداعٍ رهيبٍ في صباح اليوم التالي.

إلى أين أذهبُ إذن؟

لم يكن هناك سوى خيارٍ واحد.

مشى في الشارع الرئيس إلى محطّة طوكيو، فمرّ من مدخل «يايسو»، وجلس على دكّةٍ في رصيف خطّ «يامانوتي». قضى أكثر من نصف ساعةٍ يرقُب بينما يتوقّف في كلّ دقيقةٍ تقريبًا صفٌّ آخر من عربات القطار الخُضْر في الرصيف، تُنزل حشودًا من الناس، وتبتلع حشودًا أخرى. أخذ ينظر بعقلٍ فارغ، مستغرقًا في المشهد الذي أمامه. صحيحٌ أنّ ذلك المنظر لم يخفّف ما يشعر به من ألم، لكنّ تكراره مرّةً بعد أخرى كان يفتنه، ويخدّر إحساسه بالوقت.

كان الناس يظهرون فجأةً في حشودٍ كبيرة، يقفون تلقائيًّا في طوابير، يركبون القطارات في نظام، فيُحمَلون إلى مكانٍ ما. تأثّر تسوكورو حين رأى عدد الناس الموجودين فعلًا في هذا العالم. وتأثّر بذلك العدد الهائل من عربات القطار. قال في نفسه تلك معجزةٌ بالتأكيد. كيف تُنقل تلك الحشودُ الهائلة، في داخل أعدادٍ كبيرة من العربات على نحوٍ منظّم، وكأنّه أمرٌ بسيط. كيف أنّ لكلّ هؤلاء الناس مكانًا يذهبون إليه، ومكانًا يعودون إليه.

فلمّا تراجعت أعداد الناس أخيرًا في ساعة الذروة، نهض تسوكورو تازاكي ببطءٍ، واستقلّ واحدةً من العربات، وعاد إلى شقّته. كان الألم ما يزال قابعًا في مكانه، لكنّه أدرك الآن أنّ ثمّة شيئًا يتعيّن عليه أن يفعله.

ـ 10 ـ

في أواخر شهر أيار/مايو، مدَّد تسوكورو عطلته الأسبوعيَّة، وقضى في بلدته ثلاثة أيَّام. كانت أسرته تعقد قدَّاسًا بوذيًّا على روح والده، فكان موعدًا مناسبًا لعودته.

تعيش أخته الكبرى وزوجها مع والدة تسوكورو في بيتها الفسيح منذ وفاة الأب، غير أنَّ غرفة تسوكورو ظلَّتْ على حالها. سريرُه، ومكتبُه، ورفّ الكتب، كلّها كعهده بها منذ أيَّام المدرسة. يمتلئ الرفُّ بكتبٍ قديمة، فيما تعجُّ الأدراج بالدفاتر والأقلام التي كان يستخدمها في صباه.

أُقيم القدَّاس في اليوم الأوَّل من عودته في أحد المعابد، ثم أُتبع بوليمةٍ مع الأقارب، فاطَّلع تسوكورو على آخر أخبار أهله. وهكذا لم يَعُد لديْه ما يفعله في اليوم التالي، فقرَّر الذهاب للقاء أو قبل الآخرين. كان يوم الأحد، وقد درَجت المحالّ على الإغلاق في ذلك اليوم، لكنَّ هذا لا ينطبق على معرضٍ للسيَّارات الجديدة. كان قد قرَّر أن يزور أصدقاءه من دون موعد، حرصًا على أن يرى انطباعاتهم من دون تحضيرٍ ذهنيٍّ

مسبق. فإنْ تعذّر عليه لقاءهم، أو رفضوا لقاءه، فسوف يتعيّن عليه أن يتقبّل الأمر، ويفكّر في طريقةٍ أخرى.

كان معرض «لكزس» في منطقةٍ هادئةٍ قرب قلعة ناغويا. تصطفُّ سيّارات اللكزس فخمةً خلف نوافذ زجاجيّةٍ واسعة، بكلّ أنواعها بدءًا من السيّارات الرياضيّة حتى سيّارات الدفع الرباعيّ. وما إن دلف إلى المعرض حتّى تهادت إليه رائحةُ السيّارات الجديدة، في مزيجٍ من الإطارات الحديثة والجلد والبلاستيك.

قصدَ تسوكورو شابّةً تجلس إلى مكتب استقبال، قد صفّفتْ شعرها في دائرةٍ جميلةٍ، فكشفتْ عن عنقٍ رفيعٍ أبيض. على مكتبها مزهريّةٌ تحوي أزهار الداليا الكبيرة باللونَيْن الورديّ والأبيض.

قال لها: «أودُّ أن أقابل السيّد أومي من فضلك».

افترّت شفتاها الملوّنتَيْن بحمرةٍ تبدو طبيعيّةً عن ابتسامةٍ هادئةٍ وقور، تليق بالمعرض البرّاق، فكشفت عن أسنانٍ مستويةٍ جميلة. «السيّد أومي؟ حاضر سيّدي. أقولُ له مَن؟»

- «تازاكي».

- «سيّد تاساكي، هل لديك موعدٌ معه اليوم؟»

لم يصحِّح لها نطقَ اسمه، فقد كان هذا خطأً شائعًا. وهو في صالحه هذه المرّة.

- «في الحقيقة لا».

«طيّب. اسمح لي بلحظة». ضغطتْ على زرٍّ في هاتفها وانتظرتْ قرابة خمس ثوانٍ، ثمّ قالت: «سيّد أومي؟ هنا عميلٌ اسمه السيّد تاساكي يودُّ أن يقابلك. نعم، صحيح، السيّد تاساكي».

لم يكن تسوكورو يسمع إلّا ردودها القصيرة المختزلة. قالت أخيرًا: «حاضر سيّدي، سأبلغه».

وضعتْ السمّاعة، ونظرت إلى تسوكورو. «سيّد تاساكي، للأسف السيّد أومي منشغلٌ حاليًا. أرجو المعذرة، ولكنْ هل بإمكانك أن تنتظره قليلًا؟ قال إنَّ الأمر لن يستغرق أكثر من عشر دقائق».

كانت تتحدَّث على نحوٍ سلسٍ متمرِّسٍ، وتُحسن عبارات التوقير اليابانيّة. وقد بدت صادقةً في اعتذارها لأنّها تطلب منه الانتظار. من الواضح أنّها اكتسبتْ تعليمًا جيّدًا. أو لعلّها هكذا بطبيعتها.

- «لا بأس. لستُ مستعجلًا».

قادتْه إلى أريكةٍ سوداء فاخرة، إلى جانبها نبتةٌ كبيرةٌ مجصَّصة، فيما تتهادى موسيقى لأنطونيو كارلوس جوبيم. أمام الأريكةِ طاولةٌ زجاجيّةٌ صغيرةٌ وُضعت عليها «كتالوجات» لكزس.

- «هل تودُّ أن تشرب قهوةً أم شايًا؟ أو ربَّما شايًا أخضر؟»

- «لا بأس في فنجان قهوة».

أحضرتْ له القهوة في فنجانٍ قشديِّ اللون طُبع عليه شعار لكزس، فيما كان يقلّب «الكتالوجات». شكرها. كانت القهوة لذيذةً، برائحتها الطازجة، وسخونتها الملائمة.

كان تسوكورو قد قرَّر سلفًا أن يرتدي بذلةً وحذاءً جلديًا أنيقًا. لم يكن يعرف ما يرتديه في العادة أولئك الذين يذهبون لشراء سيّارة لكزس، ولكنْ قد لا يأخذونه على محمل الجدّ إنْ هو ارتدى بنطال جينزٍ وقميصًا قصير الكمَّيْن وحذاءً رياضيًا. لذلك غيَّر رأيه فجأةً قبل أن يغادر البيت وارتدى بذلةً وربطة عنق.

انتظر خمس عشرة دقيقة، قضاها في معرفة أنواع اللكزس كلِّها. واكتشف أنَّ الطُرُز المختلفة لا تتَّخذ أسماء مختلفة، كما في «الكورولا» و«الكراون» مثلًا، بل تستخدم أرقامًا للتمييز بينها. ينطبق هذا على سيَّارات «مرسيدس بنز» و«بي أم دبليو» أيضًا. وسيمفونيَّات يوهانس برامس.

ثمَّ ظهر رجلٌ طويل القامة من بعيد، يمشي باتِّجاه تسوكورو. كان عريض المنكبَيْن، يمشي على نحوٍ حازم، كي يعرف مَن حولَه أنَّه لا يضيِّع وقتًا في الانتقال من نقطةٍ إلى أخرى. كان هذا هو أو بكلِّ تأكيد. فرغم بُعد المسافة، إلَّا أنَّ سيماءه لم تتغيَّر كثيرًا منذ المدرسة الثانويَّة. ازداد حجمُه قليلًا، مثل بيتٍ يُضاف له شيءٌ بعد أن تكبُر الأسرة. أعاد تسوكورو «الكتالوجات» إلى الطاولة، ونهض واقفًا.

- «المعذرة لأنِّي تركتك تنتظر. اسمي أومي».

وقف أو أمام تسوكورو، وانحنى شيئًا يسيرًا. كانت البذلة التي يرتديها مكويَّةً على أفضل حال، من دون تجعيدةٍ واحدة. بذلةٌ راقية، يمتزج فيها الأزرق والرماديّ على قماشٍ خفيف. وبالنظر إلى حجمه، فلا بدَّ من أن تكون مخيطةً وفق الطلب. وقد اكتملتْ أناقتُه بقميصٍ رماديٍّ فاتح، وربطة عنقٍ رماديَّةٍ داكنة. تذكَّرَ تسوكورو مظهر أو في الثانوية، ففوجئ برؤيته الآن في هذا الهندام الأنيق. أمَّا شعرُه فظلَّ كما هو، شبه حليق الرأس مثل لاعبي الرغبي. وما تزال في بشرته سُمرةٌ خفيفة.

تغيَّرت تعابير أو قليلًا حين نظر إلى تسوكورو. فالتمع شيءٌ من الشكِّ في عينَيْه، كأنَّما رأى شيئًا مألوفًا في وجه تسوكورو لكنَّه لم يستطع أن يتذكَّره. تبسَّم، وازدرد ما كان يريد أن يقوله، في انتظار أن يتحدَّث تسوكورو أوَّلًا.

قال تسوكورو: «مضى زمنٌ طويل».

فلمّا سمع صوتَه ارتفع حجابُ الشكّ فجأةً عن وجهه. فصوت تسوكورو لم يتغيَّر على الإطلاق.

قال وهو يضيِّق عينَيْه: «تسوكورو؟»

أومأ له تسوكورو، وقال: «المعذرة، اقتحمتُ عليك مكان عملك، لكنّي ارتأيتُ أنّها الطريقة الأفضل».

سحب أو نفسًا عميقًا، فارتفع كتفاه، ثمَّ زفر ببطء. نظر إلى تسوكورو يتفحَّصه، إذْ تجري تحديقته من الأعلى إلى الأسفل، ثمَّ عودًا إلى الأعلى من جديد.

قال وهو يبدو مشدوهًا: «كم تغيَّرتَ! لو أنّي مررتُ بك في الشارع ما عرفتك».

ـ «أمّا أنتَ، فلم تتغيَّر على الإطلاق».

لوى أو جانبًا من فمه، وقال: «لا، لا. بل زاد وزني. لديَّ الآن كرش، ولم أعد أستطيع الركض بسرعة. كلُّ ما أستطيع فعله هو أن ألعب الغولف مرّةً واحدةً في الشهر مع العملاء».

صمتَا لحظةً.

وسأله أو بنبرةٍ أقرب إلى التّأكيد: «لا أظنُّكَ جئتَ تشتري سيَّارة، أليس كذلك؟»

ـ «صحيح، لم آتِ لشراء سيّارة. أودُّ التحدُّث إليك على انفرادٍ، إن كان وقتك يسمح، وإنْ كان وقتًا قصيرًا».

تجهَّمَ أو قليلًا على نحوٍ متردِّد. كان وجهه يكشف دائمًا ما يشعر به، منذ أن تعرَّف إليه تسوكورو أوَّل مرَّة.

ـ «جَدْولي اليوم مزدحمٌ جدًّا. عليَّ أن أُزور بعض العملاء، ثمَّ أحضر اجتماعًا بعد الظهر».

ـ «حدِّد الوقت الذي يناسبك. سأقبل أيَّ وقت. من أجل هذا عدتُ إلى ناغويا».

راجع أو جدوله في عقله، ونظر إلى ساعة الحائط. كانت تشير إلى الحادية عشرة والنصف. فركَ طرف أنفه بقوَّةٍ، ثمَّ قال كأنَّما حسم أمره: «حسنٌ، لديَّ استراحةٌ للغداء في الثانية عشرة. يمكنني أن ألتقيك نصف ساعة. إن خرجتَ من هنا وانعطفتَ يسارًا، سترى مقهى «ستاربكس» في نهاية الشارع. سألتقيك هناك».

وجاء أو إلى «ستاربكس» في الثانية عشرة إلَّا خمس دقائق.

قال: «المكان مزعجٌ جدًّا هنا. لنأخذ شرابًا ونذهب إلى مكانٍ آخر». طلب قهوة «كابوتشينو» وكعكةً صغيرة، في حين اكتفى تسوكورو بقنِّينة مياهٍ معدنيَّة. سارا إلى حديقةٍ قريبةٍ وجلسا على دكَّةٍ فارغة.

كانت السماء مغطَّاةً بطبقةٍ رفيعةٍ من سحاب، فلا تبدو في الأفق بقعةٌ زرقاء واحدة، رغم أنَّ الجوَّ لا يشيء بمطرٍ، ولا ريح. بالقرب منهما شجرةُ صفصافٍ أغصانها محمَّلةٌ بخضرةٍ كثيرة، تدلَّت كثيرًا حتَّى كادت تلمس الأرض، لكنَّها كانت ثابتةً وكأنَّها مستغرقةٌ في تفكيرٍ عميق. ومن حينٍ لآخر، يحطُّ طيرٌ فوق غصن، ثمَّ ما يلبث أن يعدل عن ذلك ويرفرف بعيدًا. يرتعش الغصنُ قليلًا، مثل عقلٍ مضطرب، ثمَّ يعود إلى حال سكونه.

قال أو: «قد يأتيني اتّصالٌ على هاتفي المحمول أثناء حديثنا. أرجو المعذرة. لديَّ بعض المتعلّقات التي ينبغي لي أن أتابعها».

ـ «لا بأس. أتفهَّم قدر انشغالك».

ـ «الهواتف المحمولة تسهِّل أشياء كثيرةً، إلى حدٍّ أنّها غدت في حدِّ ذاتها مصدر إزعاج. أخبرني، هل تزوَّجت؟»

ـ «لا، ما زلتُ عازبًا».

ـ «أنا تزوَّجت قبل ستِّ سنوات، ولديَّ طفل. ولدٌ عمره ثلاث سنوات. ونحن في انتظار مولودٍ آخر. بطنُ زوجتي تكبُر كلَّ يوم. يُفترض أن تلد في أيلول/سبتمبر. لكنَّها بنتٌ هذه المرَّة».

أومأ له تسوكورو، وقال: «حياتُك تسير بسلاسةٍ إذن».

ـ «لا أدري إن كانت تسير بسلاسة، لكنَّها تسير على الأقلّ. بصيغةٍ أخرى، قد نقول إنَّه لا يوجد طريقٌ للعودة. ماذا عن حياتك؟»

فقال تسوكورو وهو يناوله بطاقته من المحفظة: «ليست سيِّئة».

أخذها أو وقرأ: «شركة [...] للسكك الحديديَّة. دائرة المرافق، قسم البناء».

ـ «أغلب عملنا ينصبُّ في بناء المحطّات وصيانتها».

فقال أو بإعجابٍ ظاهر: «كنتَ دائمًا تحبُّ المحطّات، أليس كذلك؟». أخذ رشفةً من قهوته وأضاف: «إذن فقد حصلتَ على وظيفةٍ تفعل فيها ما تحبّ».

ـ «ولكنّي أعمل في شركة، فلا أفعل ما أحبُّ وحسب. هنالك أشياءُ كثيرةٌ مملَّةٌ ينبغي عليَّ فعلها».

«هكذا هو الحال في كلّ مكان. ما دمتَ تعمل موظّفًا فعليك أن تحتمل الكثير من الهراء». وهزّ رأسَه مرّتَين، كأنّه يتذكّر أمثلةً على ذلك.

ـ «هل هناك إقبالٌ على سيّارات اللكزس؟»

ـ «ليس سيّئًا. لا تنسَ أنّنا في ناغويا، موطن «تويوتا». لذلك، فسيّارات التويوتا تُباع من تلقاء نفسها. لكنّنا الآن لا ننافس «نيسان» و«هوندا»، بل نستهدف المستهلكين الذين يشترون سيّاراتٍ مستوردةٍ بأفضل المواصفات، مثل «مرسيدس» و«بي أم دبليو»، ونحاول تحويلهم إلى اللكزس. لهذا السّبب، صنعتْ تويوتا هذه العلامة الرائدة. قد يستغرق الأمر بعض الوقت، لكنّي واثقٌ من نجاحها».

ـ «الخسارة لا مكان لها».

ارتسمتْ نظرةٌ غريبةٌ على وجه أو، ثمّ ابتسم ابتسامةً عريضة. «آه.. كلمتي الحماسيّة لفريق الرغبي. غريبٌ أن تتذكّر هذا».

ـ «كنتَ ممتازًا في رفع المعنويّات».

ـ «نعم، لكنّنا كنّا نخسر في أغلب الأحيان. أمّا مشروعنا هذا فيسير بسلاسةٍ فعلًا. ما يزال الاقتصاد يعاني بالطبع، لكنّ الأغنياء محافظون على ثرواتهم. على نحوٍ مدهش».

فأومأ له تسوكورو، وتابع أو حديثه.

ـ «أنا نفسي كنتُ أقود سيّارة لكزس فترةً. سيّارةٌ رائعة. هادئة، ولا تحتاج إلى إصلاحاتٍ أبدًا. أخذتُ واحدةً للتجربة، ووصلتُ بها إلى سرعة (200) كيلومترًا في الساعة. المقود ثابت، من دون أيّ اهتزاز. والمكابح قويّةٌ أيضًا. سيّارةٌ مدهشة. جميلٌ أن تبيع الناس شيئًا تؤمن به حقًّا. فمهما كنتُ أجيد الكلام، لا أستطيع أن أبيع شيئًا لا يروقني بالفعل».

وافقه تسوكورو.

فنظر إليه أو في عينَيْه: «يبدو ما قلتُه كلامَ بائع سيّارات، أليس كذلك؟».

«لا، لا». كان تسوكورو يعرف أنّ أو صادقٌ في مشاعره. ومع ذلك، تظلُّ الحقيقةُ أنّه لم يكن يتحدَّث على هذا النحو قطّ في أيّام المدرسة.

سأله أو: «هل تقود؟»

- «أجيد القيادة، لكنّي لا أملك سيّارة. في طوكيو، تستطيع أن تسيِّر أمورك بالقطارات والحافلات وسيّارات الأجرة. وكثيرًا ما أتنقَّل بالدرّاجة. وحين أضطرُّ إلى السيّارة، أستأجرها. الأمر يختلف عنه في ناغويا».

فقال أو: «نعم، هذا خيارٌ أسهل وأقلّ كلفةً». أطلق تنهيدةً خفيفةً، ثمّ أضاف: «بإمكان الناس أن يتدبَّروا أمورهم من دون سيّارة. أخبرني، كيف هي حياتك في طوكيو؟»

- «وظيفتي هناك، وقد عشتُ في طوكيو ما يكفي لكي أعتادها. وفي الحقيقة، ليس لديَّ مكانٌ آخر أذهبُ إليه. هذا كلُّ ما في الأمر، لا لأنّي مفتونٌ بها».

ران الصمتُ فترةً، ومرّت امرأةٌ في منتصف عمرها مع كلبَيْن من فصيلة «بورد كولي»، ثمّ مرَّ بعض المتريِّضين المتَّجهين صوب القلعة.

قال أو كأنّه يخاطب شخصًا بعيدًا: «قلتَ إنَّ هناك شيئًا تريد أن تحدِّثني فيه».

- «في العطلة الصيفيّة من عامي الجامعي الثاني، عدتُ إلى ناغويا واتّصلتُ بك. فقلتَ لي إنّك لا تريد أن تراني بعد ذلك اليوم، وطلبتَ

منّي ألّا أتّصل بك مرّةً أخرى. وقلتَ لي إنّ تلك رغبة الأربعة الآخرين أيضًا. هل تتذكّر؟»

ـ «طبعًا أتذكّر».

ـ «أريد أن أعرف السّبب».

فقال أو بنبرةٍ متعجّبة: «هكذا، بعد كلّ تلك السنين؟»

ـ «نعم، بعد كلّ تلك السنين. آنذاك لم أستطع أن أسألك. كانت صدمةً هائلةً مباغتة. وكنتُ أخشى سماع السّبب الذي صددتموني من أجله. خِفتُ ألّا أتعافى أبدًا لو أخبرتموني. لذلك حاولتُ أن أنسى الأمر برمّته، ولا أعرف شيئًا عمّا جرى. قلتُ في نفسي إنّ الزمن كفيلٌ بعلاج الألم».

أخذ أو قطعةً صغيرةً من الكعكة فوضعها في فمه. أخذ يمضغها ببطء، ثمّ ازدردها بالقهوة.

ـ «انقضت ستّ عشرة سنة، ولكن يبدو أنّ الجرح ما يزال في داخلي. كأنّه ما يزال ينزف. حدث لي شيءٌ مؤخّرًا، شيءٌ مهمٌّ جدًّا، هو الذي جعلني أدرك ذلك. ولهذا السّبب، جئتُ إلى ناغويا كي أقابلك. وأرجو أن تعذرني لأنّي جئتك هكذا من دون سابق إنذار».

حدّق أو في أغصان الصفصافة المتدلّية فترةً، ثمّ قال: «ألا تعرف شيئًا عن السّبب؟»

ـ «فكّرتُ في الأمر ستّة عشر عامًا، ولم أصل إلى شيء».

ضيّق أو عينَيْه في حَيرة، وفرك طرف أنفه (من تلقاء عادته كما يبدو حين يستغرق في التفكير). «حين قلتُ لك ذلك، قلتَ لي حسنٌ

وأغلقت الخطَّ. لم تعترض أو تقل شيئًا، ولم تحاول أن تتقصّى الأمر. لذلك ظننتُ أنّك كنت تعرف السّبب».

ـ «الكلامُ صعبٌ على المجروح».

لم يجب أو، أخذ قطعةً أخرى من الكعكة وألقاها للحمَام. تحلّقت الحمامات بسرعةٍ حول الأكل. بدا معتادًا فعل ذلك. لعلّه كان يأتي إلى هنا في استراحاته ويعطي الطيور شيئًا من غدائه.

ـ «حسنٌ، أخبرني إذن. ما السّبب؟»

ـ «حقًّا لا تعرف شيئًا؟»

ـ «حقًّا لا أعرف».

عندها عَلَت نغمةٌ مرحةٌ من هاتف أو، أخرج الهاتف من جيب بذلته، وقرأ اسم المتّصل، ثمّ ضغط زرًّا في فتور، وأعاد الهاتف إلى جيبه. كان تسوكورو قد سمع ذلك اللحن من قبل في مكانٍ ما. لعلّها أغنيةٌ قديمةٌ كانت رائجةً قبل ميلاده، لكنّه لم يستطع أن يتذكّر اسمها.

قال تسوكورو: «إن كان لديْك عملٌ مهمٌ، خُذ وقتك. لا بأس».

هزّ أو رأسه: «لا، ليس أمرًا مهمًّا. يمكنني تأجيله».

شرب تسوكورو قليلًا من الماء، وقال: «لماذا طردتموني من المجموعة؟»

تفكّر أو قليلًا قبل أن يتكلّم. «ما دمتَ تقول إنّك لا تعرف شيئًا عن السّبب، فهل هذا يعني.. لا أدري.. يعني أنّك لم تضاجع شيرو؟»

أُسقط في يد تسوكورو وزمّ شفتيْه. «أضاجعها؟ مستحيل».

فقال أو في تردُّدٍ واضح: «شيرو قالت إنَّك اغتصبتها. أجبرتَها على الجنس معك».

همَّ تسوكورو بقول شيءٍ، لكنَّ الكلام لم يخرج من فمه. فعلى الرَّغم من الماء الذي شربه، إلَّا أنَّ حلقه بدا جافًّا، حدَّ الألم.

ـ «لم أصدِّق أنَّه من الممكن أن تفعل شيئًا كهذا. وأعتقد أنَّ «كورو» وأكا شعرا بالشيء نفسه. فأنتَ لم تكن من النوع الذي قد يجبر شخصًا على فعل شيءٍ لا يريده. كلُّنا نعرف أنَّك لم تكن شخصًا عنيفًا. لكنَّ شيرو كانت جادَّةً جدًّا فيما تقول، بل مهووسةً بالأمر. قالت إنَّ لك وجهًا معلنًا ووجهًا آخر خفيًا، وإنَّ فيك جانبًا شرّيرًا مستورًا، منزوعًا عن الجانب الذي يعرفه الجميع. فلمَّا قالت ذلك لم يَعُد لدينا ما نقوله».

عضَّ تسوكورو شفتَه بعض الوقت. «وهل أخبرتْكم كيف اغتصبتُها على حدِّ قولها؟»

ـ «نعم، شرحتْ الأمر بطريقةٍ واقعيَّةٍ جدًّا، وبتفصيلٍ شديد. لم أكن أريد أن أسمع شيئًا. بصراحةٍ، كان شيئًا مؤلمًا. مؤلمًا ومحزنًا. ما أقصده هو أنَّ الأمر آلمني فعلًا. على أيِّ حال، انفعلتْ شيرو كثيرًا، وأخذ جسمها يرتعد، واستبدَّ بها الغضب حتَّى بدت شخصًا آخر. قالت إنَّها سافرت إلى طوكيو كي تحضر حفلًا موسيقيًّا لعازف بيانةٍ أجنبيٍّ معروف، فدعوتَها أنتَ للإقامة في شقَّتك في جيوغاوكا. كانت قد أخبرت أبوَيْها بأنَّها ستقيم في فندق، لكنَّها أرادت أن توفِّر المال. في الوضع الطبيعيّ، ربَّما لن تقدِم شيرو على الإقامة في شقَّة رجلٍ لوحدها، لكنَّها شعرتْ بالأمان معك أنت. قالت إنَّك هجمتَ عليها في منتصف الليل. حاولتْ أن تقاومك، لكنَّها شعرتْ بخدرٍ في جسمها ولم تستطع

أن تتحرّك. كان كلٌّ منكما قد شرب كأسًا قبل النوم، وربّما وضعتَ لها شيئًا في شرابها. هذا ما قالتْه لنا».

فهزَّ تسوكورو رأسه، وقال: «لم تزر شيرو شقّتي في طوكيو قطّ، ناهيك عن أن تبيت فيها».

هزَّ أو كتفَيْه قليلًا، وارتسم على وجهه تعبيرُ من قضم شيئًا مرًّا، فأشاح ببصره. «لم يكن بإمكاني سوى أن أصدِّقها. قالت إنّها كانت عذراء، وأنّكَ أنتَ فضضتَ بكارتها بالقوّة، وأنّها تألّمت كثيرًا ونزفتْ. كانت شيرو دائمًا فتاةً حييَّةً خجولة، فلم أستطع أن أتخيّل سببًا يجعلها تختلق قصّةً كهذه بكلّ تلك التفاصيل».

التفت تسوكورو إليه ناظرًا إلى جانب وجهه. «مفهوم، ولكنْ لماذا لم تسألوني؟ أما كان من المفترض أن تمنحوني فرصةً لكي أبيّن لكم؟ بدلًا من أن تحاكموني غيابيًّا هكذا؟»

تنهَّد أو. «معك حقّ. حين أنظر إلى الأمر الآن أدرك أنَّ هذا ما كان ينبغي لنا أن نفعله. كان علينا أن نستمع إليك. لكنَّ الأمر في ذلك الوقت كان مستحيلًا، فوق قدرتنا. كانت شيرو ثائرةً ومضطربةً إلى حدٍّ لا يمكنك أن تتصوَّره. لم نعرف ما يمكن أن يحدث لها، ولذلك كانت الأولويّة بالنّسبة إلينا أن نهدِّئها. لم نصدِّق كلَّ ما قالتْه طبعًا؛ فبعض الأشياء لم تكن مقنعة. ولكنْ في الوقت نفسه، لم نرَ أنَّ الأمر بأكمله مختلق. لقد حدَّثتْنا عن الأمر بتفاصيل كثيرة، حتّى اقتنعنا أنّه لا بدَّ من وجود شيءٍ من الحقيقة فيما تقوله».

ـ «وهكذا مضيتم في الأمر، وطردتموني».

ـ «عليك أن تفهم يا تسوكورو أنّنا نحن أيضًا كنّا مصدومين، مرتبكين تمامًا. وكنّا مجروحين أيضًا. لم نعرف من نصدّق. وفي غمرة ذلك كلّه، وقفتْ كورو إلى جانب شيرو، وطلبتْ إلينا أن نطردك، تلبيةً لرغبة شيرو. لا أحاول البحث عن أعذارٍ لما فعلناه، لكنّ التيّار جرفنا أنا وأكا، فانصعنا لما أرادتْه كورو».

تنهّد تسوكورو، وقال: «بوسعك أن تصدّق أو لا تصدّق، لكنّي لم أغتصب شيرو، ولم تكن لي أيّ علاقةٍ جنسيّةٍ بها. بل لا أذكر أنّي فعلتُ أيّ شيءٍ قريبٍ من ذلك».

أومأ أو من دون أن يقول شيئًا. سواءٌ عليه أصدّق أم لم يصدّق، فقد انقضى زمنٌ طويل. هذا ما خطر في بال تسوكورو. انقضى زمنٌ طويلٌ للثلاثة الآخرين أيضًا. ولتسوكورو نفسه.

رنَّ هاتفُ أو مرّةً أخرى. قرأ الاسم والتفتَ إلى تسوكورو. «المعذرة. أيمكنني أن أردَّ على هذه المكالمة؟»

ـ «تفضّل».

نهض أو وابتعد قليلًا، ثمّ راح يتحدّث في هاتفه. كان من الواضح من حركاته وتعابيره أنّه يتكلّم مع أحد عملائه. وفجأةً، تذكّر تسوكورو أغنية النغمة. كانت أغنية إلڤس پرسلي «ڤيڤا لاس ڤيغاس». ومهما قلّبتَ الأمر، فلم تكن نغمةً تناسب بائعًا ماهرًا لسيّارات لكزس. وفي بطءٍ شديدٍ جدًّا، شعر تسوكورو بالواقع يتسرّب من الأشياء من حوله.

ثمّ عاد أو إلى مكانه على الدكّة. «آسف. انتهيت».

نظر تسوكورو في ساعته، فأدرك أنّ نصف الساعة التي منحه إيّاها أو تكاد تنقضي.

سأله: «ولكنْ ما الذي يدفع شيرو لادّعاء شيءٍ سخيفٍ كهذا؟ ولماذا اتّهمتْني أنا تحديدًا؟»

هزَّ رأسه مرَّتَيْن. «لا أدري. يؤسفني أنّي لا أملك إجابةً لك. فحتّى الآن لا أعلم شيئًا على الإطلاق عن هذا الأمر».

اجتاحتْه الشكوك حول ما هو حقيقيٌّ وما ينبغي تصديقه، ولم يكن يُحسن التعامل مع الحيرة. فهو يجيد العمل على الميدان الثابت، بقوانين واضحةٍ وفريقٍ محدَّد.

ـ «لا بدَّ من أنَّ كورو تعرف مزيدًا من التفاصيل. هذا ما وقر في نفسي آنذاك. شعرتُ بأنَّ هناك تفاصيل لم تُقل لنا. هل تفهم ما أقصده؟ المرأة تفتح قلبها للمرأة أكثر».

فقال تسوكورو: «كورو تعيش في فنلندا الآن».

ـ «أعرف. ترسل لي بطاقاتٍ بريديَّةً بين الحين والآخر».

حلَّ الصمتُ عليهما مرَّةً أخرى. ظهرتْ تلميذاتٌ بزيِّ المدرسة الثانويَّة يعبرن الحديقة. حواشي التنانير ترفرف في مرح، فيما يضحكن عاليًا وهن يمررنَ من أمام الدكَّة. ملامحهنَّ ما تزال كالأطفال، بجواربهنَّ البيض وأخفافهنَّ السود، وتعابيرهنَّ البريئة. فلمَّا رآهنَّ تسوكورو انتابه شعورٌ غريبٌ بأنَّه وأو وأصدقاءه الآخرين كانوا في مثل هذه السنِّ قبل زمنٍ قصير.

قال له أو: «أتدري، تبدو مختلفًا جدًّا».

ـ «بالطبع تغيَّرت. لم ترني منذ ستة عشر عامًا».

ـ «لا، ليس بسبب السنوات الطويلة. في أوَّل الأمر، لم أعرفك، لكنّي حين تمعَّنتُ عرفتك. تبدو.. لا أدري.. مجهدًا وجَسورًا.

خدّاك غائران، وعيناك ثاقبتان. في السابق، كان وجهك أكثر استدارةً ونعومة».

لم يكن في مقدور تسوكورو أن يخبره كيف غيّرتْه الشهور الستّة التي قضاها في الهوس بالموت وتدمير نفسه، وكيف حوّلتْه تلك الأيّام إلى شخصٍ آخر. شعر بأنّه لن يستطيع التعبير حتّى عن نصف اليأس الذي كان يشعر به آنذاك. ولعلّ من الأفضل ألّا يتطرّق إلى الأمر أبدًا. هكذا صمت تسوكورو، في انتظار أن يواصل أو الكلام.

ـ «كنتَ أنت الولد الوسيم في مجموعتنا، الولد الذي يسرّ الناظرين. نظيفًا، مرتّبًا، مهندمًا، ومؤدّبًا. كنت دائم الحرص على تحيّة الناس بدماثة، ولم تكن تنطق بأيّ حماقات. لم تكن تدخّن، ولا تشرب إلّا قليلًا، وكنت تحترم مواعيدك دائمًا. هل تعرف أنّ أمّهاتنا كنّ معجباتٍ جدًّا بك؟»

فقال تسوكورو متفاجئًا: «أمّهاتكم؟». لم يكن يتذكّر الكثير عن أمّهاتهم. «ولم أكن وسيمًا قطّ. لا في ذلك الوقت ولا الآن. لديّ ذلك النوع من الملامح الباهتة».

هزّ أو كتفَيْه قليلًا، وقال: «كنتَ الأوسم في مجموعتنا على الأقل. ربّما كانت لوجهي شخصيّة (شخصيّة غوريلا)، وكان أكا نموذجًا حيًّا للدحيح بنظّارته. ما أقصده هو أنّنا أدّينا جميعًا أدوارنا المختلفة على أكمل وجه. أقصد حين كانت المجموعة قائمة».

ـ «أوكنّا نؤدّي تلك الأدوار بوعي؟»

ـ «لا، لا أظنّ أنّنا كنّا واعين بذلك. لكنّنا أحسسنا بالموقع الذي يتّخذه كلٌّ منّا. كنتُ أنا الرياضيّ المرح، وأكا المثقّف الذكيّ، و«شيرو»

الفتاة الحلوة، و«كورو» المضحكة خفيفة الظلّ. وأنتَ كنتَ الفتى الوسيم المهذّب».

تفكّر تسوكورو في كلامه. «لطالما رأيتُ نفسي شخصًا فارغًا، بلا لونٍ أو هويّة. ربّما كان هذا هو دوري في المجموعة. أن أكون فارغًا».

فنظر إليه أو ذاهلًا: «لم أفهم. وما الدور الذي يؤدّيه من يكون فارغًا؟»

ـ «وعاءٌ فارغ. خلفيّةٌ بلا لون. من دون عيوبٍ أو مظهرٍ بارز. ربّما كان هذا النوع من الأشخاص ضروريًا للمجموعة».

هزّ أو رأسه، وقال: «لم تكن فارغًا. لم يكن هذا رأي أحدٍ فيك. لا أدري كيف أعبّر... أنت كنتُ تساعدنا كي نسترخي».

فقال تسوكورو متفاجئًا: «تسترخون؟ تقصد مثل موسيقى الخلفيّة الهادئة؟»

ـ «لا، ليس هكذا. يصعب عليّ أن أشرح لك، لكنّ وجودك ساعدنا في أن نكون على طبيعتنا. صحيحٌ أنّك كنتَ قليل الكلام، لكنّ قدمَيْك ثابتتان في الأرض، وهذا ما منحنا في المجموعة حسًّا بالأمان. كالمرساة. وقد تبيّن هذا في وضوحٍ أكبر حين لم تَعُد بيننا. كم كنّا نحتاجُ إليك. لا أدري ما إذا كان هذا هو السّبب، لكنّ السُّبل تقطّعتْ بنا جميعًا بعد رحيلك».

لزم تسوكورو الصمت، عاجزًا عن إيجاد الردّ المناسب.

ـ «أتدري، كنّا نحن الخمسة مزيجًا مثاليًا، كالأصابع الخمس». رفع يده اليمنى وفرّق أصابعه السمينة، ثمّ تابع: «وما زلتُ أرى ذلك.

كان كلٌّ منّا يكمّل نقص الآخر، فنتشارك جميعًا في أفضل خصالنا. لا أظنُّ أنَّ هذا سيحدث في حياتنا مرّةً أخرى. هو شيءٌ لا يحدث في العمر إلّا مرّةً واحدة. لديَّ أسرة، وأنا أحبُّها بالطبع، لكنّي لا أجد في نفسي تجاهها ذلك الشعور العفويّ النقيّ الذي شعرتُ به معكم».

ظلَّ تسوكورو صامتًا، فيما كوّر أو الكيس الورقيَّ الفارغ ودوّره في يده الكبيرة.

فقال أو: «أصدِّقكَ يا تسوكورو. أنّك لم تفعلها. وهذا منطقيٌّ جدًّا، فما كنتَ لتفعل شيئًا كهذا!».

وفيما كان تسوكورو يبحث عن ردٍّ، علت نغمة «ڤيڤا لاس ڤيغاس» من هاتف أو مرّةً أخرى. قرأ اسم المتّصل ثمّ أعاد الهاتف إلى جيبه.

ـ «اعذرني، ولكن عليَّ العودة إلى المكتب، إلى «التشطّر» في بيع اللكزس. هلّا مشيتَ معي إلى المعرض؟»

سارا في الشارع جنبًا إلى جنب، من دون كلام.

ثمّ كسر تسوكورو الصمت قائلًا: «قل لي، لماذا اخترت « ڤيڤا لاس ڤيغاس» نغمةً لهاتفك؟»

فقهقه أو «هل شاهدت الفيلم؟»

ـ «قبل زمن، على التلفاز. ولم أشاهد الفيلم بأكمله».

ـ «فيلمٌ سخيف، أليس كذلك؟»

فابتسم تسوكورو ابتسامةً محايدة.

ـ «قبل ثلاث سنواتٍ، دُعيت إلى حضور مؤتمرٍ في لاس ڤيغاس لوكلاء لكزس في الولايات المتّحدة، بوصفي أفضل بائعٍ في اليابان.

كانت أقرب إلى المكافأة منها إلى المؤتمر الحقيقيّ. فبعد اجتماعات الصباح، أقضي بقيّة اليوم في الشرب والقمار. وهذه الأغنية كانت بمثابة الأغنية الرسميّة للمدينة، فلا تنفكّ تسمعها في كلّ مكان. حتّى حين فزتُ في لعبة الروليت، كانت هي الأغنية المعزوفة في الخلفيّة. ومنذ ذلك الحين، اتّخذتُها تعويذةً لي لجلب الحظّ».

- «مفهوم».

- «والعجيبُ أنّ الأغنية أفادتني في عملي. فالعملاء القدماء يفرحون حين نتحدّث ويسمعون النغمة. يقولون: ما تزال شابًا، فكيف تحبُّ تلك الأغنية القديمة؟ يساعدني هذا في كسر الحواجز مع العملاء. بطبيعة الحال، هذه ليست واحدةً من أغاني إلفس الأسطوريّة، فهناك غيرها أشهر بكثير، لكن فيها شيئًا غريبًا يجعل الناس يرتاحون لي. ولا يملكون إلّا أن يبتسموا. لا أعرف السّبب، ولكنْ هذا ما يحدث. هل زرتَ لاس ڤيغاس؟»

- «لا. لم أسافر إلى الخارج قطّ. لكنّي أفكّر في الذهاب إلى فنلندا قريبًا».

فوجئ أو، فألقى نظرةً ثابتةً على تسوكورو وهو يمشي.

- «نعم، قد تكون فكرةً جيّدة. لو كان بإمكاني لذهبتُ أيضًا، فلم أتحدّث إلى كورو منذ زفافها. ربّما لا يجدر بي قول هذا، لكنّي كنتُ معجبًا بها». عاد أو ينظر إلى الأمام وسار بضع خطوات. «عندي الآن طفلٌ ونصف، ووظيفةٌ تأخذ الكثير من وقتي، وقرضٌ وكلبٌ أنزّهه كلّ يوم. لا أتصوّر أنّي أستطيع السفر إلى فنلندا، ولكن إن رأيتَ كورو بلّغها تحيّاتي».

- «سأفعل. لكنّي قبل ذلك، أفكّر في زيارة أكا».

ارتسمتْ في عينَيْه نظرةٌ مُبهمة، واختلجتْ عضلات وجهه على نحوٍ غريب. «آه، لم أره منذ فترة».

- «لماذا؟»

- «هل تعرف طبيعة عمله؟»

- «نوعًا ما».

- «ربَّما لا يجدر بي أن أخوض في ذلك الآن، كي لا تحمل عليه قبل أن تراه. كلُّ ما أستطيع قوله هو أنّي لستُ مُعجبًا بما يفعله. ولهذا السَّبب لا ألتقيه كثيرًا. للأسف».

لزم تسوكورو الصمت وهو يحاول اللحاق بخطوات أو الكبيرة.

- «لا أشكّك فيه شخصيًا، لكنّي أشكّك فيما يفعله. هناك فرقٌ طبعًا». بدا أنَّ أو يحاول إقناع نفسه. «لعلّ الشكّ ليست الكلمة المناسبة. الأمرُ وما فيه أنّي لا أشعر بارتياحٍ لهذه الطريقة في التّفكير. على أيّ حال، فقد أصبح مشهورًا في المدينة. ظهر في التلفاز والصحف والمجلّات بوصفه رائدَ أعمالٍ «فَهْلَويًّا». بل إنَّه ظهر في مجلّةٍ نسائيّةٍ بوصفه واحدًا من «أكثر العزّاب نجاحًا في الثلاثينيّات من العمر».

- «أكثر العزّاب نجاحًا؟»

- «لم أتوقّع ذلك. لم أتخيّل أنّه قد يظهر في مجلّةٍ نسائيّة».

فقال تسوكورو مغيّرًا الموضوع: «قل لي.. كيف ماتت شيرو؟»

فتوقّف أو فجأةً في وسط الطريق، ساكنًا مثل تمثال. كاد المشاة خلفه أن يصدموه. حدّق في عينَيْ تسوكورو.

ـ «لحظة. فعلًا لا تعرف كيف ماتت؟»

ـ «وكيف لي أن أعرف؟ لم أعرف حتّى أنّها ماتت إلّا الأسبوع الماضي. لم يُخبرني أحد».

ـ «ألا تقرأ الصحف؟»

ـ «أقرؤها، لكنّي لم أرَ شيئًا عن الموضوع. لا أدري، لكنّي أظنُّ أنَّ صحف طوكيو لم تكتب كثيرًا عن الأمر».

ـ «وأسرتك لم تعرف أيّ شيء؟»

هزَّ تسوكورو رأسه نافيًا.

عاد أو ينظر إلى الأمام بوجهٍ يبدو واهنًا، واستأنف مشيته السريعة. لحق به تسوكورو، وتكلَّم أو بعد لحظة.

ـ «بعد تخرُّج شيرو في كلِّيَّة الموسيقى، ظلَّت تدرِّس البيانة فترةً من منزلها، ثمَّ انتقلت أخيرًا لتسكن بمفردها في «هاماماتسو». وبعد حوالي سنتَين، وُجدت مشنوقةً في شقَّتها. كانت أمُّها تحاول الوصول إليها، وهي التي وجدتْها على ذلك الحال. ما تزال تحت تأثير الصدمة، وما يزال الحادث مقيَّدًا ضدّ مجهول».

شهق تسوكورو. مشنوقة؟

وتابع أو: «اكتُشفت جثّة شيرو قبل ستّ سنوات، في الثاني عشر من أيار/مايو. في ذلك الوقت، لم يكن بيننا تواصلٌ كثير، لذلك لا أعرف طبيعة الحياة التي كانت تعيشها في هاماماتسو. لا أعرف حتّى سببَ انتقالها إلى هناك. حين وجدتْها أمّها، كانت ميّتةً منذ ثلاثة أيّامٍ على أرضيّة المطبخ. حضرتُ جنازتها في ناغويا ولم أستطع أن أكفّ عن

البكاء. شعرتُ كأنّما مات جزءٌ منّي، كأنّما تحجّرتُ. ولكنْ كما قلتُ لك، ففي ذلك الوقت، كانت مجموعتنا قد انفصلت. كنّا جميعًا كبارًا ولكلٍّ منّا حياته، فلم يكن في وسعنا فعل شيء. لم نَعُد تلاميذ سذّجًا في الثانويّة. رغم ذلك، كان من المحزن أن نرى شيئًا كان أساسيًا في حياتنا وقد تلاشى واختفى. كنّا قد نشأنا معًا، وقضينا أوقاتًا رائعة».

تنفّس تسوكورو فأحسّ برئتَيْه تحترقان، وبدا لسانُه منتفخًا، يسدُّ فمه.

علَت نغمةُ «ڤيڤا لاس ڤيغاس» مرّةً أخرى من هاتف أو، لكنّه تجاهلها وتابع السير. وظلّ ذلك اللحنُ غريبُ المكان يتهادى من جيبه إلى أن توقّف.

فلمّا وصلا إلى مدخل المعرض، مدّ أو كفّه الكبيرة ليصافح تسوكورو بقبضةٍ قويّة. قال وهو ينظر في عينَيْ تسوكورو: «سعيدٌ لأنّي رأيتك». ما يزال أو على عهده؛ ينظر إلى الناس في أعينهم حين يكلّمهم، ويصافحهم بقوّة.

تمكّن تسوكورو من أن يقول أخيرًا: «آسف لأنّي أزعجتُك وأنت منشغلٌ جدًّا».

ـ «لا عليك. أودُّ أن ألتقيك مرّةً أخرى، حين يكون عندي وقتٌ أطول. أشعر أنّ هنالك الكثير ممّا يجدر بنا الحديث عنه. أرجو أن تتواصل معي حين تأتي مرّةً أخرى إلى ناغويا».

ـ «سأفعل. أنا واثقٌ من أنّنا سنلتقي قريبًا. صحيح، هناك أمرٌ آخر. هل تذكر مقطوعةَ بيانةٍ كانت شيرو كثيرًا ما تعزفها؟ مقطوعة هادئة من خمس دقائق أو ستّ لفرانتس لِست تُسمّى «لو مال دو پيي»».

فكّر أو دقيقةً ثمّ هزّ رأسه. «ربّما أتذكّرها لو سمعتُ اللحن. لستُ مطّلعًا على الموسيقى الكلاسيكيّة. لماذا تسأل؟»

- «لا شيء. خطرتْ في بالي لا أكثر. سؤالٌ أخير: ماذا تعني كلمة «لكزس»؟»

ضحك أو. «الناس يسألون عن ذلك كثيرًا. في الواقع، لا تعني أيّ شيء. هي كلمةٌ مُخترعة، اخترعتْها وكالة إعلاناتٍ في نيويورك بطلبٍ من تويوتا. تبدو الكلمة راقيةً ومعبّرة، ولها رنينٌ جميل. غريبٌ هذا العالم الذي نعيشُ فيه. البعض يكدُّون في بناء محطّات القطار، بينما آخرون يجنون أطنانًا من المال وهم يلفّقون كلماتٍ تبدو راقية».

- «يُسمّى هذا «تحسينًا في مجال التجارة والأعمال». هذا توجُّه العصر».

فابتسم أو ابتسامةً عريضة. «دعنا نحرص إذن على ألّا نتخلّف عن الركب».

ودّع كلٌّ منهما الآخر، فدخل أو إلى المعرض وهو يُخرج هاتفه من جيبه.

خطر لتسوكورو وهو ينتظر الإشارة الخضراء لعبور الشارع أنّه قد يكون آخر لقاءٍ بينه وبين أو. ثماني وثلاثون دقيقة لا تكفي بالتّأكيد بعد انقطاعٍ دام ستة عشر عامًا. ثمّة أشياءُ كثيرةٌ لم يسمح لهما الوقتُ بالحديث عنها. ورغم ذلك، فقد شعر تسوكورو بأنّهما قالا كلَّ شيءٍ مهمّ.

أوقف تسوكورو سيّارة أجرة، وتوجّه إلى المكتبة العامة، فطلب رُزم الصحف المنشورة قبل ستّ سنوات.

-11-

في العاشرة والنصف من صباح اليوم التالي (يوم الإثنين)، زار تسوكورو مكتب أكا، في بنايةٍ تجاريَّةٍ زجاجيَّةٍ حديثة تبعد حوالي خمسة كيلومتراتٍ عن معرض لكزس. تحتلّ الشركة نصف الطابق الثامن، فيما تشغل النصفَ الآخر شركةُ أدويةٍ ألمانيَّةٌ معروفة. ارتدى تسوكورو البذلة نفسها التي ارتداها في اليوم السابق، وربطة العنق التي أهدته إيَّاها سارا.

في المدخل شعارُ الشركة بتصميمٍ أنيقٍ ضخم، مفضيًا إلى مساحةٍ مفتوحةٍ نظيفةٍ وبرّاقة. على الجدار خلف مكتب الاستقبال لوحةٌ تجريديَّةٌ كبيرة، تبدو لطخةً من الألوان الأساسيَّة. لم يكن واضحًا ما أريد لها أن تكون، بَيْد أنّها لم تكن محيِّرةً جدًّا. وعدا تلك اللَّوحة، فقد كان المكتب خاليًا من أيِّ «ديكوراتٍ» أخرى. لا ورود، ولا مزهريَّات. يصعب على المرء أن يعرف طبيعة عمل الشركة من ذلك المدخل.

في مكتب الاستقبال، حيَّته شابَّةٌ في مقتبل العشرينيَّات من عمرها، بشعرها الملفوف في أطرافه. كانت ترتدي فستانًا خفيفًا قصير

الكمَّيْن، مع دبُوس زينةٍ لؤلؤيّ، وتبدو من أولئك الفتيات المتحدِّرات من أسرٍ ميسورة. أخذتْ بطاقة تسوكورو وهي تبتسم ابتسامةً أضاءت وجهها، ثمَّ ضغطتْ رقم تحويلةٍ في هاتفها، وكأنَّها تضغط على أنفٍ ناعمٍ لكلبٍ ضخم.

بعد قليلٍ، فُتح الباب الداخليّ وظهرتْ منه امرأةٌ حازمة الملامح في منتصف الأربعينيَّات، ترتدي بذلةً داكنةً بكتفَيْن عريضَيْن مع حذاءٍ أسود سميك الكعبَيْن. ملامحها لا تشي إلّا بالكمال. شعرها قصير، وفكَّاها قويّان، وتبدو في أتمّ الكفاءة. ثمَّة نساءٌ في منتصف العمر يوحين بأنهنّ بارزات متميّزات في عملهنّ، أيًّا كان نوعه، وهذه المرأة واحدةٌ منهنّ. لو كانت ممثِّلةً لأدّت دور كبيرة الممرّضات، أو صاحبة بيتٍ من بيوت الهوى الراقية.

نظرتْ في بطاقة تسوكورو، وارتسم شيءٌ من الحيرة في وجهها. أيّ عملٍ يمكن أن يجمع بين رئيس قسم البناء في شركةٍ للسكك الحديديّة في طوكيو ومديرٍ تنفيذيٍّ لشركةٍ تدريبيَّة تستهدف الشركات في ناغويا؟ ناهيك عن حضوره دون موعدٍ مسبق. لكنَّها لم تسأله عن سبب الزيارة.

قالت له بابتسامةٍ ضئيلة: «عذرًا، هل تسمح بالانتظار قليلًا هنا؟». وأشارت له أن يتَّخذ مقعدًا، ثمّ اختفت من الباب نفسه. كان الكرسيّ على الطراز الإسكندنافيّ البسيط، من الكروم والجلد الأبيض. كرسيٌّ جميلٌ نظيفٌ هادئ، من دون أيّ قدرٍ من الدفء، كأنّه مطرٌ خفيفٌ يهطل تحت شمس منتصف الليل. جلس تسوكورو وانتظر. كانت موظّفة الاستقبال مشغولةً بشيءٍ ما على حاسوبها المحمول، تنظر له بابتسامةٍ من حينٍ إلى آخر.

كانت هذه الشابّة من النوع الذي يراه تسوكورو كثيرًا في ناغويا، شأنها شأن الشابّة التي التقاها في معرض لكزس. جميلاتٍ، أنيقاتٍ، بشعرٍ ملفوفٍ من الأطراف، ودائمًا ما يتركنَ انطباعًا رائعًا. غالبًا ما يتخصّصنَ في الأدب الفرنسيّ في كلّيّاتِ فتياتٍ خاصّةٍ باهظة، ثمّ يعملنَ موظّفات استقبالٍ أو سكرتيراتٍ بضع سنين، يزرن باريس مرّةً كلّ عامٍ للتسوّق مع صديقاتهنّ. تلفتُ الفتاةُ نظر شابٍّ واعدٍ في الشركة، أو يعرّفه أحدهم عليها، ثمّ تترك العمل وتتزوّج. وبعد ذلك، تكرّس نفسها لإدخال أطفالها إلى مدارس خاصّةٍ معروفة. هكذا أخذ تسوكورو يفكّر في الحياة التي يعشنها وهو ينتظر.

بعد خمس دقائق، عادت السكرتيرة وقادته إلى مكتب أكا. كانت ابتسامتُها قد ازدادت شيئًا قليلًا، ولمَح تسوكورو في سلوكها احترامًا يليق بشخصٍ مثله يُسمح له بمقابلة المدير من دون موعدٍ مسبق. لا بدّ من أنّ هذا لا يحدث كثيرًا.

سارتْ أمامه في الممرّ بخطواتٍ طويلة، وكعباها يدقّان بقوّةٍ وانتظام، مثل حدّادٍ كادحٍ في أوّل الصباح. رأى على طول الممرّ عدّة أبوابٍ ذات زجاجٍ سميكٍ معتم، لكنّه لم يسمع أيّ صوتٍ من داخل الغرف. كان هذا عالمًا مختلفًا كلّ الاختلاف عن مكان عمله، حيث الهواتف التي لا تكفّ عن الرنين، والأبواب التي تُفتح وتُغلق باستمرار، والأصوات العالية.

تعجّب تسوكورو حين رأى مكتب أكا الصغير، بالأخذ في الاعتبار حجم الشركة. في الداخل، مكتبٌ اسكندنافيّ التصميم، وطقمُ جلوسٍ صغير، وخزانةٌ خشبيّة. فوق المكتب، مصباحٌ حديديٌّ على شكل تحفةٍ فنّيّة، وحاسوبٌ محمولٌ من نوع «ماك». ثمّة سمّاعات من نوع «بانغ أند

أولفسن» فوق الخزانة، وعلى الجدار لوحةٌ تجريديَّةٌ كبيرةُ أخرى تكثُر فيها الألوان الأساسيَّة. بدا أنَّ اللّوحتان لفنّانٍ واحد. نافذة المكتب كبيرةٌ تطلّ على الشارع الرئيس، لكنَّ الأصوات الخارجيَّة لا تصل إلى الداخل. على السجّادة السّادةِ شعاعُ شمسٍ من أوائل الصيف. شعاعٌ لطيفٌ هادئ.

الغرفةُ بسيطةٌ، بتصميمٍ موحَّد، لا وجود لشيءٍ دخيلٍ فيها. من الواضح أنَّ الأثاث والمعدَّات كلُّها راقية، لكنَّها مصمَّمةٌ كي تكون خافتةً متوارية، على عكس معرض لكزس الذي يبذل جهدًا كبيرًا لترويج بضاعته. المبدأُ الأساسيُّ في هذا المكان هو أن يبدو كلُّ شيءٍ غالي الثمن ومستترًا في الوقت نفسه.

وقف أكا خلف مكتبه. تغيَّر كثيرًا عن ملامحه في العشرين. كان ما يزال قصير القامة، لكنَّ شعره انحسر كثيرًا. لطالما كان شعره خفيفًا، لكنَّه قلّ كثيرًا، مع جبينٍ ورأسٍ بارزَيْن. وله الآن لحيةٌ، كأنَّه يعوِّض بها شعره المفقود. لحيته شديدة السواد، بعكس شعره الخفيف، فبدا الفارق لافتًا للنظر. يرتدي نظّارةً بإطارٍ معدنيٍّ ضيِّقٍ، فتبدو جميلةً على وجهه البيضويّ الطويل. جسمه رفيعٌ كالسابق، من دون أيِّ وزنٍ زائد. يرتدي قميصًا أبيض مخطَّطًا بخطوطٍ رفيعة، وربطة عنقٍ بنِّيَّة. يرفع كمَّيْه إلى المرفقَيْن، ويرتدي بنطالًا قشديّ اللّون، وخفَّيْن جلديَّيْن بُنِّيَّيْن من دون جوربَيْن. المظهرُ كلُّه يوحي بحياةٍ غير متكلِّفة.

ـ «أعتذر لأنّي جئتك هكذا في أوّل الصباح من دون موعد. خشيتُ ألّا تقابلني إن لم أفعل ذلك».

فقال أكا: «مستحيل». مدَّ يده وصافح تسوكورو، لكنَّ يده (على عكس يد أو) كانت صغيرةً ناعمةً، وقبضتُه لطيفة. لم تكن غير مبالية، بل مليئةً بالدفء. «وكيف لي أن أرفض؟ يسعدني لقاؤك في أيِّ وقت».

ـ «لكنّي أتوقَّع أنَّك منشغلٌ جدًّا».

ـ «العمل يشغلني طبعًا، لكنَّها شركتي، وأنا أتَّخذ القرارات. يُمكن أن يكون جدولي مرنًا إنْ أردتُ له ذلك. فقد أستغرق وقتًا أطول مع بعض الأمور، أو أقصر. في النهاية طبعًا، لا بدَّ من أن أوازن بينها. لا يملك أحدٌ أن يغيّر مقدار الوقت المتاح إلَّا الله، ولكنْ في وسعي أن أعدِّل هنا وهناك».

ـ «أودُّ أن أتحدَّث معك في بعض الأمور الشخصيَّة إن لم يكن لديْك مانع. ولكن إن كنتَ منشغلًا، أعودُ في الوقت الذي يناسبك».

ـ «لا عليك. لقد تجشَّمتَ عناء المجيء إلى هنا، ويمكننا أن نأخذ وقتنا ونتحدَّث».

جلس تسوكورو على أريكةٍ جلديَّةٍ سوداء تتَّسع لشخصَيْن، فيما جلس أكا على الكرسيِّ المقابل. بينهما طاولةٌ بيضويَّةٌ صغيرةٌ وُضعت فوقها منفضة سجائر زجاجيَّةٌ تبدو ثقيلة. تناول أكا بطاقة تسوكورو مرَّةً أخرى وتأمَّل فيها مضيِّقًا عينَيْه.

ـ «أها، إذن فقد تحقَّق حُلم تسوكورو تازاكي في بناء محطّات القطار».

ـ «أودُّ لو يكون هذا حقيقةً، ولكن للأسف لا أحظى بفرصٍ كثيرةٍ لبناء محطّات جديدة. نادرًا ما يبنون خطوط قطارٍ جديدةٍ في طوكيو،

ولذلك ينصبّ معظم عملنا على التجديد وإعادة البناء في المحطّات القائمة. نهيّئها لاستخدام أصحاب الإعاقات، وننشئ مزيدًا من دورات المياه متعدّدة الأغراض، أو نبني أسوار حماية، أو محالَّ كثيرةً داخل المحطّات، وننسّق الإجراءات كي يمكن لخطوط سككٍ أخرى أن تستخدم مساراتنا... الوظيفةُ الاجتماعيّة للمحطات في تغيُّرٍ مستمر، ولذلك أعمالنا لا تنتهي».

- «المهمّ أنَّ عملك له علاقة بمحطّات القطار».

- «صحيح».

- «هل تزوّجت؟»

- «لا، ما زلتُ عازبًا».

وضع أكا ساقًا فوق الأخرى، وأزال خيطًا من على ثنية بنطاله. «تزوّجتُ مرّةً، حين كنتُ في السابعة والعشرين، ثمّ انفصلنا بعد سنةٍ ونصف. وما زلتُ وحيدًا. العزوبيّةُ أسهل؛ كي لا تضيّع الكثير من وقتك. أهذه حالك أنتَ أيضًا؟»

- «لا. بل أودُّ أن أتزوّج. في الحقيقة، لديَّ وقتُ فراغٍ كبيرٍ جدًّا، لكنّي لم ألتقِ المرأة المناسبة بعد».

وفكّر تسوكورو في سارا. معها ربّما يشعر بالرغبة في الزواج، لكنّهما في حاجةٍ إلى معرفة المزيد عن بعضهما البعض. كلاهما يحتاج إلى وقتٍ أطول قليلًا.

فقال تسوكورو وهو يقلّب ناظرَيه في المكتب المرتّب: «يبدو أنَّ مشروعك يسير على ما يرام».

في سنوات المراهقة، اعتاد تسوكورو وأكا وأو استخدام الضميرَيْن الذكوريَّيْن أوري وأوماي (أنا و أنت) في مخاطبة بعضهم البعض، لكنَّ تسوكورو أدرك الآن بعد هذي السنوات أنَّ هذه الصيغة لم تَعُد مناسبة. ظلّ أو وأكا يخاطبانه بأوماي ويشيران إلى نفسَيْهما بأوري، لكنَّ هذه الطريقة المتبسّطة في الحديث لم تَعُد سهلةً بالنسبة إلى تسوكورو.

«نعم، العمل يسير على ما يرام في الوقت الحالي». ثمّ تنحنح وقال: «هل تعرف طبيعة عملنا؟»

- «إلى حدٍّ ما. إن كان المكتوب في الإنترنت صحيحًا».

فضحك أكا. «نعم، ليست أكاذيب. هذا ما نفعله فعلًا. وبطبيعة الحال، الجزء الأهمّ كلّه هنا»، ودقّ بإصبعه على جبهته. «هذا أشبه بعمل كبير الطهاة؛ فالمكوّن الأساسيّ في المقادير لا يكمن في الوصفة نفسها».

- «حسب ما فهمتُه، فإنّكم تعملون على تعليم الموارد البشريّة وتدريبها للشركات».

- «بالضبط. نقدّم دوراتٍ تدريبيّةً للموظّفين الجدد وشاغلي الوظائف المتوسطة في الشركات. نصمّم برامج تدريبيّةٍ وفقًا لرغبة العملاء، وننفّذها بكفاءةٍ ومهنيّة. وهذا يوفّر على الشركات وقتًا وجهدًا».

- «الاستعانة بجهاتٍ أخرى لتدريب الموظّفين».

- «صحيح. المشروع كلّه بدأ بفكرةٍ في رأسي. شيءٌ يشبه الروايات المصوّرة، حين تُضيء لمبةٌ على رأس الشخصيّة. وقد جاء التمويل الأوّليّ من رئيس شركة تمويلٍ آمن بقدراتي وقدّم لي المال».

- «ومن أين جاءتك الفكرة؟»

ضحك أكا. «ليست قصّةً شائقةً أو مثيرة. بعد تخرُّجي، عملتُ في مصرفٍ كبير، لكنَّ الوظيفة كانت مملَّة. رؤسائي كانوا غير أكفّاء، لا يفكِّرون إلَّا فيما تحت أقدامهم، ولا ينظرون إلى المدى البعيد. كلّ ما يهمُّهم هو أن يحموا مراكزهم. قلتُ في نفسي لئن كان هذا هو حال مصرفٍ كبير، فمستقبل اليابان قاتمٌ من دون شكّ. تحمَّلتُ الوظيفة ثلاث سنوات، ولم تتحسّن الأمور، بل ساءت. لذلك، غيّرت وظيفتي وعملتُ في شركة تمويل. كان رئيس الشركة يكنّ لي كثيرًا من الودّ، فطلب إليّ أن أعمل في شركته. الحقيقةُ أنَّ تلك الوظيفة تمنحك حرّيّةً أكبر، والعمل نفسه كان شائقًا، لكنَّ آرائي لم تكن تتوافق مع المسؤولين، فتركتُ العمل بعد حوالي سنتَيْن. اعتذرتُ للرئيس، وهذا ما حدث».

أخرج أكا علبة «مارلبورو» الأحمر. «يضايقك التدخين؟»

ـ «لا، أبدًا».

وضع أكا سيجارةً بين شفتَيْه وأشعلها بقدَّاحةٍ ذهبيَّةٍ صغيرة. ضاقتْ عيناه وهو يمجّ ببطءٍ، ثمَّ ينفث الدخان. «حاولتُ تركها، لكنّي لم أستطع. من دون تدخين لا أستطيع العمل. هل سبق لك أن حاولتَ الإقلاع عن التدخين؟»

لم يدخِّن تسوكورو سيجارةً في حياته.

تابع أكا: «أنا أقربُ إلى شخصيَّة الذئب المتوحِّد كما تُسمَّى. قد لا أبدو هكذا، ولم أستوعب هذا الجانب من شخصيَّتي حتَّى تخرَّجتُ وبدأتُ العمل. لكنَّها الحقيقة. فكلَّما كلَّفني أحمقٌ بمهمَّةٍ غبيَّة، استشطتُ غضبًا. تكاد تسمع دماغي ينفجر. لا يمكن لشخصٍ كهذا أن يعمل في شركة. لذلك حسمتُ أمري، وكان لا بدَّ من أن أستقلَّ بنفسي».

سكت أكا وحدَّق في الدخان المائل إلى الأرجوانيّ إذْ يتصاعد من يده، وكأنّه يلاحق ذكرى بعيدة.

ـ «هناك شيءٌ آخر تعلَّمته من العمل في شركة، وهو أنَّ معظم الناس لا يجدون بأسًا في اتّباع الأوامر. بل في واقع الأمر، يُسعدهم أن يُقال لهم ما يتوجَّب عليهم فعله. قد يشتكون، لكنَّ تلك الشكوى لا تعبّر عن حقيقة مشاعرهم. فهم يتذمَّرون بحكم العادة لا أكثر. ولو طلبتَ إليهم أن يفكّروا ويتّخذوا القرارات ويتحمّلوا مسؤوليّتها، لأُسقط في أيديهم. لذلك ارتأيتُ إمكانيّة تحويل ذلك إلى مشروعٍ تجاريّ. الأمر بسيط. أولا يبدو هذا منطقيًا؟»

لم يقل تسوكورو شيئًا، فقد كان استفهامًا مجازيًا لا أكثر.

ـ «أعددتُ قائمةً بالأشياء التي أنفر منها، والأشياء التي لا أحبّ القيام بها، والأشياء التي لا أريد للآخرين أن يقوموا بها. وبناءً على تلك القائمة، خرجتُ ببرنامجٍ لتدريب الذين يتّبعون الأوامر من رؤسائهم، كي يعملوا على نحوٍ منهجيٍّ أكثر. يمكنك أن تسمّيها فكرةً أصيلة، لكنّني أخذتُ مكوّناتٍ من مصادر أخرى. فقد أفدتُ إفادةً عظيمةً من التجربة التي خضتُها، والتدريب الذي تلقّيته حين عُيّنتُ في المصرف. أضفتُ على ذلك طرائق مأخوذةً من الجماعات الدينيّة ومحاضرات التنمية الذاتيّة، كي أضفي شيئًا من الإثارة. أجريتُ بحثًا عن الشركات الأميركيّة التي حقّقت نجاحًا في هذا المجال، وقرأتُ كثيرًا من كتب علم النفس. وأضفت أشياء من الكتيّبات الإرشاديّة التي تُعطى للمجنّدين في «الشوتزستافل» النازيّ وقوّات «المارينز». في الشهور الستّة التي تركتُ فيها عملي، كرّستُ نفسي تمامًا لتصميم هذا البرنامج. لطالما كنتُ أجيد العمل حين أركّز في مهمّةٍ محدّدة».

- «ناهيك عن أنّك شديد الذكاء».

ابتسم أكا، وقال: «أشكرك. لم يكن بإمكاني أن أقول هذا عن نفسي».

مجَّ من سيجارته ونفض رمادها في المنفضة. ثمّ رفع رأسه ونظر إلى تسوكورو.

- «الجماعات الدينيّة ومحاضرات التنمية الذاتيّة غالبًا ما تحاول أن تأخذ أموال الناس. وكي يفعلوا ذلك، يلجأون إلى شكلٍ فجٍّ من غسيل الدماغ. نحن نختلف عنهم. لو أنّنا فعلنا شيئًا مريبًا كهذا، لأحجمت الشركات الكبيرة عن العمل معنا. لا نستخدم إجراءاتٍ قاسية، أو نجبر الناس على بعض الأمور. قد تحصل على نتائج مبهرة فترةً من الزمن، لكنّها لا تدوم. من المهمّ طبعًا أن تغرس مفهوم الانضباط في عقول الناس، لكنّ البرنامج الذي تستخدمه من أجل ذلك لا بدّ من أن يكون عِلميًّا تمامًا، وعمَليًّا، ومركّبًا. لا بدّ من أن يكون شيئًا يمكن أن يتقبّله المجتمع. كما أنّ النتائج لا بدّ من أن تكون طويلة الأمد. نحن لا نهدف إلى إنتاج «زومبيّات». ما نهدف إليه هو أن ننشئ قوّةً عاملةً تفعل ما تريده الشركات، لكنّهم في الوقت نفسه، يعتقدون أنّهم مستقلّون في تفكيرهم».

فقال تسوكورو: «تبدو لي نظرةً متهكّمةً جدًّا».

- «ربّما يمكنك أن تنظر إليها على هذا النحو».

- «ولا أتصوّر أنّ كلّ شخصٍ يحضر ندواتكم يتقبّل «تأديبه» على هذا النحو».

- «بالطبع لا. هناك قلّةٌ ينفرون من البرنامج. يمكننا أن نقسّمهم إلى مجموعتَيْن. المجموعةُ الأولى انطوائيّون. بالإنجليزيّة يُسمّونهم

«outcasts» «منبوذين». وهؤلاء لا يتقبّلون أيَّ شكلٍ من النقد البنّاء، أيًا كان. يرفضون أيَّ نوعٍ من الانضباط الاجتماعيّ. ولذلك نطلب منهم الانسحاب، لأنّ التعامل معهم مضيعةٌ للوقت. أمّا المجموعة الثانية، فهم أولئك المستقلّون بفكرهم فعلًا. وهؤلاء من الأفضل أن تتركهم وشأنهم. لا تعبث معهم. كلّ منظومةٍ تحتاج إلى نخبةٍ من أمثالهم. وإنْ سارت الأمور على ما يرام فسوف يصلون إلى مناصب قياديّة. وأمّا في الوسط بين المجموعتَيْن، فهناك الذين يأخذون الأوامر من رؤسائهم ويفعلون ما يؤمرون. وهؤلاء معظم الناس. يشكّلون في تقديري (85%). ولقد صمّمتُ مشروعي لكي أستهدف هؤلاء الخمسة والثمانين بالمئة».

- «وهل يسير المشروع كما أردتَ له؟»

فأومأ أكا. «نعم، يسير وفق تقديراتي إلى حدٍّ كبير. كانت في البدء شركةً صغيرة، يعمل فيها موظّفان اثنان فقط، لكنّها الآن كبرت كما ترى. وعلامتنا التجاريّة أصبحت معروفة».

- «إذن فقد أجريتَ تقييمًا للأعمال التي لا تحبّ القيام بها، أو الأشياء التي لا تُحبّ أن يفعلها الآخرون معك، وحلّلتَها، واستخدمتَها لإطلاق مشروعك. هكذا كانت البداية؟»

أومأ أكا، وقال: «بالضبط. ليس صعبًا أن تفكّر في الأشياء التي لا تريد القيام بها أو الأشياء التي لا تريد أن يفعلها الآخرون معك. مثلما أنّه ليس صعبًا أن تفكّر فيما تحبّ فعله. هو فرقٌ بين الإيجاب والسلب. مسألةُ الجانب الذي تركّز عليه».

تذكّر تسوكورو كلام أو. لستُ معجبًا بما يفعله.

- «أولستَ تفعل ذلك أيضًا بدافعِ الانتقام الشخصيّ من المجتمع؟ بوصفك واحدًا من النخبة، شخصًا يفكّر مثل المنبوذين؟»

فقال أكا: «قد يكون معك حقّ». وضحك في سعادةٍ وفرقع بأصابعه. «رميةٌ جيّدة. الإرسال عند تسوكورو تازاكي».

- «هل أنت من ينظِّم هذه البرامج؟ هل تقدِّم المحاضرات بنفسك؟»

- «في بادئ الأمر نعم. لم يكن لديَّ من أعتمد عليه في هذا الجانب. هل تستطيع أن تتصوَّرني وأنا أفعل ذلك؟»

فأجاب تسوكورو بصدق: «بصراحة، لا».

فضحكَ أكا، وقال: «ولكنْ هكذا تبيَّن أنَّني أجيد ذلك فعلًا. لا يجدر بي أن أتباهى، لكنَّني أتقنتُ ذلك فعلًا. الأمرُ كلّه تمثيلٌ طبعًا، لكنّي كنتُ أجيد الإيحاء بالثقة والإقناع. لم أعُد أفعل ذلك، فأنا أقرب إلى المدير منّي إلى المعلّم الروحيّ. ولديَّ أشغالٌ كثيرة. ما أفعله الآن هو تدريبُ المدرّبين، ثمَّ أتركُ الجانب العمليّ لهم. وفي هذه الفترة، صرتُ أقدِّم محاضراتٍ كثيرةً خارج الشركة. تدعوني الشركات إلى اجتماعاتها، وأقدِّم كلمةً في ندوات التوظيف في الجامعات. كما طلبَ إليَّ أحد الناشرين أن أكتب كتابًا، وأنا أعمل عليه حاليًا».

ثمَّ سحق أكا سيجارته في المنفضة.

- «ما إنْ تتحصَّل على المهارة اللازم، حتَّى يصبح هذا العمل ميسورًا. اطبع مطويَّةً لمّاعةً، وانسج لغةً تنفخ في قدراتك وإمكانيّاتك، واستأجر مكتبًا أنيقًا في مكانٍ راق. اشترَ أثاثًا جذّابًا، وعيِّن موظّفين أكفاء ذوي مؤهّلاتٍ عالية، وادفع رواتبهم بسخاء. الصورةُ كلُّ شيء. لا تدخِّر شيئًا في سبيل الوصول إلى الصورة المناسبة. السمعةُ التي يتناقلها الناس مهمَّةٌ جدًّا؛ فبمجرَّد أن تكتسب سمعةً جيِّدة، يكبر الزخم أكثر فأكثر. لكنّي لا أفكّر في التوسُّع. سنظلّ نركِّز على الشركات في

منطقة ناغويا فقط. فلا يمكنني أن أضمن مستوى الجودة ما لم أراقب كلّ شيءٍ بنفسي».

ثمّ حدّق أكا بعينَيْن فاحصتَيْن في تسوكورو.

ـ «لكنّي لا أظنُّك مهتمًّا جدًّا بعملي، أليس كذلك؟»

ـ «الأمرُ يبدو غريبًا، لا أكثر. لم يكن ليخطر في بالي حين كنّا مراهقين أنّك ستفتح مشروعًا من هذا النوع في يومٍ من الأيّام».

فقال أكا ضاحكًا: «ولا أنا. كنتُ مؤمنًا بأنّي سأبقى في الجامعة وأصبح أستاذًا. لكنّني بمجرّد أن دخلت إلى الجامعة أدركتُ أنّي لم أُخلق للحياة الأكاديميّة. حياةٌ راكدة، وعالمٌ باهتٌ بغيض، فلم أشأ أن أقضي بقيّة حياتي هناك. وبعد تخرُّجي، وجدتُ أنّ العمل في شركةٍ لا يلائمني أيضًا. الأمر كلُّه تجارب، وفي النهاية، وجدتُ مكاني. ولكنْ ماذا عنك؟ هل أنتَ سعيدٌ بوظيفتك؟»

ـ «إلى حدٍّ ما. لكنّي لستُ مستاءً منها».

ـ «ألأنّك تستطيع أن تفعل أشياء متعلّقة بمحطّات القطار؟»

ـ «نعم. وبتعبيرك أنتَ، أستطيع البقاء في الجانب الإيجابيّ».

ـ «ألم تشعر بتردُّدٍ أو تشكُّك في تمسُّكك بوظيفتك؟»

ـ «في كلّ يومٍ، أبني أشياء ملموسة. لا وقت لديَّ للتشكُّك».

فابتسم أكا، وقال: «رائع. هذا يلائم شخصيّتك تمامًا».

ران الصمتُ عليهما، وعبث أكا بالقدّاحة الذهبيّة في يده، لكنّه لم يشعل سيجارةً أخرى. لعلّه يدخّن عددًا محدّدًا من السجائر كلّ يوم.

ـ «لكنّك جئتَ لتتحدّث في موضوعٍ ما، أليس كذلك؟»

- «أودُّ أن أسأل عن الماضي».

- «حاضر. لنتحدَّث عن الماضي».

- «عن شيرو».

ضاقت عينا أكا خلف نظَّارته، وأخذ يدعك لحيته. «توقَّعتُ ذلك. بعد أن أعطتني سكرتيرتي بطاقتك».

لزم تسوكورو الصمت.

فقال أكا بهدوء: «يوسفني ما حدث لشيرو. لم تعش حياةً سعيدة. كانت جميلةً جدًّا، وموهوبةً جدًّا في الموسيقى، لكنَّها ماتت ميتةً شنيعة».

لم يرتح تسوكورو للطريقة التي لخَّص بها أكا حياتها في سطرَيْن. لكنَّه كان يدرك أنَّ عامل الزمن له دورٌ في الأمر. فتسوكورو لم يعرف شيئًا عن موت شيرو إلَّا مؤخَّرًا، بينما تعايش أكا مع الأمر ستَّ سنوات.

- «أريد أن أصحِّح سوء فهمٍ حدث، رغم أنَّه قد لا توجد فائدةٌ من ذلك. لا أعرف ما قالتْه شيرو لكم، لكنِّي لم أغتصبها. لم تكن لي بها أيّ علاقةٍ من هذا النوع».

- «تذكِّرني الحقيقةُ أحيانًا بالمدينة المدفونة في الرمال. يتراكم الرمل أكثر فأكثر بمرور الزمن، ثمَّ تذروه الرياحُ في وقتٍ من الأوقات، فينكشف ما تحته. بصرف النظر عن تصحيح سوء الفهم، فأنت لستَ من النوع الذي يُقدم على شيءٍ كهذا. أعلم هذا جيِّدًا».

- «تعلم هذا؟»

- «أقصد أنِّي أعلمه الآن».

- «لأنَّ الريح أزالت الرمال؟»

أومأ أكا، وقال: «تقريبًا هكذا».

- «وكأنّنا نتحدّث عن التاريخ».

- «نعم، بشكلٍ من الأشكال».

حدّق تسوكورو في وجه صديقه القديم الجالس قبالته، لكنّه لم يستطع أن يستشفّ شيئًا يعكس مشاعره. وتذكّر ما قالته سارا، فقاله بصوتٍ عال: **بوسعك إخفاء الذكريات وقمعها، لكنّك لا تستطيع أن تمحو التاريخ.**

فهزّ أكا رأسه عدّة مرّات. «بالضبط. بوسعك إخفاء الذكريات وقمعها، لكنّك لا تستطيع أن تمحو التاريخ. هذا بالضبط ما أردتُ قوله».

- «على أيّ حال، فقد استبعدتموني أنتم الأربعة آنذاك. تمامًا، وبلا رحمة».

- «صحيح، فعلنا ذلك. تلك حقيقةٌ تاريخيّة. لا أحاول تبريرها، لكنّنا في ذلك الوقت، لم يكن لديْنا خيارٌ آخر. كانت قصّة شيرو حقيقيّةً جدًّا. لم تكن تمثّل. كانت بالفعل مجروحة. بها جرحٌ فعليٌّ، وألمٌ حقيقيّ، ودمٌ حقيقيّ. لم يكن ثمّة مجالٌ للتشكيك فيما قالته آنذاك. ولكنْ بعد أن استبعدناك، ومرّ الوقتُ، ازدادت حيرتنا في الموضوع».

- «كيف؟»

ضمّ أكا كفّيه على حجره، وفكّر خمس ثوانٍ قبل أن يتحدّث.

- «لاحظنا في البدء أشياء صغيرة. كانت بضعة تفاصيل غير مقنعة. لكنّنا لم نتوقّف عندها كثيرًا. لم تكن لها أهمّيّةٌ آنذاك. لكنّها صارت بعد ذلك تتكرّر أكثر، فخطر لنا أنّ هناك شيئًا مريبًا».

لم يتحدّث تسوكورو، وانتظر أن يُكمل أكا كلامه.

ـ «ربّما كانت شيرو تعاني من مشكلاتٍ عقليّة». أخذ أكا يعبث بقدّاحته، وينتقي ألفاظه في حرص. «لا أعلم ما إذا كانت مشكلات مؤقّتة أو طويلة الأمد، لكنّ المؤكّد أنّها كانت تعاني من مشكلةٍ في ذلك الوقت. كانت موهبتها الموسيقيّة عاليةً جدًّا، تعصف بنا حين تعزف، لكنّها للأسف كانت تطالب نفسها بالمزيد. موهبتُها كانت كافيةً في العالم المحدود الذي تعيش فيه، لكنّها لا تكفي للخروج إلى العالم الأوسع. فمهما تدرّبتْ، لم يكن بمقدورها الوصول إلى المستوى الذي أرادتْه. تتذكّرُ بالتّأكيد كيف كانت جادّةً وانطوائيّة. وبمجرّد أن التحقتْ بالمعهد الموسيقيّ ازداد الضغط النفسيّ عليها. وشيئًا فشيئًا، بدأتْ تتصرّف بغرابة».

هزّ تسوكورو رأسه، لكنّه لم يقل شيئًا.

فقال أكا: «الأمر ليس غريبًا. هي قصّةٌ مُحزنةٌ بالتّأكيد، لكنّها تحدث دائمًا في عالم الفنّ. الموهبة مثل الوعاء؛ حجمها لا يتغيّر أبدًا مهما بذلتَ من جهد. لا يمكن أن يحوي الوعاء كمّيّةً أكبر من الماء».

ـ «أعلم أنّ هذه الأشياء تحدث كثيرًا. ولكن من أين جاءت قصّة أنّي خدّرتُها واغتصبتُها في طوكيو؟ ربّما كانت لديْها مشكلات عقليّة، ولكن ألا ترى أن تلك القصّة مفاجئةٌ وغير متوقّعة؟»

أومأ أكا، وقال: «بلى. مفاجئة وغير متوقّعة. وفي الواقع، هذا ما دفعنا إلى تصديقها في بادئ الأمر. لم نتصوّر أن تختلق شيرو شيئًا كهذا».

تخيّل تسوكورو مدينةً عتيقةً مدفونةً في الرمال. ورأى نفسه جالسًا فوق الكثيب، يحدّق في الحطام تحته.

ـ «ولكنْ لماذا كنتُ أنا تحديدًا الطرفَ الآخر في القصّة؟ لماذا أنا؟»

ـ «لا أعرف. ربَّما كانت شيرو في سرِّها معجبةً بك، فأصيبت بخيبة أملٍ وغضبٍ حين رحلتَ إلى طوكيو. أو ربَّما كانت تغار منك. أو ربَّما أرادت أن تتخلَّص من هذه البلدة. على أيِّ حال، لا سبيل لديْنا الآن لمعرفة دافعها إلى ذلك. إنْ افترضنا وجود دافعٍ أصلًا».

استمرَّ أكا في العبث بقدَّاحته. ثمّ قال: «هناك شيءٌ واحدٌ أريدك أن تعرفه. أنتَ ذهبت إلى طوكيو، وبقينا نحن الأربعة في ناغويا. لا أُنكر عليك ذلك، ولكنْ كانت لك حياةٌ جديدةٌ في مدينةٍ جديدة. ولذلك كان علينا نحن الذين بقينا في ناغويا أن نتقارب. هل تفهم ما أقصده؟»

ـ «تقصد أنَّ استبعادي أنا، بصفتي دخيلًا، كان واقعيًّا أكثر من استبعاد شيرو. صحيح؟»

لم يجب أكا، وزفر زفرةً سطحيَّةً طويلة. «من بيننا نحن الخمسة ربَّما كنتَ أنتَ الأشدّ، والأقلّ عاطفيَّةً. وهذا على عكس المتوقَّع، إنْ أخذنا في الاعتبار هيئتك الهادئة. أمَّا نحن الأربعة فلم تكن لديْنا الشجاعة الكافية للمغامرة مثلك. كنَّا نخاف أن نترك البلدة التي نشأنا فيها، وأن نودِّع أصدقاءنا المقرَّبين. لم نستطع أن نغادر «منطقة الراحة» الدافئة. الأمر أشبه بصعوبة أن تترك فراشك الدافئ في صباحٍ شتويٍّ بارد. في ذلك الوقت، اختلقنا كلّ الأعذار الممكنة، لكنَّني الآن أرى حقيقة الأمر».

ـ «لكنَّك لستَ نادمًا على البقاء في ناغويا، أليس كذلك؟»

ـ «لا لست نادمًا. كانت لديَّ أسبابٌ عمليَّةٌ كثيرةٌ للبقاء، واستطعتُ أن أستخدمها لمصلحتي. في ناغويا، تنفعك العلاقات المحلِّيَّة كثيرًا. خذ مثلًا رئيس شركة التمويل الذي استثمر في قدراتي. كان قد قرأ قبل سنواتٍ عن جهودنا التطوُّعيَّة في المدرسة، وهذا ما

دعاه إلى الوثوق بي. لم أشأ أن أتربّح من عملنا التطوّعيّ، ولكنْ هكذا سارت الأمور. وكثيرٌ من عملائنا تتلمذوا على يد أبي في الجامعة. في دوائر التجارة في ناغويا شبكةٌ اجتماعيّةٌ مُحكمة، والأستاذ الجامعيّ يُعدُّ علامةً تجاريّةً محترمة. لكنّي لو ذهبتُ إلى طوكيو فلن يفيد ذلك في أيِّ شيء. سيتجاهلونني تمامًا. أليس كذلك؟»

سكتَ تسوكورو.

ـ «أعتقد أنَّ لتلك الأسباب العمليّة دورًا في بقائنا في ناغويا. لقد اخترنا البقاء في الحمّام الدافئ. والآن بقيتُ أنا وأو فقط، بعد وفاة شيرو وانتقال كورو إلى فنلندا. لا يفصل بيني وبين أو أكثر من شارع، لكنّنا لا نلتقي أبدًا. والسبب؟ أنّنا لو التقينا لن نجد موضوعًا نتحدّث فيه».

ـ «يمكنك أن تشتري لكزس. عندها ستجدان ما تتحدّثان فيه».

فغمز له أكا، وقال: «لديَّ سيّارة «بورشه كاريرا 4»، مكشوفة، بغيارٍ عاديّ. مدهشٌ ذلك الإحساس الذي ينتابك حين تغيّر الغيار. وإحساسٌ رائعٌ حين تخفّض الغيار. هل قدتَ واحدةً من قبل؟»

فهزَّ تسوكورو رأسه نافيًا.

ـ «تروقني سيّارتي جدًّا، ولن أشتري غيرها أبدًا».

ـ «ولكنْ يمكنك شراء لكزس للشركة».

ـ «لديَّ عملاء من شركتَي نيسان وميتسوبيشي. لذلك لا يمكن أن أشتري لكزس».

تبع ذلك صمتٌ قصير.

سأله تسوكورو: «هل حضرتَ جنازة شيرو؟»

ـ «نعم. صدّقني لم أرَ جنازةً حزينةً مثلها، لا قبلها ولا بعدها. ما يزال مجرّد التّفكير فيها مؤلمًا. أو حَضَر أيضًا. لكنّ كورو لم تستطع الحضور. كانت في فنلندا، توشك أن تضع مولودتها».

ـ «لماذا لم تبلغوني بوفاة شيرو؟»

سكت أكا برهةً، وحدّق بعينَيْن فارغتَيْن في تسوكورو. «حقيقةً، لا أعرف. قلتُ في نفسي لا بدَّ من أن يُخبرك شخصٌ ما. لعلّ أو ـ»

ـ «لا، لم يخبرني أحدٌ قطّ بوفاة شيرو إلّا قبل أسبوع. لم أكن أعرف أنّها ماتت».

هزّ أكا رأسه واستدار، محوّلًا تحديقته إلى النافذة. «كان تصرّفًا سيّئًا منّا. لا أحاول أن أبرّر أفعالنا، ولكن ينبغي لك أن تستوعب البلبلة التي كنّا فيها. لم نكن نعرف عنك شيئًا، وتوقّعنا أنّك ستسمع عن مقتل شيرو. وحين لم تحضر الجنازة، توقّعنا أنّ الأمر كان صعبًا عليك».

سكت تسوكورو لحظةً، ثمّ قال: «سمعتُ أنّها كانت تعيش في هاماماتسو حين قُتلت».

ـ «نعم، عاشت هناك قرابة سنتَيْن. كانت تسكن بمفردها، وتدرّس الأطفال عزف البيانة. في مدرسة ياماها للبيانة. لكنّي لا أعرف سبب انتقالها إلى هاماماتسو. كان بمقدورها أن تجد وظيفةً في ناغويا».

ـ «وكيف كانت حياتها هناك؟»

تناول أكا سيجارةً من العلبة ووضعها بين شفتَيْه، ثمّ أشعلها بعد تردُّدٍ قصير.

ـ «قبل مقتلها بحوالي نصف سنة، اضطرّتني ظروف العمل إلى الذهاب إلى هاماماتسو. فهاتفتُها ودعوتها لتناول العشاء. كانت مجموعتنا

قد انفصلت، ولم نكن نلتقي إلّا مرّةً كلّ فترة. انتهيت من أعمالي بسرعةٍ في هاماماتسو، وكان عندي وقت فراغ طويل، فأردتُ أن أرى شيرو بعد انقطاع. كانت متماسكةً وهادئةً أكثر ممّا توقّعت. بدتْ سعيدةً لأنّها تركت ناغويا، مستمتعةً بالحياة في مكانٍ جديدة. هكذا تناولنا العشاء معًا ورحنا نستعيد الذكريات. ذهبنا إلى مطعم أوناغي «أنقليس» شهير في هاماماتسو، وشربنا بضع علبٍ من البيرة، واستمتعنا فعلًا. فوجئتُ بأنّها كانت قادرةً على الشراب. مع ذلك، كان هناك شيءٌ من التوتّر في الأجواء. ما أقصده هو أنّه كان هناك موضوعٌ معيّنٌ لا بدّ من أن نتجنّب ذكره...».

ـ «وذلك الموضوع المعيّن هو أنا، أليس كذلك؟»

رماه أكا بنظرةٍ، وهزّ رأسه. «كان الموضوع ما يزال يزعجها. لم تنسَه. ولكنْ بخلاف ذلك، كانت تبدو على ما يرام. تضحك كثيرًا، وتستمتع بالحديث. وكلّ ما تقوله يبدو طبيعيًّا. استغربتُ أنّها استطابت الانتقال إلى مكانٍ جديد. ولكنْ كان هناك شيء. لا أحبّ الخوض فيه، لكنّها... لم تكن جذّابةً كسابق عهدها».

فقال تسوكورو بصوتٍ كأنّه قادمٌ من بعيد: «لم تكن جذّابة؟»

«قد لا يكون هذا هو التعبير المناسب». فكّر أكا قليلًا، ثمّ قال: «لا أدري... ظلّت ملامحها كما هي طبعًا، وما من شكٍّ في أنّها كانت ما تزال امرأةً جميلة. إنْ لم تكن تعرفها في مراهقتها، ستقول إنّها امرأةٌ جميلة. لكنّي كنتُ أعرفها من قبل، أعرفها حقّ المعرفة. لم أنسَ كيف كانت جذّابة. أمّا شيرو التي كانت أمامي، فلم تكن كذلك».

قطّب أكا جبينه قليلًا، وكأنّه يتذكّر ذلك المشهد.

- «رؤية شيرو على هذا النحو كانت مؤلمةً جدًّا. آلمني أنّها لم تَعُد تملك ذلك الشيء الوقّاد الذي كان لديْها، آلمني أنّ ذلك الشيء الذي كان لافتًا جدًّا قد اختفى، أنّ ذلك الشيء المميّز لن يحرّك مشاعري كما كان سابقًا».

تصاعد الدخان من سيجارة أكا فوق المنفضة.

- «كانت قد بلغتْ لتوّها سنّ الثلاثين، وما تزال في شبابها. حين التقتني، كانت ترتدي ملابس سادة، بشعر مكوّرٍ في الخلف، ووجهٍ يكاد يخلو من «المكياج». لكنّ هذه محض تفاصيل. المهمّ في الأمر أنّها فقدت ذلك الوهج الذي كانت تملكه، فقدتْ حيويّتها. صحيحٌ أنّها كانت طوال حياتها انطوائيّةً، ولكنْ كان هناك شيءٌ نابضٌ بالحياة في جوهرها، شيءٌ هي نفسها لم تكن تدركه تمامًا. ذلك الضوء، ذلك الإشعاع الذي يتسرّب من تلقاء نفسه، من بين الشقوق. هل فهمتَ قصدي؟ هذا كلّه اختفى في آخر لقاءٍ بيننا، وكأنّ شخصًا انسلّ من خلفها وسحب السلك. تلاشى ذلك الوهج اللّامع الذي كان يميّزها عمّن سواها، فصار يحزنني أن أنظر إليها. لم تكن قضيّة السنّ؛ فهي لم تصبح هكذا لمجرّد أنّها كبرت. لقد تحطّمتُ حين سمعتُ بأنّها شُنقت. لم تكن تستحقّ أن تموت هكذا، بصرف النظر عن أيّ ظروف. ولكنْ في الوقت نفسه، ظلّ في داخلي شعورٌ بأنّ الحياةَ كانت قد سُلبتْ منها، من قبل أن تُقتل».

التقط أكا السيجارة من المنفضة، ومجّ منها نفَسًا طويلًا، وأغلق عينَيْه. ثمّ قال: «لقد تركتْ شيرو فجوةً كبيرةً في قلبي. فجوةً ما تزال مفتوحة».

رانَ عليهما صمتٌ ثقيل، كثيف.

ثمّ قال تسوكورو: «هل تذكر معزوفة البيانة التي كانت شيرو تعزفها كثيرًا؟ معزوفةٌ قصيرةٌ لفرانتس لِست اسمها «لو مال دو پيي»؟

تفكّر أكا قليلًا وهزّ رأسه. «لا، لا أذكر. الوحيدة التي أذكرها معزوفة شهيرة من مجموعة روبرت شومان مشاهد من الطفولة. اسمها «ترويميري». كانت تعزفها أحيانًا. لكنّي لا أذكر معزوفةً لفرانتس لست. لماذا تسأل؟»

«لا شيء. تذكّرتُها وحسب». ثمّ نظر إلى ساعته، وقال: «لقد أخذتُ الكثير من وقتك، وعليّ أن أنصرف. سعيدٌ لأنّنا التقينا وتحدّثنا».

ظلّ أكا في مقعده يرمق تسوكورو بوجهٍ يخلو من أيّ تعبير، كشخصٍ يحدّق في مطبوعةٍ حجريّةٍ لم يُطبع عليها شيءٌ بعد. «هل أنت مستعجل؟»

- «لا، أبدًا».

- «أيمكننا أن نجلس أكثر ونتحدّث؟»

- «بالطبع. لديّ وقتٌ طويل».

حاول أكا أن يزنَ كلامه جيّدًا قبل أن يتكلّم. «لم تعد تحبّني كثيرًا، أليس كذلك؟»

أُسقط في يد تسوكورو، فالسؤال كان مباغتًا، علاوةً على أنّه لم يبدُ له من اللّائق تقليص مشاعره للشخص الجالس قبالته إلى معادلةٍ شطريّةٍ من الحبّ والكراهية.

تخيّر تسوكورو ألفاظه بعنايةٍ، وقال: «حقيقةً لا أدري. اختلفت مشاعري بالتّأكيد عمّا كانت عليه في مراهقتنا. لكنّ هذا -»

فرفع أكا يده مقاطعًا.

ـ «لا داعي للتكلُّف في انتقاء الكلام. لستَ في حاجةٍ إلى إجبار نفسك على محبّتي. لا أحد يحبُّني الآن، وهذا متوقَّع. أنا نفسي لا أحبّني كثيرًا. كان لديَّ بضعة أصدقاء، وكنتَ أنتَ واحدًا منهم، ثمَّ فقدتُهم في مرحلةٍ معيَّنةٍ من حياتي. مثلما فقدتْ شيرو في مرحلةٍ من حياتها تلك اللمعة الخاصَّة. على أيِّ حال، ليس بمقدورك أن تعود في الزمن. لا يمكنك أن تعيد بضاعةً فتحتَها، فلا بدَّ من أن تكيِّف أمورك بها».

أخفضَ أكا يده ووضعها على حِجره، ثمَّ أخذ ينقر لحنًا نشازًا على ركبته، وكأنَّه يرسل رسالةً بشيفرة مورس.

ـ «عمل أبي أستاذًا جامعيًا فترةً طويلةً من حياته، حتَّى أنَّه اكتسب عادات الأساتذة. ففي البيت، دائمًا ما يتَّخذ دور الواعظ، وينظر إلينا من فوق. كنتُ أكره ذلك، منذ طفولتي. لكنَّني أدركتُ الأمر في مرحلةٍ معيَّنة.. وبدأتُ أتحدَّث مثله».

ومضى ينقر على ركبته.

ـ «كنتُ دائمًا أشعر بأنِّي أسأتُ لك. أقولها صادقًا. أنا، أو نحن، لم يكن لديْنا الحقّ في أن نعاملك بتلك الطريقة. قلتُ في نفسي لا بدّ من أن أعتذر إليك ذات يوم. لكنِّي لم أفعل».

ـ «لا عليك. هذه حالةٌ أخرى، حيث لا يمكنك العودة في الزمن». بدا أكا تائهًا في أفكاره، ثمَّ قال أخيرًا: «تسوكورو. أودُّ أن أطلب منك خدمة».

ـ «أيّ خدمة؟»

ـ «لديَّ شيءٌ أودُّ أن أُخبرك به. يمكنك أن تسمِّيه اعترافًا، لم أُخبر به أحدًا من قبل. لعلَّك لا تريد سماعه، لكنِّي أريد أن أبوح بألمي.

أريدك أن تعرف ما ظللتُ أحمله في داخلي. لا أقول إنَّ هذا سوف يعوِّضك عن الألم الذي احتملتَه. المسألة تتعلَّق بمشاعري وعواطفي لا أكثر. هل لديْك استعدادٌ لأن تسمعني؟ من أجل صداقتنا القديمة؟»

أومأ له تسوكورو في حيرة.

ـ «أخبرتك أنّي لم أكن أعرف أنّي لم أُخلق للحياة الجامعيّة إلّا بعد أن التحقت بالجامعة. وكيف أنّي لم أعرف أنّي لم أُخلق للوظيفة في شركةٍ إلّا بعد أن التحقت بوظيفة المصرف. تذكُّر؟ الأمر محرجٌ بعض الشيء. فربَّما لم أنظر إلى نفسي نظرةً متفحِّصةً قطّ. ولكنْ ليس هذا كلّ ما في الأمر. فقبل أن أتزوَّج لم أستوعب أنّي غير مناسبٍ للزواج. ما أريد قوله هو أنَّ العلاقة الجسديَّة بين الرجل والمرأة لم تناسبني. هل فهمتَ ما أريد قوله؟»

لم يقل تسوكورو شيئًا، فأكمل أكا.

ـ «ما أريد قوله هو أنّي لا أشعر فعلًا برغبةٍ في النساء. لا أقول إنّه لا تنتابني رغباتٌ على الإطلاق، لكنّي أشعر بها نحو الرجال أكثر».

حلّ صمتٌ عميقٌ في الغرفة، فلم يسمع تسوكورو أيّ صوت. والغرفةُ كانت بطبيعتها هادئةً أصلًا.

فقال تسوكورو ليكسر الصمت: «الأمرُ ليس نادرًا جدًّا».

ـ «معك حقّ، ليس نادرًا جدًّا. ولكنْ من الصعب أن تواجه هذا الواقع في مرحلةٍ من حياتك. صعبٌ جدًّا. لا يمكنك أن ترفض الأمر بعباراتٍ عامّة. لا أدري كيف أعبّر عن ذلك. الأمر أشبه بالوقوف على سطح سفينةٍ في البحر ليلًا، ثمّ فجأةً يُلقى بك في البحر، وحيدًا».

خطر هايدا في بال تسوكورو، وكيف أفرغ شهوته في فم هايدا في الحلم (فقد افترض أنّه كان حلمًا). تذكّر تسوكورو الحيرة التي انتابته آنذاك. كأنّه أُلقي به ليلًا في البحر، وحيدًا.. يا له من تعبيرٍ يصف الأمر بدقّةٍ شديدة!

قال تسوكورو وهو ينتقي كلماته: «في رأيي، ينبغي لك أن تكون صادقًا مع نفسك قدر الإمكان. كلّ ما يمكنك فعله هو أن تتحلّى بالصدق والحرّيّة قدر المستطاع. اعذرني، ولكن لا أملك غير هذا لأقوله».

ـ «صدّقني، رغم أنّ ناغويا واحدةٌ من أكبر مدن اليابان، إلّا أنّها في جانبٍ من الجوانب ليست كبيرةً جدًّا. تعدادُها كبير، واقتصادها يسير على ما يرام، والناس ميسورون، لكنّك إن تأمّلتَ الخيارات وجدتَها محدودة. ليس سهلًا لأمثالنا أن نعيش هنا أحرارًا وصادقين مع أنفسنا... ألا ترى أنّها مفارقةٌ كبيرة؟ نمضي في الحياة، نكتشف شيئًا فشيئًا من نكون، لكنّنا كلّما اكتشفنا أنفسنا أكثر فقدنا أنفسنا».

فقال تسوكورو بصدق: «أرجو أن تتيسّر أمورُك. فعلًا هذا ما أرجوه لك».

ـ «ألم تعد غاضبًا منّي؟»

صافحه تسوكورو مصافحةً قصيرة، وقال: «لا، لستُ غاضبًا منك. لستُ غاضبًا من أحد».

وفجأةً، أدرك تسوكورو أنّه استخدم الضمير أوماي لمخاطبة أكا. هكذا جاءت الكلمة تلقائيًا في نهاية اللقاء.

سار أكا مع تسوكورو نحو المصعد. وقال وهما يسيران في الرواق: «قد لا تتسنّى لي فرصةٌ أخرى للقائك. لذلك لديَّ شيءٌ أخيرٌ أودُّ أن أقوله لك. ممكن؟»

فأومأ له تسوكورو.

- «هو أوّل ما أقوله في محاضرات تدريب الموظّفين الجدد. أحدّقُ في القاعة وأختار شخصًا، فأطلب منه الوقوف. وأقول له: عندي خبران لك، أحدهما حسنٌ، والآخر سيِّئ. سأبدأ بالخبر السيِّئ. نحن مُضطرُّون إلى نزع أظافر يدك أو قدمَيْك. آسف، لكنّ القرار نهائيّ، ولا يمكن تغييره. ثمَّ أُخرج من حقيبتي مِقرضةً ضخمةً مخيفة، وأعرضها أمام الجميع ببطءٍ كي يراها كلُّ الحضور. ثمَّ أقول: الخبر الحَسن هو أنَّ لديْك الحرِّيّة للاختيار بين نزع أظافر يدَيْك أو قدمَيْك. فماذا تختار؟ أمامك عشر ثوانٍ فقط للاختيار. فإنْ لم تقرِّر، نزعناها كلّها. ثمَّ أبدأ بالعدّ. وبعد حوالي ثماني ثوانٍ، يقول معظمهم: «أظافر قدميّ». فأقول: حَسنٌ إذن. سأستخدم المقرضة هذه لنزعها. ولكنْ أخبرني أوّلًا: لماذا اخترتَ أظافر قدمَيْك، لا يدَيْك؟ فيقول الشخصُ عادةً: «لا أدري. أعتقد أنَّ الخيارَيْن مؤلمان بالقدر نفسه. ولكن بما أنّني مضطرٌّ للاختيار، اخترتُ القدمَيْن. عندها ألتفتُ إليه وأصفّق له بحرارة، وأقول: مرحبًا بك في العالم الحقيقيّ».

حدّق تسوكورو في وجه صديقه صامتًا.

فقال أكا وهو يغمز له ويبتسم: «الكلُّ منّا حرِّيّة الاختيار. وهذا هو مغزى القصّة».

انفتح باب المصعد الفضيّ من دون صوت، وتوادعا.

_12_

عاد تسوكورو إلى شقّته في طوكيو في تمام السابعة مساءً من اليوم نفسه الذي التقى فيه أكا. أخرج أغراضه من حقيبته، وألقى بملابسه في الغسّالة، واستحمّ، ثمّ اتّصل بهاتف سارا. تحوّل الاتّصال إلى البريد الصوتيّ، فترك لها رسالةً صوتيّةً يُخبرها فيها أنّه وصل لتوّه من ناغويا، ويطلب إليها الاتّصال به متى أمكنها ذلك.

انتظر حتى بُعيد الحادية عشرة مساءً، لكنّها لم تتّصل إلّا في اليوم التالي (الثلاثاء)، حين كان يتناول غداءه في كافيتيريا الشركة.

سألتْه: «هل سار كلّ شيءٍ على ما يرام في ناغويا؟»

نهض، وخرج إلى مكانٍ أهدأ في الرواق، ثمّ لخّص لها لقاءه بأو وأكا، وما تحدّث فيه معهما.

قال: «سعيدٌ لأنّي تحدّثتُ إليهما. صرتُ أفهم ما حدث أكثر».

ـ «ممتاز. إذن لم يذهب جهدك سدى».

ـ «هل يمكننا أن نلتقي في مكانٍ ما؟ أودُّ أن أُخبرك بكلِّ ما تحدَّثنا فيه».

ـ «دقيقة. دعني أراجع جدول مواعيدي».

سكتَت خمس عشرة ثانية، فراح تسوكورو ينظر عبر النافذة إلى شوارع شنجوكو. سحبٌ كثيفةٌ تغطِّي السماء، وكأنَّ المطر وشيك.

ـ «لديَّ وقتٌ بعد غدٍ مساء. يناسبك؟»

فقال: «ممتاز. سنتعشَّى معًا إذن». لم يكن في حاجةٍ إلى مراجعة جدوله، فقد كان جدوله فارغًا في كلِّ ليلةٍ تقريبًا.

اتَّفقا على مكان اللِّقاء، ثمَّ أغلقا الخط. فجأةً أحسَّ تسوكورو بتوعُّك، وكأنَّه تناول شيئًا لم يُهضم بعد. لم يحسّ بذلك قبل اتِّصال سارا. هذا مؤكَّد. لكنَّه لم يعرف دلالة ذلك، أو ما إذا كان للأمر أيّ دلالةٍ أصلًا.

حاول أن يستعيد حواره معها بأكبر قدرٍ من الدقَّة. كلامهما، ونبرة صوتها، والطريقة التي سكتت بها. لا شيء يبدو خارج المألوف. أعاد الهاتف إلى جيبه، وعاد إلى الكافيتيريا ليكمل غداءه، لكنَّه كان قد فقد شهيَّته.

*

في عصر ذلك اليوم، وطوال اليوم التالي، زار تسوكورو عدَّة محطَّاتٍ تحتاج إلى مصاعد جديدة، بصحبة موظَّفٍ جديدٍ عُيِّن مساعدًا له. تفحَّص تسوكورو ومساعده المخطَّطات واحدًا بعد الآخر، وقارناها

بالقياسات الفعليّة في المواقع. فوجدا عددًا من الأخطاء والفروقات غير المتوقّعة. قد يكون هناك أكثر من سببٍ أدّى إلى ذلك، لكنّ الأهمّ في ذلك الوقت هو رسم مخططاتٍ دقيقةٍ موثوقةٍ قبل بدء البناء. فاكتشاف الأخطاء بعد البناء أشبه بهبوط القوّات على جزيرةٍ أجنبيّةٍ بالاعتماد على خريطةٍ خاطئة.

فلمّا فرغ تسوكورو ومساعده من القياسات، ذهبا للقاء ناظر المحطّة والتحدُّث إليه عن المشكلات المحتملة التي قد تسفر عنها الإصلاحات. فتغيير موضع المصاعد سوف يغيّر من ترتيب المحطّة بالكامل، ما من شأنه أن يؤثّر في تدفُّق الركّاب، كما أنّه يتعيَّن عليهم التأكُّد من إمكانيّة تنفيذ تلك التعديلات. كانت سلامة الركّاب هي الأولويّة القصوى، لكنّهم في الوقت نفسه لا بدّ من أن يضمنوا قدرة الموظّفين على إتمام مهامهم في المخطّط الجديد. وهنا يأتي دور تسوكورو، إذْ يجمّع تلك العناصر كلّها، ويضع خطّةً للإصلاحات، ثمّ يترجمها إلى مخطّطٍ فعليّ. كانت عمليّةً مضنيةً، لكنّها شديدة الأهمّيّة لضمان سلامة الناس. كان تسوكورو يرتّب ذلك كلّه بصبرٍ وتفانٍ، وهنا تكمن براعته: في تحديد المشكلات، ووضع قائمة التدقيق، والتأكُّد من التعامل مع كلّ نقطةٍ تعاملًا صحيحًا. في الوقت نفسه، كانت هذه فرصةً رائعةً للموظّف الجديد عديم الخبرة كي يتعلّم أصول المهنة في موقع العمل مباشرةً. كان الموظّف (ساكاموتو) قد تخرّج لتوّه في قسم العلوم والهندسة في جامعة واسيدا. شابٌ صموتٌ، له وجهٌ طويلٌ غير مبتسم، لكنّه سريع التعلّم وينفّذ التعليمات. كما أنّه كان ماهرًا في أخذ القياسات. قال تسوكورو في نفسه: لعلّنا ننتفع بهذا الشاب.

أمضيا ساعةً في محطّة قطارٍ سريع مع ناظر المحطّة، يراجعون تفاصيل الإصلاحات. فلمّا حلّ وقت الغداء طلبوا «بنتو»[1] وتناولوا غداءهم في مكتب الناظر. بعد ذلك أخذوا يتحدّثون وهم يشربون الشاي، فأخبرهما الناظر (وهو رجلٌ ودودٌ ممتلئ الجسم في منتصف العمر) قصصًا مدهشةً عمّا رآه في مشواره المهنيّ. كان يطيب لتسوكورو زيارة المواقع وسماع هذه القصص. ثمّ تحوّل الحديث إلى موضوع المفقودات في المحطّات والقطارات، فقصّ عليهما طرفًا من حكايات المفقودات الغريبة التي وجدوها: رماد أموات، وباروكات، وسيقان اصطناعيّة، ومخطوطة روايةٍ (قرأ الناظر شيئًا منها فوجدها مملّة)، وقميصٍ ملطّخ بالدم مطويٍّ بعنايةٍ في صندوق، وأفعى حيّة، وأربعين صورة ملوّنة لفروج نساء، وصَنجةٍ خشبيّةٍ ضخمةٍ تشبه تلك التي يعزف عليها الكهنة البوذيّون أثناء تلاوة السوترات...

قال الناظر: «في بعض الأحيان، نَحَار فيما ينبغي علينا أن نفعله بها. ذات مرّة، وجد صديقٌ لي من نظّار المحطّات حقيبةً بها جنينٌ ميّت. لحسن الحظّ أنّي لم أشهد شيئًا كهذا. ولكنْ ذات مرّةٍ، عُثر في محطّةٍ أديرها على إصبعَيْن محفوظَيْن في الفورمالديهايد»[2].

فقال تسوكورو: «غريبٌ جدًّا».

(1) الـ«بنتو» في الثقافة اليابانيّة تعني الطعام المعدّ في علبةٍ للأكل خارج المنزل، إذْ يحرص الأهل مثلًا على إعداد غداءٍ لأطفالهم يأخذونه معهم إلى المدرسة في علبة البنتو، كما ينتشر هذا بين الكبار أيضًا إذْ يأخذون معهم غداءهم للعمل، أو في الرحلات. وتوجد مطاعم تجهّز الطعام في هذه العلب أيضًا لمن يريد أن يطلبها. (المترجم)

(2) الفورمالديهايد مركّبٌ كيميائيٌ يُستخدم طبّيًا للتعقيم وحفظ العيّنات، إلى جانب استخداماتٍ أخرى. (المترجم)

- «نعم. إصبعان صغيران يعومان في سائل، موضوعَيْن في ما يشبه جرّة المايونيز الصغيرة بداخل حقيبةٍ قماشيَّةٍ جميلة. كأنّهما إصبعا طفلٍ مقطوعان من أصلهما. وبطبيعة الحال، تواصلنا مع الشرطة خشية أن يكون للأمر علاقةٌ بجريمة. فجاءت الشرطة فورًا وأخذت الجرّة».

ارتشف الناظر من الشاي.

- «بعد أسبوعٍ، زارنا الضابط نفسه الذي أخذ الإصبعَيْن، وأعاد استجواب الموظّف الذي وجد الجرّة في دورة المياه. كنت حاضرًا أثناء الاستجواب، وسمعتُ الضابط يقول إنَّ الإصبعَيْن ليسا لطفلٍ، بل لشخصٍ كبيرٍ وفق تحليل المعمل الجنائيّ. وسببُ حجمهما الصغير هو أنّهما إصبعان سادسان ضامران. قال الضابط إنَّ بعض الناس يُولدون بأصابع زائدة، لكنَّ معظم الأهالي يقرّرون التخلّص من هذا التشوُّه فيعملون على بترها حين يكون الطفل ما يزال رضيعًا. وهناك بعض الأشخاص الذين يحتفظون بتلك الأصابع كما هو الحال مع صاحب الإصبعَيْن، إذْ يبدو أنّه قرّر بترهما مؤخّرًا، ثمّ حفظهما في الفورمالديهايد. وقد قدَّر المعمل الجنائيّ أن يكون صاحب الإصبعيْن رجلًا في منتصف العشرينيّات إلى منتصف الثلاثينيّات، لكنّهم لم يستطيعوا تحديد زمن البتر. لا أدري كيف تُنسى الأصابع أو تُرمى في دورة مياه! لكنْ على أيِّ حال، لم يبدُ أنَّ للأمر صلةً بأيِّ جريمة. في نهاية المطاف، احتفظت الشرطة بالإصبعَيْن، ولم يأتهم أحدٌ يسأل عنهما. على حدّ علمي، ما تزال الشرطة تحتفظ بهما في أحد مستودعاتها».

فقال تسوكورو: «يا لها من قصّةٍ غريبة. ما الذي يجعل الشخص يحتفظ بالإصبعَيْن إلى أن يكبر، ثمّ يقرّر فجأةً أن يبترهما؟»

- «لا أدري، لكنّ الموضوع أثار اهتمامي بهذه الظاهرة فبدأتُ أبحث فيها. تُسمّى هذه الحالة علميًا «عنش»، وهناك الكثير من المشاهير الذين وُلدوا بها. وثمّة دليلٌ على أنّ الزعيم الشهير في فترة سنغوكو «هيديوشي تويوتومي» كان لديْه إبهامان، لكنّ الأمر ما يزال غير محسوم. وهناك أمثلةٌ أخرى كثيرة، لعازف بيانةٍ مشهور، وروائيّ، وفنّان، ولاعب بيسبول. حتّى في الأدب، شخصيّة «هانيبال لكتر» من رواية صمت الحملان كانت لها ستّة إصابع. الأمرُ ليس شديد الندرة، بل إنّه يُعدّ في علم الوراثة سمةً سائدة. هناك فروقٌ بين الأعراق، ولكن في العموم من بين كلّ خمسمئة شخصٍ يُولد واحدٌ بستّة أصابع. غير أنّ معظم الأهالي كما قلتُ يقرّرون بترها في العام الأوّل، حين تبدأ المهارات الحركيّة عند الطفل في النموّ. ولهذا السّبب، نادرًا ما نلتقي شخصًا بستّة أصابع. أنا نفسي لم أكن قد سمعتُ بشيءٍ كهذا قطّ إلى أن عُثر على تلك الجرّة في المحطّة».

فقال تسوكورو: «لكنّ الأمر غريب. إنْ كانت هذه سمةً سائدةً في الوراثة، فلماذا لا نرى أعدادًا أكبر من الناس يولدون بهذه الحالة؟»

هزّ الناظر رأسه، وقال: «لا أدري. هذه الأسئلة المعقّدة أكبر من استيعابي».

وهنا فتح ساكاموتو فمه للمرّة الأولى، بتردُّدٍ، وكأنّه يدفع حجرًا ضخمًا يسدّ باب كهف. «هل لي أن أقول رأيي؟»

فوجئ تسوكورو، إذْ لم يكن ساكاموتو من الشباب الذين قد يقولون آراءهم أمام الآخرين. «بالطبع. تفضّل».

- «كثيرًا ما يُخطئ الناس في فهم معنى «سائد». فالسمة السائدة لا تعني انتشارها بالضرورة. هناك أمراضٌ نادرةٌ تحتوي على جينٍ سائد،

لكنَّ هذا لا يجعلها شائعة. ولحسن الحظّ، تبقى معظم هذه الحالات محدودة، نادرة. الجينات السائدة ليست سوى عنصرٍ واحدٍ من بين عناصر كثيرةٍ تؤثّر في الانتشار. من بين العناصر الأخرى بقاءُ الأصلح، والانتخاب الطبيعيّ، وما إلى ذلك. حسبَ تخميني الشخصيّ، فإنَّ الأصابع الستّة في البشر تُعَد زائدةً عن الحاجة، فالأصابع الخمس كافيةٌ وأكثر فعالية. ولهذا السّبب، تبقى الأصابع الستّة في العالم الحقيقيّ أقليّةً ضئيلة، رغم اعتمادها على جين سائد. وبعبارةٍ أخرى، فإنَّ قانون الانتخاب يتفوّق على الجين السائد».

ثمَّ عاد ساكاموتو بعد هذا الاسترسال إلى صمته.

فقال تسوكورو: «كلامٌ منطقيٌّ. ولديَّ شعورٌ بأنَّ للأمر علاقةً بمعياريَّة نظام العدّ العالمي، انتقالًا من النظام الإثنيْ عشري إلى النظام العشري».

ـ «نعم، ربّما كان هذا استجابةً لمسألة الأصابع الستّ والخمس، أو الـ«ديجِت»[1] كما أشرت».

فسأله تسوكورو: «ولكنْ من أين لك بكلّ هذه المعلومات؟»

قال ساكاموتو ووجنتاه تحمرّان: «درستُ مقرّرًا في الوراثة في الجامعة. كان لديَّ اهتمامٌ شخصيٌّ بالأمر».

فقال الناظر بضحكةٍ مرحة: «إذن فقد نفعك مقرّر الوراثة حتّى بعد أن التحقت بشركةٍ لسكك الجديد. التعليم شيءٌ لا يمكن الاستهانة به».

(1) في اللغة الإنجليزيّة تشير كلمة «tigid» إلى الإصبع وإلى الخانة العشريّة أيضًا. (المترجم)

التفت تسوكورو إلى الناظر، وقال: «ولكن يبدو أنّ الأصابع الستّة قد تفيد عازف البيانة».

- «الظاهرُ أنّها لا تفيد. يوجد عازفٌ بستّة أصابع قال إنّ إصبعه السادس يشوّشه. وكما قالَ السيّد ساكاموتو، فإنّ تحريك ستّة أصابع بتناسقٍ وسلاسةٍ قد يكون أكبر من قدرة البشر. لعلّ الأصابع الخمسة هي العدد الصحيح».

فسأله تسوكورو: «وهل هناك فائدةٌ للأصابع الستّة؟»

- «وفقًا لما قرأتُه، ففي العصور الوسطى في أوروبا، كانوا يعتقدون أنّ المولود بستّة أصابع ساحرٌ أو ساحرة، فيحرقونهم. وفي أحد البلدان، خلال فترة الصليبيّين، كانوا يقتلون أيّ شخصٍ لديْه ستّة أصابع. لا أعلم ما إذا كانت هذه القصص صحيحةً أم لا. أمّا في بورنيو، فالأطفال المولودون بستّة أصابع يُعاملون تلقائيًا على أنّهم شامانيّون. لكنّ هذا قد لا يُحسب فائدةً».

- «شامانيّون؟»

- «في بورنيو فقط».

انقضى وقتُ الغداء، فانتهى حوارُهم. شكر تسوكورو الناظر على الغداء، وعاد مع ساكاموتو إلى الشركة.

كان تسوكورو يدوّن ملاحظاته على المخطّطات، ثمّ تذكّر فجأةً تلك القصّة التي رواها له هايدا قبل سنوات، عن أبيه. تذكّر عازف البيانة في جبال أويتا، وكيف وضع حقيبةً قماشيّةً فوق البيانة قبل أن يعزف. أيمكن أن يكون بداخل الحقيبة إصبعان سادسان، محفوظان

في الفورمالديهايد، داخل جرّة؟ لعلّه لم يبترهما إلّا بعد أن كبر، وظلّ يحمل الجرّة معه أينما ذهب، ثمّ يضع الحقيبة فوق البيانة تعويذةً، قبل أن يعزف.

كان هذا محض تخمين بالطبع، لا أساس له. وقد حدث (إن كان قد حدث فعلًا) قبل أكثر من أربعين سنة. غير أنّ تسوكورو كلّما فكّر في الأمر ازداد شعوره بأنّ هذه هي القطعة الناقصة في أحجيّة القصّة. هكذا جلس تسوكورو إلى طاولة الرسم حتّى المساء، يمسك بقلم الرصاص، ويقلّب الفكرة.

في اليوم التالي، التقى سارا في «هيرو». ذهبا إلى حانةٍ صغيرةٍ في مكانٍ معزول، فقد كانت سارا خبيرةً في الحانات والمطاعم الصغيرة المعزولة في كلّ أنحاء طوكيو. حكى لها تسوكورو قبل أن يأكلا كيف التقى صديقَيْه القديمَيْن في ناغويا، وما تحدّثوا فيه. لم يكن سهلًا عليه أن يلخّص ما حدث، فاستغرقه الأمر وقتًا طويلًا حتى يحكي لها كلّ شيء. كانت سارا تنصت باهتمام، وتقاطعه بسؤالٍ بين الحين والآخر.

ـ «إذنْ فقد قالت شيرو للبقيّة إنّها باتت في شقّتك في طوكيو، وإنّك خدّرتَها واغتصبتها؟»

ـ «نعم، هذا ما قالته».

«ووصفتْ كلّ شيءٍ بالتفصيل وبكلامٍ منطقيّ، رغم أنّها كانت شديدة الانطوائيّة ودائمًا ما تحاول أن تتجنّب الحديث في الجنس؟»

ـ «هذا ما قاله أو».

ـ «وقالت أيضًا إنّ لك وجهَيْن؟»

ـ «قالت إنّ لي جانبًا شرّيرًا مستورًا، منزوعًا عن الجانب الذي يعرفه الجميع».

قطبتْ سارا جبينها، وتفكّرت في الأمر برهة.

ـ «ألا يذكّركَ هذا بشيء؟ ألم يجمع بينك وبين شيرو قطّ موقفٌ حميميٌّ خاصّ؟»

فهزَّ رأسه، وقال: «لا. لم يحدث قطّ. كنتُ أحرص دائمًا على ألّا أسمح بحدوث شيءٍ كهذا؟»

ـ «تحرص دائمًا؟»

ـ «كنتُ أحاول ألّا أنظر إليها بوصفها من الجنس الآخر. وأتجنّب الاختلاء بها قدر الإمكان».

ضيّقتْ سارا عينَيْها وأمالت رأسها لحظةً، وقالت: «وهل برأيك كان الآخرون أيضًا حذرين مثلك؟ أقصد أنّ لا ينظر الولدَان إلى الفتاتَيْن بوصفهما من الجنس الآخر، والعكس بالعكس؟»

ـ «لا أعرف ما كان يدور في دواخلهم، ولكنْ كما قلتُ سابقًا، فقد كان هناك ما يشبه الاتّفاق الضمنيّ بيننا على أن نتجنّب العلاقات العاطفيّة داخل مجموعتنا. كنّا مصمّمين على ذلك».

ـ «ولكنْ ألا ترى أنّ الأمر غير طبيعيّ؟ إذا تقارب الأولاد والبنات في ذلك العمر، وقضوا أغلب وقتهم معًا، فمن الطبيعي أن يميل بعضهم إلى بعضٍ جنسيًّا».

ـ «كنتُ بالطبع أودُّ أن أتّخذ حبيبةً وأخرج معها بمفردنا. وبطبيعة الحال، كنت أرغب في الجنس. كأيّ شخصٍ آخر. ولم يمنعني أحدٌ

من أن أتّخذ حبيبةً من خارج دائرتنا الصغيرة، لكنّ مجموعتنا في ذلك الوقت كانت أهمّ شيءٍ في حياتي. لم تكن تخطر في بالي فكرةُ أن أخرج وأقضي وقتًا مع شخصٍ آخر».

ـ «وهذا لأنّك شعرتَ بانسجامٍ رائعٍ في المجموعة؟»

أومأ لها تسوكورو، وقال: «كنتُ أشعر وأنا معهم بأنّي جزءٌ لا يتجزّأ من مجموعٍ كامل. شعورٌ مميّزٌ لم أجده قطّ في أيّ مكانٍ آخر».

ـ «ولذلك تعيّنَ عليكم جميعًا أن تتعالَوا على ميولكم الجنسيّة. كي تحافظوا على الانسجام بينكم. كي لا تكسروا الدائرة المكتملة».

ـ «حين أفكّر في الموضوع الآن أرى أنّه لم يكن طبيعيًّا. أمّا في ذلك الوقت، فكان كلّ شيءٍ يبدو طبيعيًّا تمامًا. كنّا ما نزال مراهقين، نتلمّس تجاربنا الأولى. لم يكن بإمكاننا آنذاك أن ننظر بعينٍ موضوعيّةٍ إلى ما نحن فيه».

ـ «بعبارةٍ أخرى، كنتم أسرى في تلك الدائرة المكتملة. هل يمكن أن تنظر إلى الأمر على هذا النحو؟»

فكّر تسوكورو، ثمّ قال: «قد يكون هذا صحيحًا، لكنّنا كنّا سعداء بأسْرنا. بل إنّي حتى الآن لا أشعر بالندم».

ـ «مدهش».

كانت سارا تريد أن تعرف أيضًا عن زيارة أكا لشيرو في هاماماتسو قبل ستّ أشهر من مقتلها.

قالت: «رغم اختلاف الأمر، إلّا أنّه يذكّرني بزميلةٍ لي من المدرسة الثانويّة. كانت جميلةً ممشوقة القوام، من عائلةٍ ميسورة، قضت جزءًا من

نشأتها في الخارج، وتتحدّث الإنجليزيّة والفرنسيّة بطلاقة، والأولى دائمًا على صفّها. كانت محطّ أنظار الجميع ومحلّ احترامهم، في كلّ ما تفعله. وقد فُتنت بها كلّ التلميذات الأصغر منها. كنّا في مدرسة فتياتٍ خاصّة، حيث يمكن لهذا النوع من الإعجاب الذي يبديه الأصغر سنًّا أن يشتدّ جدًّا».

أومأ تسوكورو.

ـ «التحقتْ بجامعة شيشين، جامعة الفتيات المعروفة، ثمّ درستْ في فرنسا سنتَيْن. وبعد عامَيْن من عودتها تسنّى لي أن أقابلها، فأُسقط في يدي. لا أعرف كيف أصف لك الأمر، لكنّها كانت شديدة الشحوب، مثل شيءٍ تعرّض لأشعة شمسٍ قويّةٍ فترةً طويلة، فبهت لونُه. كانت ملامحها هي نفسها، وما تزال جميلة، ممشوقة القوام. لكنّها شاحبةٌ باهتة. شعرتُ بأنّه يتعيّن عليّ أن ألتقط جهاز التحكّم بالتلفاز وأعدّل من حدّة الألوان. كان شيئًا غريبًا. يصعب على المرء أن يتخيّل كيف يمكن لإنسانٍ أن ينحسر هكذا في غضون سنواتٍ قليلة».

فرغتْ سارا من طعامها، وانتظرتْ قائمة الحلويّات.

ـ «لم نكن مقرّبتَيْن، ولكنْ كانت بيننا عدّة صديقاتٍ مشتركات، فكنتُ أصادفها من وقتٍ إلى آخر. وفي كلّ مرّةٍ أراها كانت تزداد شحوبًا. ثمّ بدا واضحًا للجميع أنّها لم تَعُد جميلة، لم تَعُد جذّابة. وبدتْ كأنّما قلّ ذكاؤها أيضًا؛ فقد كانت المواضيع التي تتحدّث فيها مملّةً، وآراؤها مبتذلة. كانت قد تزوّجت في سنّ السابعة والعشرين من مسؤولٍ حكوميّ، مُضجرٍ ضحل التفكير بطبيعة الحال، ولكنْ بدا أنّها لم تستوعب زوال جمالها وجاذبيّتها، لم تفهم أنّها لم تَعُد محطّ الأنظار. وظلّت تتصرّف كأنّها ملكة، على نحوٍ يثير الشفقة حين تنظر إليها».

جاء النادل بقائمة الحلويّات، فتفحّصتْها سارا جيّدًا. وبمجرّد أن قرّرت ما تريد طوت القائمة ووضعتْها على الطاولة.

ـ «شيئًا فشيئًا، كفّت صديقاتها عن زيارتها، فقد آلمتهنّ رؤيتها على تلك الحال. ربّما لم يكن ما شعرن به ألمًا، بقدر ما كان خوفًا، ذلك الخوف الذي ينتاب معظم النساء. الخوف من الوصول إلى مرحلة ما بعد الجمال والجاذبيّة، حين لا تدرك المرأة ذلك أو ترفض أن تتقبّله، وتستمرّ في سلوكها السابق، إلى أن ينهرها الناس أو يضحكون عليها في غيبتها. لقد وصلتْ إلى تلك المرحلة أسرع من الأخريات. هذا ما حدث فعلًا. ففي مراهقتها، تفجّر كلّ ما فيها من جمالٍ ومَلكات، كحديقةٍ في فصل الربيع، لكنّها سرعان ما ذبلت مع الوقت».

جاء النادل ذو الشعر الأشيب وطلبتْ سارا كعكة ليمون. كان تسوكورو منبهرًا بها؛ إذْ لا تفوّت طبق الحلوى أبدًا، لكنّها مع ذلك تحافظ على قوامها الرشيق.

ـ «أتصوّر أن تكون لدى كورو تفاصيل أكثر يمكنها أن تُخبرك بها عن شيرو. فمهما بلغ انسجام مجموعتكم وتماسكها، تظلُّ هناك أشياء لا تُقال إلّا بين الفتيات. كما أخبرك أو. أحاديثهنّ لا تخرج من عالم الفتيات أبدًا. قد تكون مجرّد ثرثرةٍ أحيانًا، لكنّها تحوي كذلك أسرارًا نحرص على الحفاظ عليها، وبالتّحديد كي لا يعرف الفتيان عنها».

أخذتْ سارا ترمق النادل الواقف بعيدًا، كأنّها ندمتْ على طلب كعكة الليمون. ثمّ بدت وكأنّما غيّرت رأيها، فالتفتتْ مرّةً أخرى إلى تسوكورو.

ـ «هل كانت هناك أحاديث خاصّة كهذه بينكم أنتم الأولاد الثلاثة؟»

ـ «لستُ أذكر».

ـ «عمَّ كنتم تتحدَّثون إذن؟»

عمَّ كنَّا نتحدَّث؟ فكّر تسوكورو، لكنَّه لم يتذكَّر شيئًا. كان متأكّدًا من أنّهم تحدَّثوا كثيرًا، وبحماسٍ شديد، وكان يبوح بعضهم إلى بعض، لكنَّه لم يستطع أن يتذكَّر شيئًا.

ـ «فعلًا، لا أذكر».

فقالت سارا مبتسمةً: «غريب».

ـ «يُفترض أن يحقّ لي أخذُ إجازةٍ في الشهر القادم. أفكِّر في الذهاب إلى فنلندا. استأذنتُ رئيسي، فأذِن لي».

ـ «أخبرني حين تحدِّد التواريخ. يمكنني أن أرتِّب لك التذاكر وحجوزات الفندق وما إلى ذلك».

ـ «أشكرك».

رفعتْ سارا كأسها وشربتْ رشفة ماء، ثمَّ مرَّرت إصبعها على حافة الكأس.

قال تسوكورو: «حدِّثيني عن سنوات المدرسة الثانويَّة».

ـ «لم أكن فتاةً بارزة. كنتُ في فريق كرة اليد. لم أكن جميلة، ودرجاتي متوسِّطة».

ـ «تتواضعين، أليس كذلك؟»

فضحكتْ وهزَّت رأسها. «التواضع فضيلةٌ رائعة، لكنَّها لا تلائمني. هي الحقيقةُ فعلًا، فلم أكن بارزةً قطّ. لا أظنّ أنّي انسجمتُ مع المنظومة التعليميَّة. لم أكن التلميذة المدلَّلة للمعلّمات، ولم يكن لديَّ معجبات من التلميذات الأصغر منّي. لم يكن لي حبيب، وكنتُ أعاني

من حبوب الشباب. كانت لديَّ كلّ أسطوانةٍ تتخيّلها لفرقة «وام»، ودائمًا ما كنت أرتدي الملابس الداخليّة البيض التي تشتريها لي والدتي. ولكنْ كانت لديَّ صديقتان. لم نكن مقرَّبات على النحو الذي كنتم أنتم عليه، لكنّنا كنّا صديقات عزيزات نبوح لبعضنا بكلّ شيء. وقد ساعدتاني على تخطّي سنوات المراهقة السخيفة».

ـ «هل ما يزال التواصل بينكم؟»

أومأت، وقالت: «نعم، ما نزال صديقات. كلاهما متزوّجتان ولديْهما أطفال، ولذلك لا نلتقي كثيرًا، لكنّنا نلتقي لتناول العشاء بين فترةٍ وأخرى، ونتحدّث ثلاث ساعاتٍ بلا توقُّف. نقول كلّ شيء».

أحضر النادل كعكة الليمون وقهوة «إسبرسو»، فانقضّت سارا عليها فورًا. بدا أنّ الكعكة كانت خيارًا موفَّقًا. نقّل تسوكورو نظره بين سارا وهي تأكل، والبخار الصاعد من قهوتها.

سألتْه: «هل لديْك أيّ أصدقاءٍ الآن؟»

ـ «لا. لا يوجد أحدٌ يمكن أن أصفه بالصديق».

أصدقاؤه الأربعة في ناغويا فقط هم من كان يمكن أن يصفهم بذلك. وبعدهم، حلّ هايدا فترةً قصيرةً في مرتبةٍ قريبةٍ منهم.

ـ «ألا تشعر بالوحدة من دون أصدقاء؟»

ـ «لا أدري. ولكنْ حتّى لو كان لي أصدقاء، لا أعتقد أنّي سأستطيع أن أبوح لهم بأسراري».

ضحكتْ سارا. «هذا أمرٌ ضروريٌّ عند النساء. رغم أنّ البوح بالأسرار فائدةٌ واحدةٌ فقط من فوائد الصديق».

- «بالطبع».

«هل تريد قطعةً من الكعكة؟ إنّها لذيذة».

- «لا، شكرًا».

أكلتْ سارا القطعة الأخيرة، ثمّ وضعتْ شوكتها على الطاولة ومسحت فمها بمنديلها، وبدت تائهةً في أفكارها. ثمّ رفعتْ رأسها أخيرًا ونظرت إلى تسوكورو.

- «هل يمكن أن نذهب إلى شقّتك بعد أن ننتهي؟»

فقال تسوكورو: «بالطبع». وأشار للنادل بأن يحضر الفاتورة. ثمّ سألها: «فريق كرة اليد؟»

- «لا تسألني أرجوك».

فلمّا عادا إلى الشقّة، تعانقا، وكان تسوكورو مبتهجًا بمطارحتها الغرام مرّةً أخرى، وبأنّها أعطته هذه الفرصة. جلسا أوّلًا على الأريكة يتلمّس كلٌ واحدٍ منهما الآخر، ثمّ ذهبا إلى الفراش. كانت سارا ترتدي ملابس داخليّة سودَ مخرّمةً تحت فستانها الأخضر.

فسألها تسوكورو: «هل كانت والدتك تشتري لكِ هذه أيضًا؟»

فضحكتْ، وقالت: «أحمق. أشتريها بنفسي طبعًا».

- «ولا أرى حبوب شبابٍ أيضًا».

- «ماذا كنت تتوقّع أن ترى؟»

ثمّ مدّت يدها وأمسكت قضيبه المنتصب.

لكنّه حين حاول أن يولج فيها، ارتخى قضيبُه. دُهش تسوكورو وحار كثيرًا، فلم يسبق أن حدث له هذا من قبل. كلُّ شيءٍ من حوله أصبح هادئًا. صمتٌ مطبقٌ في أذنيْه، ما عدا صوت النبض في قلبه.

فقالت سارا وهي تمسح على ظهره: «لا تنزعج. احضني. هذا يكفي».

- «غريب. في هذه الأيّام، لم أكن أفكّر في شيءٍ إلّا هذا».

- «لعلّك كنت تتطلّع إلى الأمر أكثر ممّا ينبغي. ولكنْ يسعدني أنّك كنت تفكّر فيّ على هذا النحو».

استلقيا في السرير عاريَيْن، يتلمّس كلٌّ منهما الآخر ببطء، لكنّ شيأه لم ينتصب. حان وقتُ عودتها إلى البيت، فارتديا ملابسهما في صمت، وأوصلها إلى المحطّة. في الطريق، اعتذر لها عمّا حدث.

فقالت سارا بلطف: «لا شيء يستدعي قلقك». أمسكت يده بيدها الصغيرة الدافئة.

فشعر بأنّه لا بدّ من أن يقول شيئًا، لكنّه لم يستطع. وظلّتْ يده في يدها.

- «أعتقد أنّ هنالك شيئًا ما يزال يزعجك. عودتك إلى ناغويا ولقاء صديقَيْك القديمَيْن بعد تلك السنوات، والحديث معهما، ومعرفة كلّ تلك التفاصيل دفعةً واحدة.. لا بدّ من أنّها أثّرت فيك. أكثر ممّا تدرك».

كان يشعر بالحَيرة فعلًا. ثمّة بابٌ كان مغلقًا فترةً طويلة، وانفتح، فهرعت إلى الداخل حقيقةٌ كان يتجنّب النظر إليها، حقيقةٌ لم يكن يتوقها. كانت تلك الحقائق ما تزال مبلبلةً في عقله، لا تستقرّ.

- «هنالك شيءٌ ما يزال عالقًا في داخلك. شيءٌ لا تستطيع أن تتقبّله. شيءٌ يعيق التدفّق الطبيعيّ لعواطفك. هذا ما يبدو لي».

فكّر تسوكورو فيما قالته. «تقصدين أنّ هذه الرحلة إلى ناغويا لم تجب عن كلّ الأسئلة بعد؟»

فقالت واكتسى وجهها تعبيرًا جادًّا: «نعم، يبدو هكذا. بعد أن اتّضحت لك بعض الأمور، حدث تأثيرٌ عكسيّ.. يزيد من أهمّيّة الحقائق المفقودة».

تنهّد تسوكورو. «لا أدري ما إذا كنتُ قد رفعتُ الغطاء عن شيءٍ لم يكن يجدر بي أن ألمسه».

ـ «مؤقّتًا فقط. قد تجد ردّ فعلٍ عكسيٍّ فترةً من الوقت، لكنّك على الأقلّ تقترب من حلّ اللغز. وهذا هو المهمّ. استمرّ، وأنا واثقةٌ من أنّك ستكتشف الحقائق الناقصة».

ـ «لكنّ هذا قد يستغرق وقتًا طويلًا».

تمسّكتْ بيده، بقبضةٍ فاجأتْه قوّتُها.

ـ «خذ وقتك. ما أريد أن أعرفه الآن أكثر من أيِّ شيءٍ آخر هو ما إذا كنتَ راغبًا في علاقةٍ طويلةٍ بي».

ـ «بالطبع. أودُّ أن تستمرَّ علاقتنا طويلًا».

ـ «حقًّا؟»

فقال بحزم: «نعم، بالتّأكيد».

ـ «إذن، لا مشكلة عندي. ما يزال لديْنا وقت، وسوف أنتظر. في أثناء ذلك، هنالك شيئان أودُّ أن أتولّى أمرهما».

ـ «تتولّين أمرهما؟»

لم تجبه، لكنّها ابتسمت له ابتسامةً غامضة.

ـ «أريدك أن تذهب للقاء كورو في فنلندا بأسرع ما يمكن. قل لها ما في قلبك. وأنا واثقةٌ من أنّها ستُخبرك بشيءٍ مهمّ. مهمٍّ جدًّا. لديَّ حدسٌ بذلك».

استبدَّت بعقل تسوكورو أفكارٌ كثيرةٌ غير مرتَّبةٍ وهو يمشي عائدًا إلى شقَّته. وتملَّكه شعورٌ غريب، كأنَّ الزمن انقسم في مرحلةٍ معيَّنةٍ إلى فرعَيْن. فكَّرَ في شيرو، وهايدا، وسارا. كان الماضي والحاضر، والذكريات والمشاعر، تمضي بالتساوي معًا، جنبًا إلى جنب.

قال في نفسه: **لعلَّ هنالك شيئًا غير سويٍّ فيّ، في أعماقي. ربَّما كانت شيرو محقَّةً، وبالفعل لديَّ شيءٌ منزوعٌ عن جانبي الخارجيّ.** شيءٌ يشبه الجانب البعيد من القمر، ذلك الجانب الذي يظلّ مغلّقًا بالظلام إلى الأبد. لعلّه في مكانٍ مختلفٍ وزمانٍ مختلفٍ (من دون أن يدرك) اغتصب شيرو بالفعل، وحطَّم قلبها. بخشونةٍ ووحشيَّة. ولعلّ ذلك الجانب المستور المعتم يطغى يومًا ما على الجانب الخارجيّ ويلتهمه تمامًا. كاد تسوكورو أن يعبر الشارع رغم الإشارة الحمراء، فضغط سائق التاكسي على المكابح بقوَّة، وصاح بشتيمة.

فلمَّا عاد إلى شقَّته ارتدى منامته واستلقى على سريره قُبيل منتصف الليل. عندها، انتصب شيؤه، وكأنَّه أخيرًا تذكَّر ما ينبغي له فعله. كان انتصابًا قويًّا هائلًا، إلى حدٍّ لا يُصدَّق. تنهَّد تسوكورو وهو يتأمَّل تلك المفارقة. فنهض عن سريره، وأشعل الضوء، وتناول زجاجة «كتي سارك» من الرفّ، وصبَّ قليلًا في كأسٍ صغير. وفتح كتابًا يقرؤه. بعد الواحدة صباحًا، أمطرت السماء فجأةً، وانطلق عواء الريح فيما يشبه العاصفة، بقطرات مطرٍ كبيرةٍ ترشق النافذة.

قال في نفسه: يُفترض أنِّي اغتصبتُ شيرو في هذا السرير. خدَّرتُها، ثمَّ مزَّقتُ ملابسها، وهجمتُ عليها. كانت عذراء، فتألَّمت كثيرًا، ونزفتْ. وعندها تغيَّر كلُّ شيء. قبل ستّ عشرة سنة.

كان يستمع إلى المطر وهو يدقّ النافذة، فيما تدور تلك الأفكار في رأسه، فبدأ يشعر بغرفته كأنّها مكانٌ غريب. وكأنّ الغرفة امتلكت إرادةً خاصّةً بها. والبقاء في الغرفة لا يسفر إلّا عن صرف أيّ قدرةٍ على التمييز بين الواقع والخيال. ففي مستوى من الواقع، لم يلمس حتّى يد شيرو في حياته. وفي مستوى آخر، اغتصبها بوحشيّة. تُرى أيُّ واقعٍ يدخل الآن؟ كلّما فكّر في الأمر ازدادت حيرته.

كانت الساعة قد بلغت الثانية والنصف صباحًا حين نام.

-13-

كان تسوكورو يذهب في عطلات الأسبوع إلى مسبح الصالة الرياضيَّة، على بعد عشرة دقائق بالدرّاجة من شقَّته. ودائمًا ما يسبح على صدره بسرعةٍ محدَّدة، فيكمل ألفًا وخمسمئة مترٍ في 32 ـ 33 دقيقة. يدع السبّاحين الآخرين يتخطّونه، فلم تكن من طبيعته أن ينافس الآخرين. وكالعادة، وجد في ذلك اليوم سبّاحًا يقارب سرعته، فانضمَّ إليه في المسار نفسه. كان هذا شابًا نحيلًا يرتدي لباس سباحةٍ احترافيًا، وقبّعةً سوداء، ونظّارة سباحة.

كانت السباحة تخفّف من إرهاقه المتراكم، وترخي عضلاته المشدودة، وتهدّئ أعصابه أكثر من أيِّ مكانٍ آخر. هكذا كان يحافظ على توازنٍ هادئٍ بين عقله وجسده بالسباحة نصف ساعةٍ، مرَّتَيْن في الأسبوع. علاوةً على أنّه وجد الماء مكانًا ممتازًا للتّفكير، واكتشف أنّه نوعٌ من ممارسات «الزنّ» في التأمُّل. فما إن يَدخل في إيقاع السباحة حتّى تأتيه الأفكار جريًا، مثل كلبٍ طليق.

قال لسارا ذات مرّة: «السباحة رائعة. تكاد تساوي روعة الطيران».

ـ «وهل جرّبتَ الطيران من قبل؟»

ـ «ليس بعد».

خطرت له سارا وهو يسبح. تصوّر وجهها، وجسدها، وعجزه في آخر مرّة. وتذكّر عدّة أشياء قالتها له. عن الشيء العالق في داخله، ذاك الذي يعيق التدفّق الطبيعيّ لمشاعره.

فحدّث نفسه بأنّها قد تكون محقّة.

كانت حياتُه تسير (ظاهريًّا على الأقل) على ما يرام، من دون أيِّ مشكلاتٍ تُذكر. فقد تخرّج في كلّيّة هندسةٍ معروفة، وحصل على وظيفةٍ جيّدةٍ في شركةٍ للسكك الحديدية، ويحظى بسمعةٍ ممتازةٍ في الشركة، علاوةً على أنّه كسب ثقة رئيسه. ولم يكن يعاني من أيِّ مشكلاتٍ ماليّة. فحين تُوفّي والده، ورث عنه مبلغًا كبيرًا، وشقّةً من غرفةٍ واحدةٍ في موقعٍ جيّدٍ قرب مركز المدينة. لم تكن لديْه قروض. قليل الشرب، لا يدخّن، ولا يمارس هواياتٍ مُكلفة. في الواقع، لم يكن يصرف إلّا القليل جدًّا، لا لأنّه يحاول التقشّف في حياته، بل لأنّه لا يعرف كيف يصرف. لم يكن في حاجةٍ إلى سيّارة، أو إلى ملابس أكثر ممّا لديْه. صحيحٌ أنّه يشتري كتبًا وأقراصًا مدمجةً من وقتٍ إلى آخر، لكنّ هذا لم يكن يكلّفه كثيرًا. كان يفضّل أن يطبخ بنفسه، ويغسل أغطية السرير بنفسه، ويكويها.

تسوكورو في العموم شخصٌ هادئ، غير اجتماعيٍّ بطبعه. لم يكن يعتزل الناس، بل كانت علاقاته جيّدةً بالآخرين. لم يكن يخرج بحثًا عن النساء، لكنّه لم يعدم أن تكون له حبيبات. كان عازبًا، مقبول الشكل،

متحفِّظًا، مهندمًا، وعادةً ما تبدأ النساء بالكلام معه، أو يعرّفه الآخرون عليهنّ (كما حدث مع سارا).

في الظاهر، كان تسوكورو يستمتع بحياة عزوبيَّةٍ مريحة، وهو في سنّ السادسة والثلاثين. محافظٌ على صحَّته، ووزنه، ولم يعاني من أيّ أمراضٍ قطّ. معظم الناس قد يرون أنَّ حياته تسير بسلاسةٍ، من دون نكساتٍ. لا شكَّ أنَّ هذا كان رأي والدته وشقيقتَيْه. كُنَّ يقلن له: «تستمتع جدًّا بحياة العزوبيَّة، لذلك لا تشعر بالرَّغبة في الزواج». وهذا ما دعاهنّ إلى الكفّ عن محاولات ترتيب زيجةٍ له. ويبدو أنَّ زميلاته في العمل وصلن إلى الخلاصة نفسها.

لم يشعر تسوكورو بنقصٍ قطّ، أو يأسى لأنَّه لم يستطع الحصول على شيءٍ ما. لذلك لم يعرف قطّ متعة الرَّغبة الشديدة في شيءٍ ما والمعاناة من أجل الحصول عليه. ربَّما كان أصدقاؤه الأربعة أثمن ما كان لديْه في حياته. على أنَّه لم يختر تلك الصداقة، بل جاءت إليه هكذا، هبةً من اللّـه. وكما جاءت من دون إرادةٍ منه، ذهبتْ. أو بالأحرى سُلبت منه.

كانت سارا واحدةً من أشياء قليلةٍ يشعر بالرَّغبة فيها. لم يكن واثقًا تمام الثقة من ذلك، لكنَّه كان منجذبًا إليها بقوَّة. تزداد رغبتُه فيها كلَّما رآها، وكان مستعدًّا للتضحية من أجل الحصول عليها. لم يسبق له أن شعر بعاطفةٍ عارمةٍ كهذه. ورغم ذلك كلّه، لم يعرف لماذا عَجز عن مطارحتها الغرام. ثمَّة شيءٌ أعاق تلك الرَّغبة. قالت له سارا: خُذ وقتك. بإمكاني أن أنتظر. لكنَّ الأمور ليست بتلك البساطة؛ فالبشر في حركةٍ مستمرَّةٍ، لا يستقرُّون أبدًا، ولا أحد يعرف ما سوف يحدث لاحقًا.

تلك هي الأفكار التي كانت تدور في عقله وهو يسبح في ذلك المسبح ذي الخمسة والعشرين مترًا. كان يسبح بسرعةٍ ثابتةٍ كي يحافظ على تنفُّسه، يحرِّك رأسه إلى جانبٍ واحد، ويأخذ نفَسًا قصيرًا، ثمَّ يزفره تحت الماء. ومع استمراره في السباحة، تُصبح تلك العمليَّة تلقائيَّة، فعدد الضربات التي يحتاج إليها لينهي كلّ شوطٍ يكون نفسه في كلّ مرَّة. هكذا سلَّم نفسه لإيقاع السباحة، لا يعدّ إلَّا عدد اللفتات.

ثمَّ فجأةً، لاحظ أنَّه يعرف باطن القدمَيْن في السبّاح الذي أمامه. كان باطن قدمَي هايدا بالضبط. ازدرد لعابَه، وفقد إيقاعه، واستنشق الماء. كان قلبُه يدقّ بقوَّةٍ، وظلّ برهةً هكذا إلى أن هدأتْ أنفاسُه. قال في نفسه لا بدَّ من يكون باطن قدمَي هايدا. الحجم والشُّكل نفسه بالضبط. ركلته البسيطة الواثقة هي نفسها، بل حتَّى الزبد الذي يخرج من الماء، صغيرًا لطيفًا، هو نفسه. كان يثبِّت عينَيْه دائمًا على باطن قدمَيْ هايدا حين يسبحان، مثل شخصٍ يقود سيَّارةً في اللَّيل ولا يحوّل عينَيْه عن الأضواء الخلفيَّة في السيَّارة التي أمامه. كانت تلكما القدمان محفورتَيْن في ذاكرته.

توقَّف تسوكورو عن السباحة وخرج من المسبح، فجلس فوق سدَّة القفز، في انتظار أن يستدير السبّاح ويعود أدراجه.

لكنَّه لم يكن هايدا. كانت القبّعة والنظارة تخفي ملامحه، غير أنَّ تسوكورو أدرك الآن أنَّ الرجل كان طويلًا جدًّا، مفتول العضلات في كتفَيْه. حتَّى رقبته كانت مختلفةً تمامًا. كان صغير السنّ، ربَّما ما يزال طالبًا جامعيًّا. أمَّا هايدا فيفترض أن يكون في منتصف الثلاثينيَّات.

عَرف تسوكورو أنَّ هذا ليس هايدا، لكنَّ قلبه لم يهدأ. جلس على مقعدٍ بلاستيكيٍّ إلى جانب المسبح ينظر إلى ذلك الشاب وهو يسبح.

كان قوامُه يشبه قوام هايدا أيضًا، بل يكاد يطابقه. يقفز في الماء من دون رشَّةٍ، ومن دون صوتٍ عالٍ. يرتفع مرفقاه في جمالٍ وسلاسةٍ، فيدخل ذراعاه في الماء في هدوء، بإبهامَيْه قبل الأصابع الأخرى. وكلُّ هذا يحدث في سلاسةٍ شديدة. بدا أنَّ السمة الأساسيَّة لأسلوب سباحته هي الحفاظ على هدوءٍ متعمِّق. رغم ذلك، ومهما تشابه الأسلوبان، إلَّا أنَّه لم يكن هايدا. توقَّف الشاب أخيرًا، وخرج من المسبح. خلع نظَّارته وقبَّعته، وفرك شعره القصير بالمنشفة وهو يسير مبتعدًا. كان وجهه مهزولًا، لا يشبه وجه هايدا في شيء.

قرَّر تسوكورو أن يكتفي بذلك القدر، فذهب إلى غرفة الملابس واستحمّ، ثمّ امتطى درَّاجته وعاد إلى شقَّته، فتناول فطورًا بسيطًا. خطر له خاطرٌ مفاجئٌ وهو يأكل: هايدا واحدٌ من الأشياء التي تعيقني من الداخل.

حصل تسوكورو على الإجازة التي يحتاج إليها للسفر إلى فنلندا، فقد تراكم رصيد إجازاته، مثل ثلجٍ تراكم فوق إفريز نافذة. كلُّ ما قاله رئيسه هو: «فنلندا؟» ونظر إليه نظرة ارتياب. فأخبره تسوكورو أنَّ له صديقةً من أيَّام المدرسة تعيش في فنلندا، ويودُّ أن يزورها. كان يخشى ألَّا تتسنَّى له فرصٌ أخرى في المستقبل للسفر إلى فنلندا.

فسأله رئيسه: «وماذا يوجد في فنلندا؟»

عدَّد له تسوكورو ما خطر في باله من أسماء فنلنديَّة معروفة: «سيبيليوس، وأفلام أكي كاوريسماكي، وماريميكو، ونويا، وومومين»[1].

(1) جان سيبيليوس: موسيقيٌّ فنلنديٌّ معروف. ماريميكو: شركةٌ فنلنديَّةٌ معروفة متخصِّصة في الملابس والمفروشات. نوكيا: شركة الهواتف المعروفة. مومين: شخصيَّات روائيَّة شهيرة من سلسلة أعمال الكاتبة الفنلنديَّة توفه يانسون للأطفال. (المترجم)

هزَّ رئيسه رأسه، وبدا غير مكترثٍ بأيٍّ منها.

اتَّصل تسوكورو بسارا وقرَّر موعد السفر، واختار أن يسافر في رحلةٍ مباشرةٍ من «ناريتا» إلى هلسنكي. سيغادر طوكيو بعد أسبوعيْن، ويقضي أربع ليالٍ في فنلندا ثمَّ يعود.

فسألتْه سارا: «هل ستتواصل مع كورو قبل سفرك؟»

ـ «لا، سأفعل ما فعلتُه حين ذهبتُ إلى ناغويا. لن أخبرها بقدومي».

ـ «لكنَّ فنلندا ليست قريبةً مثل ناغويا. سوف تستغرق رحلتك وقتًا طويلًا. وقد تصل إلى هناك ثمَّ تكتشف أنَّها سافرت قبل ثلاثة أيَّامٍ إلى مايوركا لقضاء عطلتها الصيفيَّة».

ـ «سأتقبَّل ذلك إن حدث. لعلّي أتجوَّل في فنلندا ثمَّ أعود».

ـ «حسنٌ، ما دامت هذه رغبتك. ولكنْ بما أنَّك ستقطع كلّ هذه المسافة، ما رأيك أن تزور أماكن أخرى قريبة؟ تالين [في إستونيا] وسانت بطرسبرغ [روسيا] قريبتان جدًّا».

ـ «فنلندا تكفي. سأسافر من طوكيو إلى هلسنكي، وأقضي أربع ليالٍ هناك، ثمَّ أعود».

ـ «ولديْك جواز سفرٍ طبعًا».

ـ «حين التحقتُ بالشركة طلبوا إلينا أن يكون لدينا جواز سفر ساري الصلاحية في حال اضطُررنا إلى السفر من أجل العمل. ولكنْ لم تسنح لي فرصةٌ من قبل لاستخدامه».

ـ «في هلسنكي، يمكنك تدبير أمورك باللُّغة الإنجليزيَّة، ولكنْ قد يتعذَّر عليك ذلك إن سافرت إلى الريف. لشركتنا مكتبٌ صغيرٌ في

هلسنكي، شيءٌ أشبه بالفرع الصغير. سأتواصل معهم وأبلغهم بقدومك حتّى تزورهم إن واجهتك أيّ مشكلة. هناك موظَّفةٌ فنلنديَّة اسمها أولغا، ستساعدك بالتَّأكيد».

- «أشكرك».

- «سأسافر بعد غدٍ إلى لندن. ولكنْ بمجرَّد أن أحجز لك تذاكر السفر والإقامة سأبعث لك التفاصيل عبر البريد الإلكترونيّ. وكذلك عنوان مكتبنا في هلسنكي ورقم الهاتف».

- «ممتاز».

«هل ستقطع فعلًا كلّ هذه المسافة إلى هلسنكي من دون أن تخبرها بقدومك أوّلًا؟ تقطع دائرة القطب الشماليّ!»

- «هل يبدو الأمر شديد الغرابة؟»

فضحكتْ، وقالت: «بالنسبة إليَّ أعدُّها جرأة».

- «أشعر بأنَّ الأمور ستسير على نحوٍ أفضل هكذا. مجرَّدُ حدسٍ بالطبع».

- «أرجو لك التوفيق. هل يمكن أن نلتقي مرَّةً قبل سفرك؟ سأعود من لندن مطلع الأسبوع القادم».

- «أودُّ أن ألتقيكِ طبعًا، ولكنْ لديَّ شعورٌ بأنّه من الأفضل أن أذهب إلى فنلندا أوّلًا».

- «وهذا أيضًا ناتجٌ من شيءٍ يشبه الحدس؟»

- «أظنُّ ذلك. شيءٌ يشبه الحدس».

- «هل تعتمد كثيرًا على حدسك؟»

- «لا، لم أكن أعتمد عليه قطّ حتى الآن. لا يمكن للمرء أن يشيّد محطة قطارٍ اعتمادًا على حسّه الداخليّ. لا أعرف حتّى ما إذا كانت كلمة «حدس» هي الصحيحة. هو مجرّد شيءٍ شعرتُ به على حين فجأة».

- «على أيّ حال، أنت تشعر أنّ هذا هو التصرُّف الصحيح، أليس كذلك؟ سواء أكان حدسًا أم غير ذلك».

- «كنتُ أفكّر في أشياء كثيرةٍ أثناء السباحة. فيكِ، وفي هلسنكي. لا أعرف كيف أصف لكِ الأمر، لكنّه أشبه بالسباحة ضدّ التيّار، عودًا إلى شعوري الغريزيّ».

- «أثناء السباحة؟»

- «أستطيع التفكير جيّدًا أثناء السباحة».

سكتتْ سارا برهةً وكأنّها مشدوهة. «مثل سمك السلمون».

- «لم أفهم قصدك».

- «السلمون يسافر مسافاتٍ طويلة. يدفعه شيءٌ ما. هل سبق أن شاهدت فيلم حرب النجوم؟»

- «نعم، في طفولتي».

- «إذنْ، فلْتصحبكَ القوّة[1]، كي لا يغلبك السلمون».

- «أشكرك. سأتواصل معك بعد عودتي من هلسنكي».

- «سأنتظرك».

وأغلقت الخط.

✹

(1) جملةٌ مشهورةٌ من فيلم «حرب النجوم». (المترجم)

بَيْد أنَّ تسوكورو رآها على سبيل الصدفة مرّةً أخرى قبل سفره ببضعة أيّام، دون أن تعلم.

ففي ذلك المساء، قصد آيواما لشراء هدايا لكورو: «إكسسوار» لها، وكتب أطفالٍ يابانيّةٍ مصوّرةٍ لأطفالها. كان يعرف محلًا جيّدًا يبيع هذه الهدايا في شارعٍ خلف ميدان آيواما. وبعد قرابة الساعة من التسوُّق، عنَّ له أن يستريح قليلًا، فدخل إلى مقهى. اتّخذ مقعدًا عند نافذةٍ زجاجيّةٍ كبيرةٍ تطلّ على حيّ «أوموتيساندو»، وطلب قهوةً وشطيرة سلطة التونة، ثمّ جلس ينظر إلى الشارع المستحمّ بضوء الشفق. كان معظم المارّة عشّاقًا، يبدون في غاية السعادة، كأنّهم في طريقهم إلى مكانٍ مميّزٍ حيث ينتظرهم شيءٌ بهيج. ظلّ تسوكورو ينظر إلى المشهد من أمامه، فازداد عقله سكونًا وهدوئًا. كان شعورًا هادئًا، مثل شجرةٍ متجمّدةٍ في ليلةٍ شتويّةٍ لا ريح فيها. لكنّ الشعور ممزوجٌ بشيءٍ من الألم الطفيف. كان تسوكورو قد اعتاد هذه الصورة الذهنية، فلم تَعُد تسبّب له ألمًا يُذكر.

لكنّه لم يستطع أن يقاوم التفكير في البهجة التي سيشعر بها لو كانت سارا معه. لم يكن في استطاعته شيءٌ يفعله، فهو الذي صدّها، وفقًا لرغبته. هو الذي جمّد أغصانه العارية، في هذا المساء الصيفيّ المنعش.

أتراه كان تصرّفًا صحيحًا؟

لم يكن واثقًا من ذلك. هل يمكنه فعلًا أن يثق بحدسه؟ لعلّه لم يكن حدسًا أو ما إلى ذلك، بل مجرّد خاطرٍ عابرٍ لا أساس له. كانت سارا قد قالت له: فلْتصحبكَ القوّة إذن.

خطرَ له برهةً سمكُ السلمون ورحلته الطويلة في البحار المظلمة، معتمدًا على غريزته أو حدسه.

وعندها، مرّت سارا من أمامه. كانت ترتدي الفستان الأخضر نفسه، قصير الكُمَّيْن الذي ارتدتْه يوم لقائه، والحذاء البنّيّ الفاتح، وكانت تسير في المنحدر الخفيف من ميدان آوياما باتّجاه «جنغومايي». حبسَ تسوكورو أنفاسه، وقطب جبينه دون إرادةٍ منه. لم يكن يصدّق أنّ ما يراه حقيقيّ. بدا الأمر وكأنّه وهمٌ من صنع عقله. غير أنّه لم يكن هناك شكّ في الأمر، فتلك سارا الحقيقيّة بشحمها ولحمها. نهض في حركةٍ لا إراديّة، وكاد يطيح بطاولته. انسكبت القهوة على الصحن، لكنّه سرعان ما عاد إلى مقعده.

إلى جانب سارا رجلٌ في منتصف العمر، قويّ البنية متوسّط الطول، يرتدي معطفًا داكنًا، وقميصًا أزرق، وربطة عنقٍ كحليّةٍ منقّطة. شعره مرتّب، به مسحةٌ من شيب. بدا أنّه في أوائل الخمسينيّات. ملامحُه لطيفة، رغم ذقنه الحادّ. تعابيره توحي بثقةٍ هادئةٍ متواضعةٍ، على طريقة الرجال في ذلك العمر. كان يمشي في سعادةٍ مع سارا، يشبك يده في يدها. شاهدهما تسوكورو من النافذة الكبيرة، وهو فاغر الفم. ببطءٍ، مرّا من أمامه، لكنّ سارا لم تلتفت صوبه. كانت مستغرقةً تمامًا في الحديث مع الرجل، ولم تلتفت إلى ما حولها. قال الرجل شيئًا، ففتحتْ فمها وضحكتْ، وظهرت أسنانها البيض.

ثمّ ابتلعها الزحام مع الرجل الذي كان معها، وظلّ تسوكورو ينظر في الاتّجاه الذي اختفيا فيه، متشبّثًا بأملٍ طفيفٍ، بأنّها ستعود، بأنّها قد تلاحظ أنّه كان هناك فتعود لتفسّر له ما رآه. لكنّها لم تَعُد. وجاء آخرون، بوجوهٍ مختلفة، ونظراتٍ مختلفة، واحدًا بعد الآخر.

تحرَّك في مقعده، وازدرد شيئًا من الماء المثلَّج. وكلُّ ما تبقّى الآن أسىً هادئ. شعر بألمٍ طاعنٍ في الجانب الأيسر من صدره، وكأنَّه طُعن بسكّين. وكأنَّ دمًا ساخنًا يتفجَّر منه. الأرجح أنَّه كان دمًا. لم يكن قد جرَّب هذا الشعور منذ زمن، منذ صيف عامه الجامعيّ الثاني حين هجره أصدقاؤه الأربعة. أغمضَ عينَيْه، وكأنَّه يطفو فوق الماء، يجرفه التيّار في عالم الألم. مع ذلك، فقد خطر له أنَّ الإحساس بالألم علامةٌ جيّدة. فالمصيبة إنَّما تحدثُ حين لا تشعر بأيِّ ألم.

امتزجتْ أصواتٌ كثيرةٌ في تشويشٍ حادٍّ رهيبٍ في أذنَيْه، كالضوضاء التي لا يمكن تصوُّرها إلّا في أشدِّ أعماق الصمت. لم يكن شيئًا تسمعُه من الخارج، بل صمتًا يتولَّد من أعضائك الداخليَّة. لكلٍّ منّا صوتٌ خاصٌّ يعيش به، لكنَّنا نادرًا ما نسمعه.

حين فتح عينَيْه مرَّةً أخرى، بدا له أنَّ العالم كلّه تغيَّر. الطاولةُ البلاستيكيَّة، وفنجان القهوة الأبيض، والشطيرة التي أكل نصفها، وساعة «هوير» على معصمه الأيسر (ذكرى من أبيه)، وصحيفة المساء التي كان يقرأها، والأشجار التي تصطفّ على الشارع، ونافذة العرض في المحلّ المقابل إذْ تزداد وهجًا مع دخول الظلام.. كلُّ شيءٍ من حوله بدا مشوَّهًا. معالمُ الأشياء غير أكيدة، ولا وجود لعمقٍ فيها، والأحجام خاطئة تمامًا. تنفَّس بعمقٍ، مرَّةً بعد مرَّة، إلى أن هدأ أخيرًا.

لم يكن الألم الذي شعر به نابعًا من غيرة. كان يعرف الغيرة، وقد جرَّبها ذات مرَّة، في ذلك الحلم، والشعور الذي ظلَّ معه حتى الآن. كان يعرف ذلك الشعور الخانق الذي لا شفاء منه. أمّا الألم الذي يشعر به الآن فهو مختلف. فلا شيء سوى الأسى، وكأنَّه تُرك في قعر حفرةٍ

عميقةٍ مظلمة. الأسى، ولا شيء غيره. مع ألمٍ جسديٍّ بسيط. والحقيقةُ أنّه وجد العزاء في ذلك الألم.

لم يكن أكثر ما آلمه رؤية سارا وهي تمشي مع رجلٍ آخر، وتشبك يدها في يده. أو حتّى احتمال أن تكون في طريقها إلى فراشه. بالطبع كان يؤلمه أن يتخيّلها تتعرّى لغيره وتضاجعه. بذل مجهودًا كبيرًا كي يمسح تلك الصورة الذهنيّة من عقله. لكنّ سارا كانت امرأةً مستقلّةً، عزباء، وحرّة، في سنّ الثامنة والثلاثين. كانت لها حياتها، مثلما أنّ لتسوكورو حياته. ولها الحقّ في أن تكون مع من تشاء، أينما تشاء، وتفعل ما تشاء.

لكنّ الذي صدمه حقًّا هو حجم السعادة في محيّاها، فحين كانت تتحدّث إلى ذلك الرجل، يضيء وجهها بأكمله. لم يرَ تسوكورو هذه التعابير الواضحة قطّ وهي معه. كانت تحافظ دائمًا على نظرةٍ هادئةٍ منضبطة. هذا ما مزّق قلبه، أكثر من أيّ شيءٍ آخر.

حين وصل إلى شقّته، أخذ يستعدّ لرحلة فنلندا، فالانشغال بشيءٍ سيصرف ذهنه عن التفكير. لم تكن لديْه أمتعةٌ كثيرة. ملابس تكفي لبضعة أيّام، وبعضٌ من أدوات النظافة، وكتابان يقرأهما في الطيّارة، وملابس سباحةٍ مع نظّارة غوصٍ (إذْ لا يذهب إلى أيّ مكانٍ من دونها)، ومظلّةٌ مطويّة. تكفي حقيبة كتفٍ واحدة لهذا كلّه. لم يأخذ حتى كاميرا. فما فائدة الصور؟ كان يسعى إلى الأشخاص بأنفسهم، وكلامهم.

وما إنْ انتهى من التوضيب حتّى أخرج مجموعة .أسطوانات سنوات الحجّ لأوّل مرّةٍ منذ سنوات. هي مجموعة لازار بيرمن التي تركها هايدا قبل خمس عشرة سنة. ما يزال تسوكورو يحتفظ بمشغّل

الأسطوانات القديم، لا لشيءٍ إلّا لكي يستمع إلى هذه المجموعة. وضع الأسطوانة الأولى، على الوجه الثاني، وأنزل الإبرة.

«السنة الأولى: سويسرا». جلس فوق الأريكة، وأغمض عينَيْه، وأسلم نفسه للموسيقى. كانت «لو مال دو پيي» هي المقطوعة الثامنة في المجموعة، في الأسطوانة الأولى على الوجه الثاني. عادةً ما كان تسوكورو يبدأ بها، ويستمع إلى الجزء الرابع من «السنة الثانية: إيطاليا»، «سونيتة پترارك 47». وعندها ينتهي الوجه الثاني، وترتفع الإبرة تلقائيًا عن الأسطوانة.

«لو مال دو پيي». تلك الموسيقى الحزينة الهادئة تضفي تجسيدًا للحزن الذي يغلّف قلبه، كأنّما حبوب لقاح لا حصر لها تلتصق بكائنٍ غير مرئيٍّ مختبئ في الهواء، فتكشف أخيرًا، في بطءٍ وهدوء، عن شكله. هذه المرّة اتّخذ الكائنُ شكلَ سارا. سارا في فستانها الأخضر قصير الكمّيْن.

وعاد الألم إلى قلبه. لا الألم الحادّ، بل ذكراه.

سأل نفسه: وماذا كنت تنتظر؟ وعاءٌ فارغٌ صار فارغًا مرّةً أخرى. من تلوم؟ كان الناس يأتون إليه، فيكتشفون فراغه، ثمّ يرحلون، تاركين وراءهم تسوكورو تازاكي وحيدًا فارغًا، بل ربّما أكثر فراغًا. أليس هذا واقع الأمر؟

لكنّهم في بعض الأحيان يتركون ذكرى صغيرة، كمجموعة سنوات الحجّ. لعلّ هايدا تركها متعمّدًا في شقّته ولم ينسها. كان تسوكورو يحبّ تلك الموسيقى، لأنّها تربط بينه وبين هايدا وشيرو. فهي العِرق الذي يربط هؤلاء الثلاثة. عرقٌ رفيعٌ هشّ، لكنّه ما يزال نابضًا، يحمل الدم الأحمر. وذلك ما تحقّق إلّا بقوّة الموسيقى. فكلّما استمع تسوكورو إليها، لا سيّما «لو مال دو پيي»، زارتْه ذكرياتٌ واضحةٌ عن

هايدا وشيرو. بل في بعض الأحيان، كان يُخيَّل إليه أنَّهما إلى جانبه، يتنفَّسان في هدوء.

غادر الاثنان واختفيا من حياته في وقتٍ من الأوقات، فجأةً، من دون سابق إنذار. لا.. لم تكن مغادرةً بقدر ما كانت هجرًا وتخلّيًا عنه. كان هذا يؤلم تسوكورو بطبيعة الحال، فظلّ الجرحُ معه حتّى الآن. ولكنْ، ألم يكن شيرو وهايدا هما المجروحَين (بالمعنى الحقيقيّ للكلمة)؟ تسلَّطتْ عليه هذه الفكرة مؤخّرًا.

قال في نفسه: ربّما أكون فعلًا شخصًا فارغًا عديم الجدوى، ولكنْ قد يكون السبب هو أنَّ هؤلاء الناس لم يجدوا في داخلي شيئًا يشعرون بالانتماء إليه، ولو فترةً قصيرة. كالطائر الليليّ الذي يبحث عن مكانٍ آمنٍ يرتاح فيه أثناء النهار في علّيةٍ مهجورة. تحبُّ الطيور هذه الأماكن الفارغة، الهادئة المظلمة. إن صحّ ذلك، فالأجدر بتسوكورو ربّما أن يفرح بفراغه.

تبخَّرت آخر نغمات «سونيتة بترارك 47» في الهواء، وانتهت الأسطوانة، وارتفعت الإبرة عنها فعادت إلى مكانها. أنزل تسوكورو الإبرة ثانيةً إلى بداية الوجه الثاني. فبحثتْ الإبرة في هدوءٍ عن خطوط الأسطوانة، وعاد لازار بيرمن إلى العزف ثانيةً، بجمالٍ، وإحساسٍ رهيف.

استمع تسوكورو إلى الوجه الثاني كاملًا مرّةً أخرى، ثمّ ارتدى منامته وأوى إلى فراشه. أطفأ الضوء في جانب السرير، وشعر بالسعادة مرّةً أخرى لأنَّ ما استحوذ على قلبه كان أسى عميقًا، لا غيرةً شديدة. فتلك الغيرة كانت كفيلةً بسلب أيّ أملٍ في النوم.

جاءه النوم أخيرًا، وعانقه. شعر بتلك النعومة في جسده لحظات. وهذه أيضًا من الأشياء القليلة التي أشعرتْه بالامتنان في تلك الليلة.

وفي منتصف نومه، سمع طيورًا تصيح في الليل.

-14-

ما إن وصل تسوكورو إلى مطار هلسنكي، حتّى حوّل المبلغ الذي يحمله معه من الينّ الياباني إلى اليورو، ثمّ وجد محلّ هواتفٍ اشترى منه أبسط هاتفٍ بشريحةِ الدفع المسبق. وبعد ذلك، خرج من المطار، معلّقًا حقيبته على كتفه، وسار إلى موقف سيّارات الأجرة. أخذ سيّارة أجرةٍ من طراز «مرسيدس بنز» قديمة، وأخبر السائق باسم الفندق الذي سيسكن فيه في المدينة.

غادرت السيّارة المطار وسارت في الشارع السريع، لكنّه لم يشعر بأنّه يزور بلدًا أجنبيًا للمرّة الأولى في حياته، فلا الغابات الخضر ولا اللّافتات المكتوبة بالفنلنديّة منحتْه ذلك الشعور. كان الطريق إلى هنا أطول من طريقه إلى ناغويا بالتّأكيد، لكنّه لم يشعر باختلافٍ في رحلته، عدا العملة الأجنبيّة في محفظته. كان يرتدي لباسه المعتاد: بنطالًا، وقميصًا أسود، وحذاءً رياضيًا، ومعطفًا قطنيًا بنّيّ اللون. لم يحضر معه إلّا أقلّ القليل من الملابس، وقال في نفسه إنّه يستطيع شراء ما يحتاج إليه إن تطلّب الأمر.

سأله السائق بالإنجليزيّة وهو ينظر إليه عبر المرآة: «من أين أنت؟». كان رجلًا في منتصف العمر بلحيةٍ كثيفة.

- «من اليابان».

- «غريبٌ أن تقطع هذه المسافة الطويلة بأمتعةٍ قليلةٍ جدًّا».

- «لا أحبّ الأمتعة الكثيرة».

فضحك السّائق، وقال: «كلُّنا لا نحبّها. لكنّك لا تدري كيف تتراكم حولك فجأة. هذه هي الحياة». وضحك مرّةً أخرى في سعادة.

فضحك تسوكورو معه.

- «وفي أيّ مجالٍ تعمل؟»

- «في بناء محطّات القطار».

- «مهندس؟»

- «نعم».

- «وهل أتيتَ إلى فنلندا لبناء محطّة؟»

- «لا، جئتُ في عطلةٍ لأزور أحد الأصدقاء».

- «جميل. العطلات والأصدقاء أحلى ما في هذه الحياة».

أتُرى جميع الفنلنديّين يحبّون إلقاء الحِكم عن الحياة؟ أم هذا السائق فحسب؟ كان تسوكورو يرجو أن يصدق الخيار الثاني.

توقّف السّائق بعد نصف ساعةٍ أمام فندقٍ في هلسنكي، ولم يدرِ تسوكورو ما إذا كان ينبغي له أن يضيف إكراميّةً أم لا. تذكّر أنّه لم يتحقّق من ذلك في الدليل السياحيّ (وفي واقع الأمر لم يقرأ أيّ شيءٍ عن فنلندا). أضاف أقلّ من عشرة بالمئة من المبلغ الظاهر في العدّاد،

وناول السائق المبلغ. بدا هذا سعيدًا، وقدّم له إيصالًا. من الواضح إذن أنّ قرار تسوكورو كان صحيحًا. وإنْ لم يكن كذلك، ففي كلّ الأحوال، لم ينزعج السائق.

الفندق الذي اختارتْه سارا كان مبنيًّا على الطراز القديم في مركز المدينة. رافقه عاملٌ وسيمٌ أشقر في مصعدٍ قديم إلى غرفته في الطابق الرابع. كان الأثاث قديمًا، والسرير كبيرًا، والجدران مغطّاةً بورق جدرانٍ باهتٍ عليه نقشٌ من ورق الصنوبر. في الحمّام حوض استحمام قديم، ونوافذ الغرفة تُفتح عموديًّا. الستائر سميكة، مع ستارةٍ رفيعةٍ من الدانتيل فوق النافذة. المكان كلّه مضمّخٌ برائحة الحنين إلى الماضي. ومن النافذة، تبدو عربات «الترام» الخضر وهي تسير في وسط ميدانٍ عريض. كانت الغرفةُ في المجمل مريحةً. لم تكن بها آلةٌ لإعداد القهوة أو تلفازٌ حديث، لكنّ تسوكورو لم يأبه بذلك. فلم يكن ليستخدمهما على أيّ حال.

قال تسوكورو للعامل: «شكرًا لك. الغرفة مناسبة»، ثمّ نفحه يوروَين إكراميةً له. تبسّم العامل وانسلّ من الغرفة سريعًا، مثل قطّةٍ ذكيّة.

كان المساءُ قد حلّ حين انتهى تسوكورو من استحمامه وتبديل ملابسه، رغم أنّ الضوء في الخارج كان يوحي بأنّ الوقت في منتصف النهار. نصفُ قمرٍ معلّقٌ في السماء، كأنّه حجرٌ بركانيّ ألقاه شخصٌ ما، فظلّ معلّقًا هناك.

توجّه إلى مكتب الخدمات في ردهة الفندق، وأخذ خارطةً للمدينة من امرأةٍ ذات شعرٍ أحمر تعمل هناك. أخبرها بعنوان مكتب السفريّات التابع لشركة سارا، فأشارت المرأة بالقلم على مكانه في الخريطة. كان قريبًا، على بعد ثلاثة مجمّعاتٍ سكنيّةٍ من الفندق. أخذ

بنصيحتها كذلك واشترى تذكرةً تصلح لارتياد الحافلات و«المترو» و«الترام»، فأرشدتْه إلى كيفيّة استخدامها، وناولته خارطةً للمسارات. كانت المرأة تبدو في أواخر الأربعينيّات، شديدة الطيبة، ذات عينَيْن خضراوَيْن. من عادة تسوكورو أن يشعر بالراحة والألفة حين يتحدّث إلى النساء الأكبر سنًّا منه، وبدا أنَّ هذا يصدق دائمًا، بصرف النظر عن المكان الذي يوجد فيه.

لجأ إلى ركنٍ هادئ في الردهة واستخدم الهاتف المحمول الذي اشتراه من المطار كي يتّصل بشقّة كورو، فتحوّل الاتّصال إلى البريد الصوتيّ. جاءه صوتُ ذكوريٌّ عميقٌ يتحدّث بالفنلنديّة عشرين ثانية، ثمّ صفيرٌ يمكن للمتحدّث أن يترك رسالةً بعده، لكنَّ تسوكورو أغلق الخطّ من دون أن يقول شيئًا. انتظر برهةً، ثمّ عاود المحاولة، من دون فائدة. لعلّه صوت زوج كورو. لم يفهم تسوكورو شيئًا من كلامه بالطبع، لكنَّ صوته يوحي بالإيجابيّة والمباشرة. كان صوت إنسانٍ يعيش حياةً مريحةً هادئة.

أغلق تسوكورو الخطّ وأعاد الهاتف إلى جيبه، ثمّ أخذ نفَسًا عميقًا. انتابه شعورٌ غير مريح. قد لا تكون كورو في الشقّة. لديْها زوجٌ وطفلان صغيران، والوقت الآن في شهر تموز/يوليو. فربّما، كما قالت سارا، ذهبت الأسرة بأكملها في عطلةٍ صيفيّةٍ إلى مايوركا.

كانت الساعة تشير إلى السادسة والنصف، ولا بدَّ من أن يكون مكتب السفريّات مغلقًا، ولكنْ لا بأس من المحاولة. أخذ الهاتف مرّةً أخرى واتّصل بالمكتب، ففوجئ بوجود أحدٍ حتى ذلك الوقت.

جاءه صوت امرأةٍ فنلنديّة.

سألها تسوكورو بالإنجليزيّة: «المعذرة، هل أولغا موجودة؟»

فأجابت بإنجليزيّةٍ خاليةٍ من أيّ لكنةٍ أجنبيّة: «أنا أولغا».

عرّفها تسوكورو بنفسه وأخبرها أنّ سارا اقترحتْ عليه الاتّصال بها.

فقالت: «نعم، سيّد تازاكي. أخبرتني سارا عنك».

شرح لها تسوكورو وضعه، وأنّه جاء للقاء صديقةٍ، لكنّه حين اتّصل بها لم يجد سوى رسالةٍ مسجّلةٍ بالفنلنديّة.

- «هل أنتَ في الفندق حاليًا؟»

- «نعم».

- «أنا على وشك إغلاق المكتب، ويمكنني أن أصل إليك خلال نصف ساعة. هل يناسبك أن نلتقي في ردهة الفندق؟»

كانت أولغا فتاةً شقراء ترتدي بنطالًا من الجينز وقميصًا أبيض طويل الكمّيْن. تبدو في أواخر العشرينيّات، ويبلغ طولها حوالي 174 سم، ولها وجهٌ دائريٌّ ذو بشرةٍ ورديّة. وكأنّها فتاةٌ مولودةٌ لأسرةٍ مزارعةٍ ثريّة، نشأتْ مع سربٍ من الأوزّ. شعرها ملفوفٌ إلى الوراء، وتعلّق على كتفها حقيبةً لمّاعة. منتصبة القامة، كساعيةٍ لديْها طردٌ مهمّ توصله، وتمشي في خطواتٍ طويلةٍ وهي تدخل الفندق.

تصافحا، وجلسا جنبًا إلى جنبٍ على أريكةٍ في منتصف الردهة.

كانت سارا قد زارت هلسنكي عدّة مرّات، وفي كلّ مرّةٍ، كانت تعمل مع أولغا. لذلك لم تكن أولغا مجرّد زميلةٍ في العمل، بل بدا أنّها صديقةٌ أيضًا.

- «لم أرَ سارا منذ مدّة. كيف حالها؟»

- «بخير. مشغولةٌ بالعمل، دائمة السفر».

«حين اتَّصلتْ بي قالت إنَّك صديقٌ شخصيٌّ مقرَّب».

فتبسَّم تسوكورو وكرَّر في نفسه: **صديقٌ شخصيٌّ مقرَّب**.

ابتسمتْ ونظرتْ إليه في عينَيْه: «يسعدني أن أساعدك بأيِّ طريقةٍ. فلا تتردَّد».

«أشكرك». شعر بأنَّها تقيِّمه بعينَيْها، لتقرِّر ما إذا كان يليق بأن يكون عشيق سارا. رجا في نفسه أن يكون قد اجتاز الاختبار.

ـ «دعني أستمع إلى الرسالة».

أخرج تسوكورو هاتفه واتَّصل برقم كورو. في أثناء ذلك، أخرجت أولغا دفترًا صغيرًا وقلمًا ذهبيًّا رفيعًا من حقيبتها، فوضعتهما على حجرها. وبمجرَّد أن سمع تسوكورو الرنين، ناولها الهاتف. استمعتْ أولغا إلى الرسالة، وقد اكتسى وجهها ملامح جادّة، فدوَّنت بسرعةٍ المعلومات المطلوبة وأغلقت الخطَّ. كانت تبدو امرأةً ذكيَّة، كفوءة، مع النوع الذي يسهل على سارا أن تنسجم معه.

قالت: «أعتقد أنَّ هذا صوت زوجها. لقد غادروا شقَّتهم يوم الجمعة الماضي، وذهبوا إلى كوخهم الصيفيّ. ولن يعودوا قبل منتصف آب/أغسطس. وذكَرَ رقم هاتفهم هناك».

ـ «هل الكوخ بعيد؟»

ـ «لم يذكر موقعه. ما نعرفه من الرسالة مجرَّد رقم الهاتف، وأنَّه موجودٌ في فنلندا. يمكنك أن تعرف أين يوجد إن اتَّصلت بالرقم».

ـ «سأكون ممتنًّا لكِ إن فعلتِ ذلك نيابةً عنِّي. ولكنْ لديَّ طلبٌ واحد. لا أريد أن تذكري اسمي في الهاتف. أودُّ أن أزورها من دون أن تعرف بمقدمي».

فانتاب أولغا شيءٌ من الحيرة والفضول.

قال لها: «هي صديقةٌ عزيزةٌ من فترة المدرسة الثانوية، لكنّنا لم نلتقِ منذ زمن. ولا أظنُّ أنّها تعرف شيئًا عن زيارتي. لذلك أودُّ أن تكون مفاجأة».

فقالت وهي تفتح يدَيْها على حجرها: «مفاجأة! يبدو أمرًا ممتعًا جدًّا».

- «أرجو أن يكون هذا رأيها أيضًا».

- «هل كانت حبيبتك؟»

فهزَّ رأسه: «لا، لم تكن علاقتنا على هذا النحو. كنّا في مجموعةٍ واحدةٍ من الأصدقاء. لكنّنا كنّا أصدقاء أعزّاء».

أمالت رأسها قليلًا، وقالت: «الأصدقاء الأعزّاء في الثانويّة نادرون. كانت لديَّ صديقة عزيزة في الثانويّة، وما نزال على تواصلٍ دائم».

أومأ لها تسوكورو موافقًا.

- «وصديقتك هذه تزوّجت فنلنديًا وجاءت للعيش هنا. ولم ترها منذ فترةٍ طويلة، صحيح؟»

- «لم أرها منذ ستة عشر عامًا».

فركتْ أولغا جبهتها بسبّابتها مرّتيْن، وقالت: «مفهوم. سأحاول الوصول إلى عنوانها من دون أن أذكر اسمك. سأفكّر في طريقةٍ مناسبة. ما اسمها؟»

دوّن تسوكورو اسم كورو في دفترها.

- «وما اسم البلدة التي درستما فيها؟»

ـ «ناغويا».

أخذتْ أولغا هاتفه مرّةً أخرى واتّصلت بالرقم الذي سمعتْه في الرسالة المسجّلة. رنّ الهاتف عدّة مرّات، ثمّ أجابها شخص. تحدّثت أولغا بالفنلنديّة، بنبرةٍ ودودة. شرحتْ للشخص شيئًا، ثمّ سألها سؤالًا، وأجابته إجابةً موجزة. ذكرتْ اسم إري عدّة مرّات. وبعد أخذٍ وردّ، بدا أنّ الشخص الآخر اقتنع. فالتقطت أولغا القلم ودوّنت شيئًا. ثمّ شكرتْه بأدبٍ وأغلقت الخطّ.

قالت: «نجحنا».

ـ «ممتاز».

ـ «اسم زوجها إدڤارد هاتاينن. يقضي العطلة الصيفيّة في كوخهم، قرب بلدةٍ تُسمّى هامينلينا، شمال غرب هلسنكي. وإري والأطفال معه بالطبع».

ـ «وكيف عرفتِ ذلك كلّه من دون أن تذكري اسمي؟»

فابتسمتْ ابتسامةً شيطانيّة، وقالت: «كذبتُ كذبةً صغيرة. قلتُ إنّني من شركة «فيدكس» للشحن، ولديّ طردٌ لإري من ناغويا، وأريد أن أعرف عنوان التوصيل. زوجها هو الذي حدّثني فلم يتردّد في إعطائي العنوان. هذا هو».

ناولتْه ورقةً من دفترها. ثمّ نهضت، وذهبت إلى مكتب الخدمات، وأحضرتْ خريطةً لجنوب فنلندا. فتحت الخريطة وأشرت على موقع هامينلينا.

ـ «هذه هامينلينا. سأبحث عن عنوان بيتهم الصيفيّ في غوغل. المكتب مغلقٌ الآن، لذلك سأطبع لك الورقة غدًا وأسلّمك إيّاها».

ـ «كم يستغرق الوصول إلى هناك؟»

ـ «البلدة تبعد عن هنا حوالي مئة كيلومتر. سيستغرق المشوار بالسيّارة ساعةً ونصف الساعة. الشارع السريع يصل إلى هناك مباشرةً، ولكنْ بعد ذلك، ستحتاج إلى سيّارةٍ للوصول إلى البيت نفسه».

ـ «سأستأجر سيّارة».

«في هامينلينا قلعةٌ رائعة عند البحيرة، وكذلك البيت الذي وُلد فيه سيبيليوس. ولكنّي أتصوّر أنّ لديْك أمورًا أهمّ. ما رأيك أن تأتي إلى المكتب غدًا في الوقت الذي يناسبك؟ نحن نفتح في التاسعة صباحًا. وهناك محلٌّ قريبٌ لتأجير السيّارات. سأتولّى الأمر».

فقال لها تسوكورو شاكرًا: «ممتنٌّ جدًّا لمساعدتك».

قالت له وهي تغمز: «صديقُ سارا المقرَّب صديقي. أرجو أن تستطيع مقابلة إري، وأن تنجح المفاجأة».

ـ «أرجو ذلك. لهذا السبب جئتُ إلى هنا».

تردَّدت أولغا لحظةً، ثمّ قالت: «أعرف أنّ هذا ليس من شأني، ولكن هل هناك شيءٌ مهمٌّ جدًّا يستدعي أن تقطع كلّ هذه المسافة لكي تقابلها؟»

ـ «مهمٌّ جدًّا بالنّسبة إليّ. ولكنْ قد لا يكون كذلك بالنّسبة إليها. إنّما جئتُ لكي أعرف».

ـ «تبدو مسألةً معقّدة».

ـ «ربّما أكثر تعقيدًا من قدرتي على شرحها بالإنجليزيّة».

فضحكتْ أولغا، وقالت: «في الحياة مسائل معقَّدة جدًّا لا يمكن شرحها بأيّ لغة».

أومأ لها تسوكورو. يبدو أنّ قول الحِكم سمةٌ يشترك فيها جميع الفنلنديّين. لعلّ الشتاءات الطويلة لها دورٌ في ذلك. لكنّها كانت محقَّة؛ فتلك مسألةٌ لا علاقة لها باللغة. على الأرجح.

نهضتْ، ووقف تسوكورو أيضًا، وصافحها.

قالت: «نلتقي صباح الغد. أعتقد أنّك ستكون مرهقًا بسبب فارق التوقيت، وكثيرٌ من الناس الذين لم يعتادوا مناخنا يجدون صعوبةً في النوم حين تظلّ الشمس إلى وقتٍ متأخرٍ من الليل. أنصحك بأن تطلب من الفندق إيقاظك صباحًا».

«سأفعل». علّقت أولغا حقيبتها على كتفها وسارت خارجةً من الفندق، من دون أن تنظر وراءها.

فطوى تسوكورو الورقة التي أعطته إيّاها، ووضعها في محفظته، ثمّ أدخل الخريطة في جيبه، وخرج من الفندق للتجوُّل.

على الأقلّ، عرف عنوان إري. كانت هناك، مع زوجها وأطفالها، ولم يبقَ إلّا أن يعرف ما إذا كانت ستقابله أم لا. صحيحٌ أنّه اجتاز نصف الكرة الأرضيّة كي يراها، لكنّها قد ترفض مقابلته. هذا احتمالٌ واردٌ جدًّا. قال أو إنّ كورو هي أوّل من وقف إلى جانب شيرو في موضوع الاغتصاب، وإنّها هي التي طلبت قطع كلّ الصلات مع تسوكورو. تُرى أيّ مشاعرٍ تحملها له بعد مقتل شيرو وانفصال المجموعة؟ ربّما لا تبالي به على الإطلاق. كلّ ما في وسعه هو أن يذهب لزيارتها كي يعرف.

كانت الساعة قد جاوزت الثامنة مساء، وما تزال الشمس بعيدةً عن المغيب. محالٌ كثيرةٌ مفتوحة، والشوارع مضيئةٌ كأنّها في النهار، مزدحمةٌ بالمارّة. الناس يملؤون المقاهي، يشربون البيرة والنبيذ، ويدردشون. كان تسوكورو يمشي في الشوارع القديمة المرصوفة بالحجارة المدوَّرة، فتهادت إليه رائحة سمكٍ مشويّ. تذكَّر الماكاريل المشويّ في المطاعم اليابانيَّة، ولفرط جوعه سار وراء الرائحة إلى شارعٍ جانبيّ، لكنَّه لم يستطع تحديد مصدرها. ظلَّ يبحث، إلى أن ضعفتْ الرائحةُ، ثم اختفت.

لم يكن من السهل عليه أن يبحث عن مكانٍ يأكل فيه، فقرَّر الذهاب إلى مطعم «بيتزا» قريب، وجلس إلى طاولةٍ خارجيَّة، وطلب شايًا مثلَّجًا مع «بيتزا مرغريتا». يمكنه أن يسمع ضحكة سارا حين يخبرها. سافرتَ هذه المسافة كلّها إلى فنلندا، وأكلتَ «بيتزا مرغريتا»؟ سوف يدهشها ذلك بالتَّأكيد. لكنَّ «البيتزا» كانت لذيذةً، أفضل بكثيرٍ ممَّا توقَّعه. مخبوزةٌ في فرنٍ حقيقيٍّ على الفحم، رفيعةٌ مقرمشة، وعليها آثار فحمٍ زكيّة على أطرافها.

المطعم يعجُّ بالأسر والعشّاق الشباب. وكان هناك مجموعة طلّابٍ أيضًا. الكلّ يشرب البيرة أو النبيذ، وكثيرون يدخّنون السجائر. لم يرَ تسوكورو أحدًا يجلس وحده يشرب شايًا مثلَّجًا مع «البيتزا»، إلّا نفسه. الجميع يتحدَّثون بصخب، وكلّ كلامهم (على حدِّ تصوُّره) بالفنلنديَّة. بدا أنَّ المطعم يجتذب الأهالي، لا السيَّاح. وفجأةً استوعب أنّه بعيدٌ عن اليابان، في دولةٍ أخرى. لم يزعجه أنَّه يتناول طعامه وحده، فقد كان دائمًا يأكل وحده، أينما كان. لكنَّه هنا لم يكن وحده وحسب. كان وحده بأكثر من معنًى للكلمة. فقد كان أجنبيًّا، والناس من حوله يتحدَّثون لغةً لا يفهمها.

كان ذلك حسًا من العزلة يختلف عمًا يشعر به في اليابان. لم يكن شعورًا سيِّئًا. أن يكون المرء وحدَه بمعنيَيْن اثنيْن للكلمة أقربُ لأن يكون نفيًا مزدوجًا للعزلة. بعبارةٍ أخرى، كان من المنطقيّ جدًّا له وهو الأجنبيّ هنا أن يشعر بالعزلة. لم يكن غريبًا على الإطلاق. أراحه هذا الخاطر. فرفع يدَه ينادي النادل، وطلب كأسًا من النبيذ الأحمر.

وبعد قليلٍ من وصول نبيذه، مرَّ رجلٌ مسنٌّ يعزف على «الأكورديون». يرتدي صديريَّةً باليةً وقبَّعةً مَجْدولة، ومعه كلبٌ بأذنَيْن مدبَّبتَيْن. ربط زمام الكلب في عمود إنارةٍ بيدَيْن متمرِّستَيْن (كأنَّه يربط حصانًا)، ثمَّ وقف هناك يستند إلى العمود، وراح يعزف ألحانًا شعبيَّةً من تراث شمال أوروبا. من الواضح أنَّه عازف شوارعٍ قديم، فقد كان أداؤه عفويًّا متمرسًّا. غنّى بعض الزبائن معه، واستجابَ لبعض طلباتهم، بما في ذلك النسخةُ الفنلنديَّة من أغنية إلفس پرسلي «دعي عنكِ القسوة». كان كلبه الأسود الرفيع جالسًا في مكانه، لا ينظر إلى ما حوله، يثبِّت عينَيْه على موضعٍ في الهواء، كأنَّما يستعيد الذكريات. وأذناه لم ترتعشا أو تتحرَّكا على الإطلاق.

في الحياة مسائل معقَّدة جدًّا لا يمكن شرحها بأيِّ لغة.

صَدَقتْ أولغا. هكذا خطر له وهو يرتشف نبيذه. صعبٌ بالفعل أن تشرحها، لا للآخرين وحسب، بل لنفسك أيضًا. وما إن تُجبر نفسك على شرحها، حتَّى تشرع في اختراع الأكاذيب. على أيِّ حال، أدرك أنَّه سوف يفهم الأمور على نحوٍ أوضح غدًا، وما عليه إلَّا أن ينتظر. وحتَّى إن لم يصل إلى أجوبة، فلا بأس في ذلك. لم يكن في وسعه شيءٌ آخر. سيمضي تسوكورو عديم اللون في حياته عديمة اللون، من دون أن يزعج شخصًا آخر.

فكّر في سارا، وفي فستانها الأخضر، وضحكتها المرحة، والرجل الذي كانت تشبك يدها في يده وهما يمشيان. غير أنّ هذه الأفكار لم تقده إلى أيّ نتيجة. فقلبُ الإنسان أشبه بطائرٍ ليليّ، ينتظر شيئًا في صمت، وحين يأتي الأوان يطير مباشرةً إليه.

أغمض عينَيْه وسلَّم نفسه لأنغام «الأكورديون»، فسرى ذلك اللحن الرتيب عبر الأصوات المزعجة، ووصل إليه، مثل صافرة الضباب التي يكاد تصادمُ الأمواج يطغى على صوتها.

لم يشرب من نبيذه إلّا النصف، وترك بعض المال على الطاولة، ونهض. ألقى يورو واحدًا في القبّعة أمام عازف «الأكورديون»، وربَّت على رأس الكلب كما فعل الآخرون. غير أنّ الكلب لم يحرّك ساكنًا، كأنّما يتظاهر بأنّه تمثالٌ صغير. سار تسوكورو على مهلٍ، وتوقّف عند كشكٍ في الطريق، فاشترى قارورة مياهٍ معدنيّة، وخريطةً مفصّلةً لجنوب فنلندا.

رأى في حديقةٍ في وسط الميدان العام أشخاصًا وقد أحضروا معهم قطع الشطرنج، يلعبونها على رُقعٍ مبنيَّةٍ من الحجارة. كلُّهم رجالٌ كبار السنّ. كانوا هادئين تمامًا، على عكس الذين رآهم في مطعم «البيتزا». حتّى المارّة الذين كانوا يشاهدونهم، لزموا الصمت. التفكير العميقُ يستلزم الصمت. معظم المارّة يمشون مع كلابهم، لكنَّ الكلاب أيضًا كانت صامتة. تهادت إليه وهو يمشي رائحة السمك المشويّ والكباب. كانت الساعة تقترب من التاسعة مساءً، وما يزال هناك محلّ ورودٍ مفتوحًا، يستعرض صفًّا تلو الآخر من الأزهار البرّاقة. وكأنَّ الليلَ نُسي في هذه المدينة.

فلمّا وصل إلى الفندق، طلب من الموظّفة أن يتّصلوا به عند السابعة صباحًا لإيقاظه. ثمّ خطر له خاطرٌ على حين فجأة. «هل يوجد مسبحٌ قريبٌ من هنا؟»

قطبتْ الموظّفةُ جبينها قليلًا وفكّرت، ثمّ هزّت رأسها في أدبٍ وكأنّها تعتذر عن وجود نقصٍ في بلادها. «أعتذر منك، ولكن للأسف لا يوجد مسبحٌ قريبٌ من هنا».

عاد إلى غرفته، وأسدل الستائر كي يحجب الضوء، وخلع ملابسه، واستلقى على السرير. ورغم ذلك، تسلّل الضوء إلى الغرفة، مثل الذكريات القديمة التي لا يمكن محوها بسهولة. أخذ يحدّق في السقف، ويفكّر في غرابة أن يكون هنا في هلسنكي (لا ناغويا) لمقابلة كورو. الليلُ الوضّاء في شمال أوروبا أورث في قلبه رعشةً غريبة. فقد كان جسده في حاجةٍ إلى النوم، لكنّ عقله يبحث عن اليقظة، برهةً على الأقلّ.

ثمّ خطرتْ له شيرو. لم يحلم بها منذ زمن. فكّر في تلك الأحلام الجنسيّة حين كان يقذف فيها بقوّة. وحين يستيقظ لاحقًا ويغسل المنيّ عن ملابسه الداخليّة، ينتابه مزيجٌ معقّدٌ من المشاعر. مزيجٌ غريبٌ من الشوق والإحساس بالذنب. مشاعر لا تظهر إلّا في زاويةٍ معتمةٍ لا يعرفها الآخرون، تختلط فيها الحقيقة بالوهم، سرًّا. والغريبُ أنّه اشتاق إلى تلك المشاعر. وبصرف النظر عن نوع الحلم، أو المشاعر التي يتركها فيه، فقد كان يريد أن يرى شيرو مرّةً أخرى في أحلامه.

وأخيرًا تمكّن النومُ منه، ولكنْ من دون أن يأتيه الحلم.

-15-

اتَّصلوا به من الفندق عند السابعة صباحًا، فاستيقظ. كان قد نام نومًا طويلًا عميقًا، فشعر بخدرٍ لذيذٍ يسري في جسده. استحمَّ، وحلق ذقنه، وغسل أسنانه، وظلَّ الخدرُ الجميل مصاحبًا له. كانت السماء ملبّدةً بطبقةٍ رقيقةٍ من الغيوم، لكنَّها لا تنذر بالمطر. ارتدى ملابسه، ونزل إلى مطعم الفندق، فتناول فطورًا خفيفًا.

وصل إلى مكتب أولغا بعد التاسعة. كان مكتبًا صغيرًا مريحًا، يعمل فيه شخصٌ آخر مع أولغا، وهو رجلٌ طويل القامة له عينان جاحظتان. كان يتحدَّث في الهاتف، يشرح شيئًا. الجدار مغطّى بملصقاتٍ ملوَّنةٍ عن أماكن سياحيَّةٍ في فنلندا. ناولتْه أولغا عدَّة خرائط كانت قد طبعتْها له. والكوخ في بلدةٍ صغيرةٍ على مقربةٍ من هامينلينا عند البحيرة، أشارت إلى موقعه بعلامة. كانت البحيرة ضيّقةً متعرّجةً مثل قناةٍ طويلة، حفرتْها أنهارٌ جليديَّةٌ قبل عشرات الآلاف من السنين، فبدتْ كأنَّها تمتدّ إلى ما نهاية.

قالت أولغا: «الطريق سهل. فنلندا ليست مثل طوكيو أو نيويورك. الشوارع غير مزدحمة، ويمكنك الوصول إلى هناك بسهولةٍ إن اتّبعت اللّافتات ولم تصدم أيّلًا في طريقك».

شكرها تسوكورو.

ـ «حجزتُ لك سيّارةً من نوع «فوكس واجن غولف»، لم تقطع أكثر من ألفي كيلومتر. واستطعتُ الحصول على تخفيضٍ بسيط».

ـ «ممتاز. شكرًا لك».

«أرجو أن تسير الأمور على ما يرام. لقد قطعتَ مسافةً طويلة». ابتسمتْ له ابتسامةً جميلة، وأضافت: «إنْ صادفتكْ أيّ مشكلةٍ، لا تتردَّد في الاتّصال بي».

ـ «لن أتردَّد».

ـ «تذكّر أن تتنبّه على الأيائل، فهي مخلوقاتٌ غبيّةٌ بعض الشيء. لا تُسرع».

تصافحا مرّةً أخرى، وتوادعا.

في مكتب تأجيز السيّارات، استلم سيّارته «الغولف» الكحليّة، وأرشدتْه الموظّفة إلى كيفية الوصول من وسط هلسنكي إلى الطريق السريع. لم يكن الأمر صعبًا، لكنّه يتطلّب التركيز. وبمجرّد الوصول إلى الطريق السريع يصبح الأمر سهلًا.

قاد تسوكورو سيّارته بسرعةِ مئةِ كيلومترٍ في الساعة نحو الغرب، وهو يستمع إلى الموسيقى في إذاعة «اف ام». معظم السيّارات الأخرى تتجاوزه، لكنّه لا يأبه بها. لم يَقُد سيّارةً منذ فترة، وهنا المقودُ إلى

اليسار، بعكس اليابان. كان يرجو أن يصل إلى بيت كورو بعد انتهائهم من الغداء. ما يزال لديْه وقتٌ كافٍ، فلا حاجة إلى العجلة. كما أنَّ إذاعة الموسيقى الكلاسيكيّة كانت تعزف كونشيرتو رائعًا من الأبواق.

على جانبَي الطريق السريع غاباتٌ كثيرة، فخطر له أنَّ البلاد كلَّها مغطّاةٌ بالخضرة الوفيرة من أقصاها إلى أقصاها. ومعظم الأشجار كانت من البتولا البيضاء، مع قليلٍ من أشجار الصنوبر والتنّوب والقيقب. أمّا الصنوبرات، فكانت حُمرًا بجذوعٍ طويلةٍ مستقيمة، بينما أغصان البتولا متدلّية. وكلا الشجرتان غير موجودتَيْن في اليابان. بين تلك الأشجار، تتناثر أشجارٌ أخرى ذات أوراقٍ عريضة. ثمّة طيورٌ ضخمةُ الأجنحة تحلّق في بطءٍ، بحثًا عن فريسة. ومن حينٍ إلى آخر، ينكشف سقفُ بيتٍ ريفيٍّ من بيوت المزارع. كانت مزارع شاسعة، بها ماشية ترعى خلف أسوارٍ تطوّق منحدراتٍ خفيفة. كان العُشب قد جُزّ وروكم في حُزمٍ كبيرةٍ باستخدام آلة.

وصل تسوكورو إلى هامينلينا قبيل الظهيرة. أوقف سيّارته في موقفٍ، وأخذ يتجوّل خمس عشرة دقيقة في البلدة، ثمّ دخل مقهى يواجه ميدان البلدة، وطلب قهوةً و«كرواسون». كان «الكرواسون» شديد الحلاوة، أمّا القهوة فكانت قويّةً لذيذة. لاحظ أنَّ الجوّ مشابهٌ لجوّ هلسنكي، فالسماء كانت تتخفّى وراء طبقةٍ رقيقةٍ من الغيوم، والشمسُ طيفٌ برتقاليٌّ غائمٌ في منتصف السماء. أمّا الريح التي كانت تهبّ في الميدان فكانت باردةً بعض الشيء، فارتدى سترةً خفيفةً فوق قميصه.

يكاد لا يوجد سُيّاحٌ في هامينلينا، فلم يرَ إلّا أشخاصًا بملابس عاديّة يحملون أكياس التسوّق، يسيرون في الشارع. وحتّى في الشارع الرئيس كانت معظم المحالّ تعرض الطعام وموادَّ أخرى متنوّعة، من

ذلك النوع الذي يستهدف أهل البلدة أو الذين يسكنون الأكواخ الصيفيّة. على الجانب الآخر من الميدان كنيسةٌ كبيرة، وهي عبارة عن مبنى رابضٍ بسقفٍ أخضر مدوَّر يرفرف منه وإليه سربٌ من الطيور السود. وهناك نوارس بيضٌ، لا تخطئ أعينها شيئًا، تتمشّى على أرضيّة الميدان المرصوفة بالحجر.

على مقربةٍ من الميدان صفٌّ من العربات التي تبيع الخضروات والفواكه، فاشترى تسوكورو كيسَ كرز، وجلس في دكّةٍ يأكلها. مرّت فتاتان صغيرتان، في العاشرة أو الحادية عشرة من العمر وحدّقتا فيه من بعيد. ربّما لا يأتي آسيويّون كثيرون إلى هذه البلدة. كانت إحداهما طويلةً نحيفةً بيضاء البشرة، والأخرى مسمّرةً منمّشة. وكلاهما قد صفّفت شعرها في جديلتَيْن. تبسّم تسوكورو لهما.

اقتربتْ الفتاتان بحذرٍ، كالنوارس.

سألته الطويلة بالإنجليزية: «هل أنتَ صينيّ؟»

ـ «أنا من اليابان. بلدٌ قريبٌ من الصين لكنّه مختلف».

لم يبدُ أنّهما استوعبتا ما يقوله. فسألهما: «هل أنتما روسيّتان؟»

هزّتا رأسَيْهما نفيًا.

وقالت الفتاة المنمّشة بجدّيّة: «نحن فنلنديّتان».

ـ «هذا ما أقصده. بلدٌ قريبٌ لكنّه مختلف».

فأومأتْ الفتاتان.

سألته المنمّشة كأنّما تجرّب تركيب الجملة الإنجليزيّة: «وماذا تفعل هنا؟». لعلّها كانت تدرس الإنجليزيّة في المدرسة، فأرادت تجربة الجملة مع شخصٍ أجنبيّ.

- «جئتُ أزور صديقًا».

فسألته الطويلة: «وكم ساعةً استغرقتكْ الرحلة من اليابان إلى هنا؟»

- «إحدى عشرة ساعة بالطيّارة. في أثناء ذلك، تناولتُ وجبتَيْن وشاهدتُ فيلمًا واحدًا».

- «أيّ فيلم؟»

- «الجزء الثاني عشر من داي هارد».

بدا أنّهما اكتفيتا بذلك، فانسلّتا في الميدان يدًا بيد، ترفرف تنّورتاهما مثل أعشابٍ تذروها الرياح، من دون أن يتركن انطباعاتٍ أو حِكَمٍ عن الحياة. فعاد تسوكورو إلى طعامه.

وصل إلى الكوخ عند الواحدة والنصف. ولم يكن الوصول سهلًا كما توقّعت أولغا، فالمسار المؤدّي إلى الكوخ لا يمكن أن يُسمّى طريقًا. ولولا رجلٌ مسنٌّ طيّبٌ لربّما ظلّ تسوكورو يطوف في أرجاء البلدة من دون نتيجة.

كان قد توقّف بسيّارته في جانب الطريق ينظر إلى خريطة غوغل، لا يدري إلى أين ينبغي له المسير، فتوقّف شيخٌ ضئيلُ البنية يمتطي درّاجةً كي يساعده. كان الشيخ يرتدي قبّعةً قماشيّةً مهترئة، وحذاءيْن مطّاطيّيْن طويلَيْن. عيناه محتقنتان، والشعر الأبيض قد خرج من أذنَيْه. كان في سيمائه شيءٌ من الغضب. أراه تسوكورو الخريطة وقال إنّه يبحث عن كوخ أسرة هاتاينن.

فقال له الشّيخ بالألمانيّة أوّلًا، ثمّ انتقل إلى الإنجليزيّة: «إنّه قريبٌ من هنا. سأدلّك عليه». أسند درّاجته الثقيلة كما يبدو عليها

إلى شجرةٍ قريبة، ثمّ قفز في مقعد السيّارة من دون أن ينتظر ردًّا. أشار بأصابعه المدبّبة كجَذعات الشجر القديمة إلى الطريق الذي ينبغي لتسوكورو أن يسلكه. فثمّة طريقٌ غير مرصوفٍ على طول البحيرة يقطع الغابة، ليس طريقًا بقدر ما هو مسارٌ نحتَتْه آثار العجلات، وقد نبت عشبٌ أخضر كثيفٌ بين الأخدودَيْن. ثمّ ينتهي هذا المسار بمفترقٍ، عنده لافتاتٍ مطليّةٍ مسمّرةٍ في الشجر. وإلى اليمين لافتةٌ كتُب عليها هاتاينن.

سارا في المسار الأيمن إلى أن وصلا إلى مكانٍ مفتوحٍ تُرى منه البحيرة عبر جذوع البتولا البيضاء. ثمّة رصيفٌ بحريٌّ صغيرٌ وقارب صيدٍ بسيطٍ بلون الخردل مربوطٌ به. إلى جانب ذلك، كوخٌ خشبيٌّ صغيرٌ محاطٌ بأشجار، وفي سقفه مدخّنةٌ مربّعةٌ من الطوب. وعند الكوخ سيّارة «رينو» بيضاء كبيرة.

قال الشّيخ بنبرةٍ جادّة: «ذاك كوخ هاتاينن». تأكّد من إحكام القبّعة على رأسه، وكأنّه على وشك أن يدخل في عاصفةٍ جليديّة، ثمّ بصق كتلةً من البلغم على الأرض، بلغمًا صلبًا كالصخر.

شكره تسوكورو، وقال: «سأعيدك إلى المكان الذي تركتَ فيه الدرّاجة. أعرف الآن كيف أصل إلى هنا».

فقال الشّيخ بملامح تبدو غاضبة: «لا، لا ضرورة لذلك. سأعود مشيًا». على الأقلّ هذا ما تخيّل تسوكورو أنّه قاله، فلم يفهم الكلمات التي قالها، لكنّها لم تبدُ فنلنديّة. وقبل أن يمدّ يده لمصافحته، كان الرجل قد خرج من السيّارة وابتعد من دون أن ينظر خلفه، كقابض الأرواح الذي دلّ ميّتًا على طريق الجحيم.

جلس تسوكورو في سيّارته الواقفة في العشب قرب المسار، ونظر إلى الشّيخ وهو يبتعد. ثمّ خرج من السيّارة وأخذ نفَسًا عميقًا. بدا الهواء هنا أنقى من هواء هلسنكي، وكأنّه صُنع لتوّه، طازجًا. ثمّة نسيمٌ لطيفٌ يحرّك الأوراق في أشجار البتولا، فيما يصدر القارب قرقعةً من حينٍ إلى آخر وهو يصطدم بالرصيف. طيورٌ تصيح في مكانٍ قريب، صيحاتٍ قصيرةٍ، واضحة.

نظر تسوكورو في ساعته. أتراهم فرغوا من غدائهم؟ تردّد قليلًا، لكنّه لم يكن لديْه شيءٌ آخر يفعله، فقرّر أنّ الوقت قد حان للزيارة. سار نحو الكوخ مباشرةً، يدوس على العشب في طريقه. هناك في رواق البيت، نهض كلبٌ كان يقضي قيلولته، وحدّق فيه. كلبٌ صغيرٌ بنّيّ اللّون طويل الشعر. نبح عدّة مرّات، ورغم أنّه لم يكن مقيّدًا إلّا أنّ نباحه لم يكن مخيفًا، فاستمرّ تسوكورو في طريقه.

بدا أنّ رجلًا تنبّه على نباح الكلب ففتح الباب، وأخذ ينظر. كانت لديْه لحيةٌ كاملةٌ شقراء داكنة، ويبدو في منتصف الأربعينيّات. متوسّط الطول، برقبةٍ طويلةٍ وكتفَيْن عريضَيْن، كأنّه علّاقة ثيابٍ كبيرة. شعرُه متشابكٌ يطابق في لونه لون لحيته، وأذناه ناتئتان. يرتدي قميصًا قصير الكمّين بِنَسق المربّعات، وبنطالًا من الجينز. أسند يده على مقبض الباب، ونظر إلى تسوكورو وهو يقترب، ثمّ صاح باسم الكلب لكي يتوقّف عن النباح.

قال له تسوكورو بالإنجليزيّة: «مرحبًا».

وأجاب الرجل باليابانيّة: «كونيتشي وا».

ردّ تسوكورو باليابانيّة: «كونيتشي وا. هل هذا منزل أسرة هاتاينن؟»

فأجابه بيابانيّةٍ طليقة: «نعم. أنا إدڤارد هاتاينن».

وصل تسوكورو إلى درَجات الرواق ومدَّ يده، فمدَّ الرجل يده وتصافحا.

ـ «اسمي تسوكورو تازاكي».

ـ «تسوكورو، بمعنى الذي يصنع الأشياء؟»

ـ «نعم بالضبط».

تبسَّم الرجل، وقال: «أنا أصنع الأشياء أيضًا».

ـ «جميلٌ. وأنا كذلك».

هرول الكلب وفرك رأسه في ساق الرجل، ثمَّ قرَّر أنَّه لن يخسر شيئًا لو فعل الشيء نفسه بساق تسوكورو. الأكيد أنَّ هذه كانت طريقته في تحيَّة الزوّار. مدَّ تسوكورو يده وربَّت على رأسه.

ـ «وماذا تصنع سيِّد تازاكي؟»

ـ «محطّات القطار».

ـ «أها. هل تعلم أنَّ أوَّل سكة حديدٍ في فنلندا كانت بين هلسنكي وهامينلينا؟ لهذا السَّبب يفخر الأهالي هنا بمحطَّتهم، فخرهم بمولد جان سيبيليوس في بلدتهم. لقد جئت إلى المكان الصحيح».

ـ «حقًّا. لم أكن أعرف ذلك. وأنت ماذا تصنع يا إدڤارد؟»

ـ «الفخاريَّات. أشياء صغيرة طبعًا مقارنةً بمحطَّات القطار. تفضَّل سيِّد تازاكي».

ـ «أليس في ذلك إزعاجٌ لكم؟»

قال وهو يفتح ذراعَيْه: «أبدًا. نحن نرحِّب بالجميع هنا. وأعتبر الذين يصنعون الأشياء كلُّهم زملائي، فلهم مزيدٌ من الترحيب».

لم يكن هناك أحدٌ في الكوخ. على الطاولة فنجان قهوةٍ وكتابٌ بالفنلنديّة مفتوح. يبدو أنّه كان يشرب قهوة ما بعد الغداء وهو يقرأ. أشار لتسوكورو بالجلوس على كرسيّ، وجلس قبالته. ثمّ أدخل فاصلًا في الكتاب وأغلقه، ونحّاه جانبًا.

- «ما رأيك بفنجان قهوة؟»

- «رائع. شكرًا لك».

سار إدڤارد إلى آلة القهوة وصبَّ قهوةً ساخنةً في كوب، ووضعه أمام تسوكورو. «هل ترغب في سكّر أو كريمة؟»

- «لا، القهوة السادة مناسبة».

كان الكوب قشديّ اللّون، يدويّ الصنع. شكلُه غريب، بمقبضٍ مشوّه لكنّه سهل الاستخدام، يترك في المرء شعورًا حميميًّا أليفًا، مثل نكتةٍ دافئةٍ لا يعرفها إلّا أهل البيت.

قال إدڤارد مبتسمًا: «ابنتي الكبرى هي التي صنعت هذا الكوب. لكنّني أنا بالطبع وضعتُه في التنّور».

اللونُ في عينيْه رماديٌّ فاتح، يناسب لون شعره ولحيته. استلطفه تسوكورو من الوهلة الأولى، وبدا له أنسب لحياة الغابة والبحيرة منه إلى حياة المدينة.

- «أعتقد أنّك جئت لمقابلة إري، صحيح؟»

- «صحيح. جئت لمقابلة إري. هل هي موجودة؟»

أومأ له إدڤارد. «خرجت تمشي مع البنتَيْن بعد الغداء، غالبًا على ضفّة البحيرة. هناك ممشى رائع. والكلب دائمًا يسبقهم إلى البيت، لذلك يُفترض أن يصلوا قريبًا».

قال تسوكورو: «لغتك اليابانيّة ممتازة».

ـ «عشتُ في اليابان خمس سنوات، في «غيفو» و«ناغويا»، لدراسة الفخّاريّات اليابانيّة. وهناك لا يمكنك أن تفعل شيئًا إن لم تتعلّم اليابانيّة».

ـ «وهناك التقيتَ إري؟»

فضحك إدڤارد بمرحٍ، وقال: «نعم. وقعتُ في هواها مباشرةً. أقمنا حفل زفافٍ قبل ثماني سنوات في ناغويا، ثمّ انتقلنا إلى فنلندا. وأنا الآن متفرّغٌ لصناعة الفخّاريّات. بعد عودتنا إلى فنلندا، عملتُ فترةً مصمّمًا في «شركة الجزيرة العربيّة»، لكنّي أردتُ أن أعمل وحدي، فقرّرتُ قبل عامَيْن أن أعمل مستقلًّا. كما أنّي أدرّس محاضرتَيْن في الأسبوع في كلّيةٍ في هلسنكي».

ـ «وهل تقضون كلّ صيفٍ هنا؟»

ـ «نعم. نسكن هنا منذ بداية تموز/يوليو حتّى منتصف آب/أغسطس. ولديَّ أنا وأصدقائي شقّةٌ صغيرةٌ أعمل فيها منذ الصباح الباكر، لكنّي دائمًا ما أعود لتناول الغداء هنا. وأقضي فترة العصر في أغلب الأيّام مع أسرتي، في المشي والقراءة. ونذهب للصيد أحيانًا».

ـ «المكان جميلٌ هنا».

فابتسم إدڤارد في سعادة، وقال: «شكرًا. المكان هادئ جدًّا، وأستطيع أن أنجز فيه الكثير من الأعمال. نحن نعيش حياةً بسيطةً هنا. والطفلتان أيضًا تحبّان المكان. تستمتعان بالطبيعة».

على واحدٍ من جدران الجصّ البيض رفٌّ خشبيٌّ يمتدّ من الأرض حتى السقف، وُضعت عليه فخاريّات من الواضح أنّها من صنعه،

وهي الزخرفة الوحيدة في الغرفة. على جدارٍ آخر، عُلِّقت ساعةٌ مدوَّرة، ومسجِّلة، ومجموعة أقراص، ودولابٌ خشبيٌّ متينٌ قديم.

قال إدڤارد بفخر: «ثلاثون بالمئة تقريبًا من تلك الفخاريّات صنعتْها إري. إنّها موهوبةٌ بالفطرة، وهذا واضحٌ في فخاريّاتها. نبيع أعمالنا في بعض المحالّ في هلسنكي، وفي بعض تلك المحالّ، تُطلب فخاريّاتها أكثر من فخاريّاتي».

فوجئ تسوكورو قليلًا؛ فتلك أوّل مرّةٍ يسمع فيها أنّ كورو مهتمّةٌ بالفخاريّات. «لم أكن أعرف أنّ لديْها اهتمامًا بالفخاريّات».

ـ «بدأتْ تهتمّ بها بعد بلوغها العشرين، وبعد أن تخرَّجتْ عادت للدراسة مرّةً أخرى في كلّيّة أيتشي للفنون، في قسم الفنون الصناعيّة».

ـ «حقًّا؟ معرفتي بها كانت في سنّ المراهقة فقط».

ـ «هل أنتَ صديقها من المدرسة الثانويّة؟»

ـ «نعم».

أعاد إدڤارد نطق اسمه، قاطبًا جبينه وباحثًا في ذاكرته: «أتدري، أذكر فعلًا أنّ إري تحدّثت عنك. كنتَ واحدًا من أفراد المجموعة الخماسيّة، صحيح؟»

ـ «نعم، صحيح. كنّا جميعًا ننتمي إلى مجموعة».

ـ «ثلاثةٌ من أفراد تلك المجموعة حضروا زفافنا في ناغويا. أعتقد أنّ أسماءهم كانت أكا وشيرو وأو. كلُّهم مفعمون بالألوان».

ـ «صحيح. للأسف لم أتمكّن من حضور الزفاف».

فقال بابتسامةٍ ودودة: «لكنّنا التقينا هنا». رفرفت لحيته الطويلة على وجنتيْه، كاختلاج النار الأليفة في مخيّم. «هل جئت إلى فنلندا في رحلة عملٍ سيّد تازاكي؟»

فأجاب: «نعم». قولُ الحقيقة سيستغرق وقتًا طويلًا. «كنتُ في رحلةٍ إلى هلسنكي، وخطر لي أن أزور إري بما أنّي لم أرها منذ فترةٍ طويلة. أعتذر لأنّي لم أبلغكم بقدومي، وأرجو ألّا أكون قد سبَّبت لكم أيّ إزعاج».

ـ «على الإطلاق. لقد قطعتَ مسافةً طويلة، ونحن سعداء بوجودك. من حسن الحظّ أنّي بقيتُ في البيت. وأنا واثقٌ من أنّ إري ستسعد كثيرًا برؤيتك».

فقالت تسوكورو لنفسه: أرجو أن يَصدق كلامك.

ثمّ أشار إلى الفخاريّات، وقال: «هل لي أن ألقي نظرةً على فخاريّاتك؟»

ـ «طبعًا. عاينها كما تحبّ. أعمالي وأعمال إري مختلطةٌ هناك، لكنّي واثقٌ من أنّك ستميّز بينها من دون أن أخبرك».

سار تسوكورو إلى الرفّ وتفحّص الفخاريّات واحدًا بعد الآخر. كانت معظمها آنية: صحونًا وطاساتٍ وأكواب. بالإضافة إلى المزهريّات والجرار.

صَدَق إدڤارد؛ فقد استطاع تسوكورو أن يميّز فخاريّاته من النظرة الأولى. فتلك التي لها لمسةٌ ناعمةٌ وألوانٌ فاتحة كانت أعمال إدڤارد. على السطح تكون الألوان أغمق أو أفتح، في تدرُّجٍ خفيفٍ مثل هبوب الريح أو تدفُّق الماء. لا توجد قطعةٌ ذات تصميم مضاف؛ فتغيُّر اللون نفسه هو النسق. ورغم أنّ تسوكورو لا يملك أيّ خبرةٍ في الفخاريّات، إلّا أنّه أدرك أنّ التلوين بهذه الطريقة يتطلّب مستوى عالٍ من المهارة الفنيّة.

ثمّة غيابٌ متعمَّدٌ لأيّ زخرفةٍ خارجيّة، مع مسحةٍ ناعمةٍ مصقولة. ورغم أنّ التصاميم تنتمي إلى فنّ أوروبا الشماليّة، إلّا أنّ بساطتها تكشف التأثير الواضح للفخاريّات اليابانيّة. كانت خفيفةً جدًّا، يشعر بها المرءُ طبيعيّةً وملائمةً في يده. لقد أولى إدڤارد عنايةً كبيرةً بالتفاصيل، فخرج بأعمالٍ لا تصدر إلّا عن أمهر الحرفيّين. لم يكن ليستطيع أن يُظهر هذا النوع من المهارة وهو يعمل في شركةٍ كبيرةٍ تتعامل بالتصنيع التجاريّ الكبير.

كان أسلوب إري أبسط، مقارنةً بأسلوب إدڤارد، لا يصل إلى الرهافة الدقيقة في إبداعات زوجها. بشكلٍ عام، ثمّة مسحةٌ مترفةٌ مكتنزةٌ في فخاريّاتها، فالحوافّ قليلة الانحناء، مع غيابٍ لأيّ جماليّةٍ مركّزةٍ مصقولة. غير أنّ لفخاريّاتها دفءً غير معهود، يضفي حسًّا بالراحة والسلوان. ثمّة شذوذات خفيفة، وملمسٌ خشنٌ يضيف حسًّا من الهدوء، كما يحسّ المرء حين يلمس نسيجًا طبيعيًّا، أو يجلس في رواقٍ يرقب السحب وهي تمرّ.

فخاريّات إري بها أنساق، كأوراقٍ تذروها الرياح مثلًا. في بعض الحالات، يكون التصميم متناثرًا، وفي حالات أخرى، يكون مجتمعًا في بقعةٍ واحدة. تبدو الفخاريّات حزينةً أو ذكيّةً أو حتّى صارخة، وفقًا لتوزيع التصميم فيها. فلمّا رأى تسوكورو تصاميمها الأنيقة تذكّر تلك الأنساق الراقية على أزياء الكيمونو القديمة. أخذ ينظر مليًّا في كلّ قطعةٍ، يحاول أن يفكّ شفرة التصميم، لكنّه لم يستطع أن يحدّد دلالته. كانت أشكالًا غريبةً، فريدة. حين ابتعد قليلًا، رأى أوراقًا منثورةً على أرض غابة، تدوسها حيواناتٌ تشقّ طريقها خفيةً في الغابة، في هدوء.

في فخاريّات إري، كان اللون مجرّد خلفيّة، لا هدف له إلّا أن يبرز التصميم، وينفخ فيه الحياة. هكذا تكون الألوانُ خلفيّةً للتصميم بخفّةٍ، وكتمان، ولكن على نحوٍ فاعل.

التقط تسوكورو فخاريّات إدڤارد ثمّ إري، مقارنًا بينها. لا بدّ من أنّ الزوجيْن يعيشان في توازنٍ جميلٍ في حياتهما الحقيقيّة أيضًا. فالفرق البديع في إبداعاتهما الفنّيّة يشير إلى ذلك. لهما أسلوبان مختلفان تمامًا، ولكنْ يبدو أنّ كلًا منهما يتقبّل السمات المميّزة عند الآخر.

قال إدڤارد وهو ينظر إلى ردّ فعل تسوكورو: «قد لا يجوز لي أن أُكثر من مدح أعمالها، بما أنّي زوجها. ماذا تسمّون هذا باليابانيّة؟ محاباة؟ هل هي الكلمة الصحيحة؟»

فابتسم تسوكورو، لكنّه لم يقل شيئًا.

ـ «أنا أحبّ أعمال إري فعلًا، ولا أقول هذا لأنّي زوجها. هناك كثيرون في العالم يصنعون فخاريّات أجمل وأفضل، لكنّ إبداعاتها ليست محدودةً بأيّ شكلٍ من الأشكال. فبإمكانك أن تشعر بعواطف باذخةٍ فيها. أتمنّى لو كنتُ أستطيع شرح الأمر شرحًا أفضل».

فقال تسوكورو: «أفهم ما تعنيه تمامًا».

قال وهو يشير إلى السقف: «أعتقد أنّ شيئًا كهذا ليس إلّا هبةً من السماء. ولا شكّ لديّ في أنّ مهارتها ستكبر بمرور الزمن. ما تزال لدى إري إمكانات أكثر».

في الخارج، نبحَ الكلبُ نباحًا من نوعٍ خاصّ، ودود.

فقال إدڤارد وهو ينظر في ذلك الاتّجاه: «عادت إري والبنتان». ثمّ نهض وسار نحو الباب.

أعاد تسوكورو قطعة إري إلى الرفّ بعناية، ووقف هناك، في انتظارها.

-16-

حين أبصرته كورو أوّل مرّةٍ، بدت وكأنّها لا تفهم ما يدور حولها. تلاشى التعبير في وجهها، وحلّت مكانه نظرةٌ فارغة. رفعتْ نظّارتها الشمسيّة إلى رأسها، وأخذتْ تحدّق في تسوكورو دون أن تنطق بكلمة. كانت قد خرجت تمشي مع ابنتَيْها بعد الغداء، ثمّ عادت فوجدت رجلًا (يبدو يابانيًّا من ملامحه) يقف إلى جانب زوجها. وجهًا لم تتعرّف عليه.

كانت تمسك بيد ابنتها الصغرى، التي تبدو في الثالثة من عمرها. وإلى جانبها تقف ابنتها الكبرى، التي قد تكون أكبر من أختها بعامَيْن أو ثلاثة. كانت البنتان ترتديان فستانَيْن متطابقَيْن عليهما صور أزهار، مع نعالٍ بلاستيكيّة. ظلّ الباب مفتوحًا، والكلب في الخارج ما يزال ينبح. فأخرج إدڤارد رأسه ونَهَر الكلب الذي سرعان ما توقّف عن النباح واستلقى في الرواق. أمّا البنتان فقد وقفتا في صمتٍ، مثل أمّهما، تحدّقان في تسوكورو.

لم تتغيّر كورو كثيرًا عن شكلها الذي رآه في آخر مرّةٍ، قبل ستّ عشرة سنة. توارت سيماؤها الناعمة في سنوات المراهقة، وحلّت في

مكانها معالم أخرى أكثر تعبيرًا ومباشرة. كانت دائمًا قويَّةً متينة، لكنَّ عينَيْها الحازمتَيْن صارتا أكثر تعمُّقًا. لا بدَّ من أنَّ هاتيْن العينَيْن قد رأتا أشياء كثيرة على مرّ السنين، أشياء ظلَّت قابعةً في قلبها. شفتاها مزمومتان، وثمّة سُمرةٌ لطيفةٌ في جبينها ووجنتَيْها. شعرها الأسود الوفير يسقط على كتفَيْها، وقد شبكتْ شعر قذالها بمشبكٍ إلى الخلف، أمّا نهداها فقد صارا ممتلئَيْن أكثر من ذي قبل. كانت ترتدي فستانًا قطنيًّا أزرق، ووشاحًا قشديّ اللّون على كتفَيْها، مع حذاءَيْن رياضيَّيْن باللون الأبيض.

التفتتْ كورو إلى زوجها كمن يبحث عن تفسير، لكنَّ إدڤارد لم يقل شيئًا، واكتفى بهزّ رأسه. ثمَّ التفتتْ إلى تسوكورو وعضّت شفتها قليلًا.

رأى تسوكورو أمامه جسد امرأةٍ اتَّخذت مسارًا مختلفًا كلّ الاختلاف عن مساره في الحياة. فجأةً حطَّ عليه حِمل السنوات الست عشرة، فأثقله. وأدرك أنَّ هنالك أشياء لا يمكن التعبير عنها إلّا في جسد المرأة.

كان وجهها مُجهدًا وهي تحدِّق فيه. اختلجتْ شفتاها، كأنَّما مرَّت بهما موجةٌ، وارتفع جانبٌ من فمها. ثمَّ ظهرتْ غمَّازةٌ صغيرةٌ على خدِّها الأيمن، أو بالأحرى لم تكن غمَّازةً بل تجويفًا ضحلًا ظهرَ حين امتلأ وجهُها بمرارةٍ بهيجة. تذكَّر تسوكورو هذا التعبير جيِّدًا، التعبير الذي يظهر في وجهها حين توشك أن تلقي بتعليقٍ ساخر. لكنَّها الآن لم تكن تريد أن تقول شيئًا ساخرًا، بل تحاول أن تقرِّب منها فرضيَّةً تبدو بعيدة.

ثمَّ قالت أخيرًا وهي تُعَنون تلك الفرضيَّة: «تسوكورو؟»

فأومأ لها.

أوّل ما فعلتْه كان أن جرّت ابنتها إليها، وكأنّها تحميها من خطر. كان وجه البنت الصغرى ما يزال ينظر للأعلى نحو تسوكورو، لكنّها تشبّثت بأمّها. أمّا البنت الكبرى فظلّت في مكانها، من دون حراك. اقترب إدڤارد منها وربّت على شعرها بحنان. كان شعرها أشقر داكنًا، أمّا شعر أختها فكان أسود.

ظلّ الخمسة على حالهم برهةً، لا ينطقون بكلمة. إدڤارد يربّت على شعر ابنته الشقراء، فيما تضع كورو ذراعها حول كتفي ابنتها الصغرى، وتسوكورو واقفٌ وحيدًا على الجانب الآخر من الطاولة، وكأنّهم متّخذون وضعًا لرسم لوحة. أمّا الشّكل المركزيّ في تلك اللّوحة فكان كورو، أو بالأحرى جسمها.

كانت كورو أوّل من تحرّك منهم. تركتْ ابنتها الصغرى، ورفعت نظّارتها عن جبينها ووضعتْها فوق الطاولة، ثمّ التقطت الكوب الذي كان يشرب منه زوجها، وأخذتْ رشفةً من القهوة الباردة. ثمّ عبست وكأنّها لا تعرف ما الذي شربتْه.

سألها زوجها باليابانيّة: «هل أعدّ لكِ قهوة؟»

فقالت من دون أن تنظر صوبه: «من فضلك». وجلستْ إلى الطاولة.

سار إدڤارد نحو آلة القهوة، وسخّن القهوة مرّةً أخرى. أمّا البنتان فجلستا فوق دكّةٍ خشبيّةٍ قرب النافذة، تحدّقان في تسوكورو.

قالت كورو بصوتٍ خفيض: «هل هذا أنت فعلًا يا تسوكورو؟»

- «بشحمي ولحمي».

ضيّقتْ عينَيْها وحدّقت في عينَيْه.

فقال: «تبدين وكأنّك قد رأيتِ شبحًا». كان يريد لها أن تكون دعابةً، لكنّها لم تبدُ كذلك.

فقالت بنبرةٍ جافّة: «تغيّر شكلُك كثيرًا».

ـ «كلّ من رآني بعد مدّةٍ قال ذلك».

ـ «أصبحتَ نحيفًا جدًا، و... كبيرًا».

ـ «لأنّني فعلًا كبرت».

ـ «نعم».

ـ «أمّا أنتِ فلم تتغيّري على الإطلاق».

فهزّت رأسها قليلًا من دون أن تردّ.

أحضر لها زوجها القهوة في كوبٍ صغيرٍ من صنعها، ووضعه على الطاولة. أضافتْ كورو ملعقة سكّر، وحرّكته، ثمّ ارتشفتْ من القهوة الساخنة بحذر.

قال إدڤارد بمرح: «سآخذ الطفلتَيْن معي. نحتاج إلى بعض الأغراض، وعليّ أن أعبّئ السيّارة بالبنزين».

فنظرتْ إليه كورو وأومأت. «طيّب، شكرًا».

سألها: «هل تريدين شيئًا؟»

فهزّت رأسها بصمت.

وضع إدڤارد محفظته في جيبه، وتناول مفاتيح من مشجبٍ على الجدار، وقال شيئًا لابنتَيْه بالفنلنديّة. فابتسمت البنتان وقفزتا من الدكّة. سمع تسوكورو كلمة «آيس كريم»، إذْ يبدو أنّه وعد ابنتَيْه بشراء آيس كريم لهما.

وقف كورو وتسوكورو على الرواق ينظران إلى إدفارد والبنتَيْن وهم يركبون سيّارة «الرينو». وفتح إدفارد الباب الخلفيّ، وصفّر قليلًا، فأسرع الكلب في حماسٍ وقفز إلى الداخل. ثمّ أخرج إدفارد رأسه من نافذة السائق ولوّح بيده، واختفت السيّارة البيضاء وراء الأشجار. وظلّ تسوكورو وكورو في مكانهما، ينظران إلى حيث كانت السيّارة قبل أن تختفي عن الأنظار.

أشارت إلى السيّارة الكحليّة الصغيرة، وسألتْه: «أنتَ الذي قدتَ سيّارة الغولف إلى هنا؟»

- «نعم. جئتُ بها من هلسنكي».

- «وما الذي جعلك تقطع كلّ هذه المسافة إلى هلسنكي؟»

- «جئتُ لرؤيتك».

ضاقتْ عيناها وحدّقتْ فيه، كأنّما تحاول أن تفكّ شفرة رسمٍ بيانيٍّ صعب.

- «قطعتَ كلّ هذه المسافة إلى فنلندا لرؤيتي؟ لرؤيتي فقط؟»

- «بالضبط».

فسألتْه بدهشة: «بعد ست عشرة سنة، ومن دون أيّ تواصل؟»

- «في الواقع، حبيبتي هي التي طلبتْ إليّ أن آتي إلى هنا. قالت لقد حان الوقت لكي أقابلك».

ظهرَ التقوّس المعهود في شفتَيْ كورو، وبدت قريبةً من المزاح. «آه، حبيبتك قالت إنّ الوقت قد حان لكي تقابلني، فركبتَ طيّارةً من ناريتا وقطعتَ هذا المشوار إلى فنلندا. من دون أن تتواصل معي، ومن دون أيّ تأكيدٍ على أنّي سأكون موجودةً أصلًا».

لزم تسوكورو الصمت، وظلّ القارب يدقّ في الرصيف، لا بسبب الريح، بل بدافع أمواجٍ متناثرةٍ على البحيرة.

ـ «خشيتُ أنّي لو تواصلتُ معك قبل قدومي، لن تقابليني».

قالت متفاجئةً: «كيف يخطر هذا في بالك؟ نحن صديقان».

ـ «كنّا صديقَيْن. لكنّي لم أَعُد واثقًا».

حدّقتْ في البحيرة عبر الأشجار وأطلقتْ تنهيدةً صامتة. «لن يعودوا من البلدة قبل ساعتَيْن. لنستغلّ الوقت ونتحدّث».

دخلا البيت وجلسا متقابلَيْن إلى الطاولة. وأزالت المشبك، فسقط شعرها على جبينها، فبدت أقرب إلى كورو التي يتذكّرها.

قالت كورو: «عندي طلبٌ واحد. لا تسمّني كورو. أفضّل أن تسمّيني إري. ولا تسمّ يوزوكي باسم شيرو. من فضلك. لا أريد أن تستخدم هذَيْن الاسمَيْن لنا».

ـ «هل انتهت تلك الأسماء؟»

فأومأتْ له.

ـ «ولكنْ لا مشكلة لديْكِ في أن تسمّيني تسوكورو».

فقالت وهي تضحك: «أنتَ دائمًا تسوكورو. لذلك لا مشكلة عندي. تسوكورو الذي يصنع الأشياء. تسوكورو تازاكي عديم اللون».

ـ «في شهر أيار/مايو الماضي ذهبتُ إلى ناغويا، والتقيتُ أكا و أو، كلًا على حدة. هل يمكنني أن أستخدم هذَيْن الاسمَيْن لهما؟»

ـ «لا بأس. لكنّي أريدك أن تستخدم اسمي الحقيقيّ واسم يوزو».

ـ «قابلتُ كلًّا منهما وتحدّثنا، ولكن ليس مطوّلًا».

- «هل هما بخير؟»

- «يبدو كذلك. وأعمالهما تسير على ما يرام أيضًا».

- «إذن ما يزال أو مشغولًا في ناغويا الحبيبة يبيع سيّارات اللكزس، بينما يعمل أكا في تدريب موظّفي الشركات».

- «نعم، هذه هي الخلاصة تقريبًا».

- «وماذا عنك؟ هل أمورك على ما يرام؟»

- «نعم. أعمل في شركةٍ لسكك الحديد في طوكيو، وأبني محطّات القطار».

- «أتدري، سمعتُ ذلك قبل فترةٍ ليست طويلة. سمعتُ أنّ تسوكورو تازاكي مشغولٌ ببناء المحطّات في طوكيو، وأنّ لديْه حبيبةً ذكيّةً جدًّا».

- «في الوقت الحالي».

- «ما تزال عازبًا إذن؟»

- «نعم».

- «لطالما كنتَ هكذا، لا تتعجّل الأشياء».

سكت تسوكورو.

- «في أيّ شيءٍ تحدّثتَ معهما حين ذهبت إلى ناغويا؟»

- «تحدّثنا عمّا حدث بيننا. عمّا حدث قبل ستة عشرة عامًا، وما بعد ذلك».

- «وهل حبيبتك هي التي طلبت منك أن تلتقيهما؟»

أومأ لها تسوكورو. «قالت إنّ هنالك مسائل ينبغي لي أن أحلّها. عليّ أن أعود إلى الماضي، وإلّا ...لن أتحرّر منه».

ـ «إذن فهي تعتقد أنَّ لديْك مشكلات ينبغي لك أن تواجهها».

ـ «نعم».

ـ «وأنَّ هذه المشكلات تؤثّر سلبًا في العلاقة بينكما».

ـ «على الأرجح».

أمسكتْ إري بالكوب بين يدَيْها تختبرُ حرارته، ثمَّ أخذت رشفةً أخرى.

ـ «كم عمرها؟»

ـ «أكبر منّي بعامَيْن».

فهزّت رأسها، وقالت: «ألاحظ أنّك تنسجم جيّدًا مع المرأة الأكبر سنًّا منك».

ـ «ربّما نعم».

صمتنا برهة.

ثمّ قالت إري أخيرًا: «ثمّة أشياءُ كثيرةٌ ينبغي أن نواجهها في الحياة. ودائمًا ما يكون هناك شيءٌ يرتبط بأشياء أخرى. تحاولُ أن تحلّ مشكلةً، فتظهر مشكلةٌ أخرى لم تكن تتوقّعها. ليس من السّهل أن تتحرّر منها. وهذا يصْدق عليك.. وعليَّ أيضًا».

ـ «معك حقّ، ليس من السّهل التخلّص منها. لكنَّ هذا لا يعني أن نتركها عالقة. بوسعكِ أن تضعي غطاءً على الذاكرة، لكنّكِ لا تستطيعين إخفاء التاريخ. هذا ما قالتْه لي حبيبتي».

نهضتْ إري وسارت إلى النافذة، ففتحتْها ثمّ عادتْ إلى الطاولة. رفرفتْ الستارةُ مع النسيم القادم، وظلّ القارب يخبط في الرصيف على نحوٍ متقطّع. أعادت إري شعرها إلى الخلف بأصابعها، وأسندت يدَيْها

على الطاولة، ثمَّ نظرتْ إلى تسوكورو. «قد تكون هناك أغطيةٌ أصبحتْ شديدة الإحكام، ولم يَعُد بالإمكان إزالتها».

ـ «أنا لا أحاول أن أفعل شيئًا بالقوّة. لكنّي على الأقلّ أريد أن أرى ذلك الغطاء بعينيّ».

حملقتْ إري في يدَيْها. كانتا أكبر وأسمن من الصورة التي ظلَّت في ذاكرة تسوكورو. أصابعها طويلة، وأظافرها قصيرة. تخيّل تسوكورو تلك اليدَيْن وهما تدوران على عجلة الفخّار.

قال: «قلتِ إنّي تغيَّرت. وأنا أيضًا أرى ذلك. قبل ست عشرة سنة، حين طردتموني من المجموعة، لم أكن أفكِّر طوال خمسة شهورٍ إلّا في الموت. الموت ولا شيء غيره. لا أبالغ إن قلتُ بأنّي كنتُ أتأرجح فوق الهاوية. كنتُ واقفًا على الحافَّة، أحدِّق في المتاهة من تحتي، عاجزًا عن تحويل بصري بعيدًا. ثمَّ استطعتُ العودة إلى العالم الذي كنتُ فيه. لم يكن من المستغرب أن أموت آنذاك. كانت هناك علَّةٌ فيَّ، في عقلي. لا أعرف التشخيص الصحيح.. قلق، أو اكتئاب. شيءٌ كهذا. ولكنْ بالتَّأكيد كانت هناك علّة. لم أكن مضطربًا، بل كان عقلي صافيًا تمامًا. مستقرًّا تمامًا، من دون أيِّ تشويشٍ على الإطلاق. كانت حالةً غريبةً جدًّا».

حدَّق تسوكورو في يدَي إري الصامتتَيْن، وتابع.

ـ «بعد تلك الشهور الخمسة، تغيَّر وجهي تمامًا. وجسمي أيضًا. لم تَعُد ملابسي تلائمني. كنتُ حين أنظر في المرآة أشعر أنّي وُضعتُ في وعاءٍ ليس لي. لا أدري، ربّما تكون حياتي قد وصلتْ إلى تلك المرحلة، حيث أفقد عقلي فترةً، ويتغيَّر شكلي وجسمي. لكنَّ المحرّك

الحقيقيّ لذلك التغيُّر كان طردي من مجموعتنا. لقد غيَّرتني تلك الحادثة تمامًا».

أنصتتْ إري من دون أن تقول شيئًا.

ـ «لا أدري كيف أعبّر لك. شعرتُ كأنّي على سطح سفينةٍ في الليل، ثُمّ ألقي بي في البحر، وحدي».

وفجأةً تذكّر تسوكورو أنّ هذا هو الوصف نفسه الذي سمعه من أكا. سكت قليلًا، ثمّ تابع.

ـ «لا أعرف ما إذا شخصٌ دفعني أم أنّي وقعتُ وحسب. في كلتا الحالتيْن، تُبحر السفينة، وأنا في الماء المظلم المتجمّد، أنظر إلى أضواء السفينة تخبو في البعيد. لا أحد من الركّاب أو طاقم السفينة يعرف أنّي وقعتُ منها. لا يوجد شيءٌ أتشبّث به. ما زلتُ حتى الآن أخاف أن أُحرم فجأةً من وجودي، ويُلقى بي مرّةً أخرى في البحر من دون خطإٍ منّي. ربّما لهذا السّبب لم أستطع أن أقيم علاقاتٍ قويّةً مع الناس. كنتُ دائمًا أترك مسافةً بيني وبين الآخرين».

قال هذا وباعد بين يدَيْه فوق الطاولة، مشيرًا إلى مسافةٍ تساوي ثلاثين سنتيمترٍ تقريبًا.

ـ «لعلّه جزءٌ من شخصيّتي، شيءٌ وُلدت به. ربّما كان لديّ ميلٌ فطريٌّ إلى ترك مسافةٍ بيني وبين الآخرين. لكنّ الأكيد هو أنّ هذا لم يخطر في بالي قطّ حين كنتُ معكم في الثانويّة. هكذا أتذكّر الأمر على أيّ حال، رغم الفاصل الزمنيّ الطويل».

وضعتْ إري راحتَيْها على وجنتَيْها وفركتهما ببطء، كأنّما تغسل وجهها. «إذن تريدُ أن تعرف ما حدث قبل ستة عشر عامًا. الحقيقةَ كلّها».

ـ «نعم. ولكنْ هناك شيءٌ ينبغي أن يكون واضحًا لكِ تمامًا. أنا لم أفعل أيّ شيءٍ بشيرو. أقصد يوزو».

كفّت إري عن فرك وجهها، وقالت: «أعرف ذلك. ما كان في إمكانك أن تغتصب يوزو. هذا واضحٌ تمامًا».

ـ «لكنّكِ صدّقتِها، منذ البداية. مثلما صدّقها أو وأكا».

فهزّت رأسها، وقالت: «لا، لم أصدّقها منذ البداية. لا أعرف ما دار في بال أكا وأو، لكنّي لم أصدّق. وكيف لي أن أصدّق؟ لا يمكن بحالٍ من الأحوال أن تفعل هذا».

ـ «فلماذا إذن...؟»

ـ «لماذا أطعتُ يوزو وطردتكَ من المجموعة؟ لماذا لم أدافع عنك؟ هذا سؤالك؟»

أومأ تسوكورو.

ـ «كان عليّ أن أحميها. ولكي أفعل ذلك توجّبَ عليّ طردُك. كان من المستحيل أن أحميك وأحميها في الوقت نفسه. لا بدّ من أن أقبل واحدًا منكما وأقف معه، وأصدّ الآخر تمامًا».

ـ «تقصدين أنّ حالتها النفسيّة كانت حرجةً للغاية؟»

ـ «نعم، بالتّأكيد. كانت في الحقيقة محصورةً في زاوية. ولا بدّ من أن يحميها أحدٌ ما. وكنتُ أنا الشخص الوحيد الذي يمكنه فعل ذلك».

ـ «كان بإمكانكِ أن تشرحي لي الأمر».

فهزّت رأسها ببطءٍ عدّة مرّات. «لم يكن هناك أي مجالٍ للشرح آنذاك. فما عساي أقول؟ تسوكورو، من فضلك نودُّ أن نقول (ولو

مؤقّتًا) إنّك اغتصبتَ يوزو. لا بدَّ من فعل ذلك الآن. فهي تشكو من علّة، وعلينا أن نرعاها. تصبّر، وسوف تتعدَّل الأمور لاحقًا. لا أدري، ربَّما بعد سنتيْن. لم يكن بالإمكان أن أقول شيئًا كهذا. كنتُ أدرك أنَّ ما أفعله خطأ، لكنّي اضطُررتُ إلى تركك تواجه الأمر بنفسك. كان التوتُّر شديدًا آنذاك. ولكنْ عليك أن تعرف شيئًا، فقد اغتُصبت يوزو فعلًا».

نظر إليها تسوكورو في ذهول. «ومن فعل ذلك بها؟»

هزّت رأسها مرّةً أخرى. «لا أعلم. لكنَّ شخصًا أجبرها على الجنس. كانت حُبلى، وأكّدت أنّك أنتَ من اغتصبها. قالت بوضوحٍ إنَّ تسوكورو تازاكي هو الذي فعل ذلك. وصفتْ لنا الأمر بتفاصيل واقعيّة، فلم يكن في وسعنا إلّا أن نقبل ما قالتْه، رغم أنّنا في دواخلنا كنّا نعلم استحالة أن تفعل ذلك».

ـ «كانت حُبلى؟»

ـ «نعم. بكلّ تأكيد. فقد ذهبتُ إلى الطبيب معها. ذهبنا إلى طبيبٍ بعيد، وليس إلى عيادة والدها طبعًا».

تنهّد تسوكورو. «وبعد ذلك؟»

ـ «حدثتْ أشياء كثيرة، وفي نهاية الصيف أسقطتْ الجنين، وانتهى الأمر. لم يكن حملًا كاذبًا. كانت حُبلى فعلًا، وأسقطت جنينها بالفعل. أوكّد لك ذلك».

ـ «أسقطت الجنين؟ تقصدين...».

ـ «نعم. كانت تريد أن تحتفظ بالطفل وتربّيه. لم تفكّر قطّ في الإجهاض، فلم يكن في مقدورها أن تقتل كائنًا حيًّا، مهما كانت الظروف.

أظنّك تذكر شخصيّتها، أليس كذلك؟ كانت تكره في والدها أنّه يسمح بتلك العمليّات في عيادته. وكثيرًا ما تجادلنا في هذا الأمر».

- «وهل هناك أحدٌ يعرف أنّها كانت حُبلى وأسقطت؟»

- «أنا، وأختها الكبيرة. كانت من النوع الذي يحفظ السرّ، وقد دبّرت مبلغًا من المال ليوزو. ولا أحد غيرنا. لم يعرف أبواها بالأمر، ولا أكا ولا أو. كان هذا سرّنا نحن الثلاثة، ولكنْ أعتقد أنّه لا بأس بكشف السرّ الآن، لا سيّما لك أنت».

- «وظلّت يوزو متمسّكةً بقولها إنّني أنا من فعل ذلك بها؟»

- «نعم، تمسّكت به جدًّا».

ضيّق تسوكورو عينَيْه وحدّق في كوب القهوة الذي تمسك به إري. «ولكن لماذا؟ لماذا قالت إنّني أنا من فعل ذلك؟ لا أستطيع أن أجد سببًا واحدًا».

- «بالفعل لا أدري. بإمكاني أن أتصوّر عددًا من الاحتمالات، لكنّي لا أجد أيًّا منها مقنعًا. لا يمكنني تفسير الأمر. السّبب المنطقيّ الوحيد الذي يطرأ في بالي هو أنّني كنتُ مُعجبةً بك. ربّما كان هذا هو الدافع».

نظر إليها تسوكور في دهشة. «كنتِ أنتِ معجبةً بي؟»

- «أولم تكن تدري؟»

- «كلّا بالطبع».

ابتسمتْ إري ابتسامةً ملتويةً، وقالت: «لا بأس في أن أخبرك الآن. كنتُ دائمًا معجبةً بك. منجذبةً إليك، بل في الواقع كنتُ أحبّك. أبقيتُ الأمر سرًّا ولم أخبر أحدًا قطّ. ولا أعتقد أنّ أكا وأو كانا يعلمان.

بالطبع يوزو كانت تعرف، فالفتيات لا يخفين شيئًا عن بعضهنّ البعض أبدًا».

- «لم أعرف شيئًا عن ذلك قطّ».

فقالت وهي تضغط سبّابتها على جبينها: «لأنّك كنت أحمق. قضينا فترةً طويلةً معًا، وحاولتُ أن أبدي لك إشارات. لو كنتُ بنصفِ عقلٍ لفهمتها».

فكّر تسوكورو في هذه الإشارات، لكنّه لم يستطع أن يتذكّر شيئًا.

- «هل تَذكُر كيف كنتَ تدرّسني الرياضيّات بعد المدرسة؟ كان ذلك يُسعدني كثيرًا».

- «لم تستوعبي قطّ مبادئ التكامل والتفاضل». فجأةً تذكّر كيف كانت تحمرّ وجنتاها أحيانًا. «لكنّكِ محقّة تمامًا. أنا بطيءٌ في الفهم قليلًا».

ابتسمتْ ابتسامةً صغيرة، وقالت: «في هذه الأشياء نعم. أضف إلى ذلك أنّك كنتَ منجذبًا إلى يوزو».

أوشك تسوكورو أن يقول شيئًا لكنّها أسكتَته. «لا تقل شيئًا. لم تكن الوحيد. الكلّ كان منجذبًا إليها. وكيف لا؟ كانت جميلةً جدًّا وناضرة. مثل بياض الثلج في أفلام «ديزني». أمّا أنا، فلا. كنتُ دائمًا أؤدّي دورًا صغيرًا في حضرتها، مثل الأقزام السبعة. لكنّ هذا كان أمرًا محتومًا؛ فقد كنّا صديقتَيْن عزيزتَيْن منذ المدرسة الإعداديّة. وكان عليّ أن أتكيّف مع ذلك الدور».

- «هل تقصدين أنّ يوزو كانت تشعر بالغيرة، لأنّكِ معجبةٌ بي؟»

فهزّت رأسها. «ما أقوله هو أنَّ هذا ربَّما كان سببًا كامنًا. لستُ محلِّلةً نفسيَّة. على أيِّ حال، أصرَّت يوزو حتَّى النهاية على أنَّك أنت الذي انتهكت عذريَّتها في شقَّتك في طوكيو. وفقًا لها كانت هذه هي النسخة الحاسمة من الحقيقة، ولم تتردَّد فيها قطّ. وحتَّى الآن، لا أفهم من أين جاء ذلك الوهم، ولماذا تمسَّكت بتلك النسخة المشوَّهة من الواقع. لا أظنُّ أحدًا يستطيع تفسير الأمر، لكنَّني أعتقد أنَّ بعض الأحلام قد تكون أقوى من الحقيقة. وهذا هو الحلم الذي كان لها. ربَّما هذا ما حدث. أرجو أن تتفهَّم. أشعر بالأسف الشديد لك».

ـ «هل كانت يوزو منجذبةً إليَّ؟»

فقالت باقتضاب: «كلَّا. لم تمِل يوزو قطّ إلى أيِّ أحدٍ من الجنس الآخر».

فقطب جبينه، وقال: «أكانت مثليَّة؟»

هزَّت رأسها مرَّةً أخرى، وقالت: «لا، ليس هذا ما أقصده. لم تكن لها تلك الميول على الإطلاق. الأمر وما فيه أنَّ يوزو كانت دائمًا تشمئزّ من كلِّ أمرٍ جنسيّ. قد يكون خوفًا من الجنس. لا أعرف من أين جاءت تلك المشاعر. كنَّا نتصارح بكلِّ شيءٍ تقريبًا، لكنَّنا نادرًا ما نتحدَّث في الجنس. كنتُ أنا أتحدَّث في الجنس بصراحة، لكنَّ يوزو كانت تغيِّر الموضوع بسرعة».

ـ «وماذا حدث بعد أن أسقطت الجنين؟»

ـ «أخذتْ إجازةً من الكلِّية، ففي حالتها تلك لم يكن بإمكانها الاختلاط بالناس. قالت إنَّ لديها مشكلاتٍ صحِّيَّة وحبست نفسها في البيت. لم تكن تخرج على الإطلاق. وما لبثت أن أصيبت باضطرابٍ

حادٌّ في الأكل. كانت تستفرغ كلّ ما تأكله تقريبًا، ثمّ تحقن نفسها حقنًا شرجيّةً للتخلُّص من الباقي. أعتقد لو أنّها استمرّت على ذلك الوضع لما عاشت. أقنعتُها بزيارة طبيبٍ، فاستطاعت أن تتغلّب على ذلك الاضطراب. استغرقها الأمر ستة شهور. كان الأمر قد بلغ مرحلةً شديدة الحرج وصل فيها وزنُها إلى أقلّ من أربعين كيلوغرامًا، فكانت تبدو كالشبح. لكنَّها انتشلتْ نفسها ووصلت إلى مرحلةٍ تستطيع التشبُّث فيها بالحياة. كنتُ أزورها كلّ يومٍ وأتحدَّث معها وأشجِّعها، وأفعل كلّ ما في وسعي لأدفعها للاستمرار. وبعد سنةٍ من غيابها عن الدراسة عادت إليها».

ـ «وبرأيكِ لماذا أصيبت باضطرابٍ في الأكل؟»

ـ «الجواب بسيط. كانت تريد إيقاف دورتها الشهريَّة. فالفقدان الشديد للوزن يمنع الدورة. وهذا ما كنت تصبو إليه. لم تكن تريد أن تحمل مرّةً أخرى، ولعلّها لم تعد تريد أن تكون امرأة. كانت تريد التخلُّص من رحمها إن أمكن لها ذلك».

ـ «يبدو الأمر خطيرًا».

ـ «نعم، جدًّا. ولهذا السّبب لم أكن أملك إلّا إبعادك. كنتُ أشعر بالأسف، وصدِّقني كنتُ أدرك أنّي قسوتُ عليك. كان من الصعب عليَّ أنا تحديدًا ألّا أراك مرّةً أخرى. شعرتُ كأنّي أتمزّق. فكما قلتُ لك كنتُ معجبةً بك فعلًا».

سكتتْ إري، وحدَّقت في يدَيْها على الطاولة، كأنّها تستجمع مشاعرها، ثمّ تابعت.

ـ «لكنّي اضطُررتُ إلى مساعدة يوزو كي تتعافى، فتوجّبَ أن تكون هذه أولويّتي القصوى. كانت لديْها مشكلات تهدِّد حياتها،

وتحتاج إلى مساعدتي. لذلك لم أملك إلّا أن أتركك تسبح وحيدًا في ذلك البحر البارد المظلم. وكنتُ أعلم أنّك ستنجو. كنتَ قويًّا».

صمتنا برهةً، فيما أوراق الشجر في الخارج تتهادى مع الريح.

ثمّ قطع تسوكورو الصمت. «وتعافت يوزو وتخرّجت في الكلّية. ماذا حدث بعد ذلك؟»

ـ «ظلّت تزور طبيبًا مرّةً في الأسبوع، لكنّها كانت تعيش حياةً طبيعيّةً إلى حدٍّ كبير. على الأقل لم تَعُد تبدو كالشبح. ولكن بحلول ذلك الوقت، لم تَعُد يوزو التي كنّا نعرفها سابقًا».

سحبتْ إري نفَسًا، وهي تنتقي كلماتها.

ثمّ قالت أخيرًا: «تغيّرتْ. كأنّما استُنزف كلُّ ما في قلبها، كأنّما اختفى كلّ اهتمامٍ لديْها بالعالم. لم تَعُد حتّى تُبدي اهتمامًا كبيرًا بالموسيقى. كان ذلك مؤلمًا. لكنّها ظلّت تستمتع بتدريس الموسيقى للأطفال، فلم يغادرها ذلك الشغف قطّ، حتى وهي في أسوأ حالاتها، حين كانت بالكاد تستطيع الوقوف. كانت تجرُّ نفسها جرًّا إلى مدرسة الكنيسة مرّةً في الأسبوع لتعلّم الأطفال العزف على البيانة. ظلّت تؤدّي هذا العمل التطوُّعيّ وحدها، وأظنُّ أنّ رغبتها في استمرار ذلك المشروع هي التي ساعدتْها في التعافي. لعلّها لم تكن لتنجو ممّا كانت فيه لولا ذلك».

استدارت إري، ونظرتْ من النافذة إلى السماء فوق الأشجار، ثمّ عادت ونظرتْ إلى تسوكورو. كانت طبقة الغيوم ما تزال في مكانها في السماء.

ـ «ولكنْ بحلول ذلك الوقت، لم تعد يوزو تملك ذلك الحسّ من الصداقة المطلقة تجاهي، على النحو الذي كان بيننا من قبل. قالت إنّها ممتنّةٌ لي على كلّ ما فعلته من أجلها، وأظنّها كانت صادقة. لكنّها في الوقت نفسه فقدتْ كلّ اهتمامٍ بي. قلتُ لك إنّها فقدت الاهتمام بكلّ شيءٍ تقريبًا، وكنتُ أنا جزءًا من ذلك الكلّ شيءٍ تقريبًا. لم يكن من السّهل أن أعترف بذلك، فقد كنّا صديقتَيْن عزيزتَيْن سنوات، وكنتُ أحبُّها جدًّا. لكنّ هذا ما حدث. فلم أعُد بالنّسبة إليها شخصًا لا تستغني عنه».

حدّقتْ إري فترةً في بقعةٍ متخيّلةٍ فوق الطاولة، ثمّ تابعت.

ـ «لم تَعُد يوزو بياض الثلج. أو ربّما كانت قد ذبلت كثيرًا فلم تَعُد تصلح لأن تكون بياض الثلج. وكنتُ أنا نفسي قد تعبتُ من دور الأقزام السبعة».

ورفعتْ إري من دون وعيٍ تقريبًا كوب قهوتها، ثمّ أعادته فوق الطاولة.

ـ «على أيّ حال، بحلول ذلك الوقت، لم تَعُد مجموعتنا الرائعة (الأربعة من دونك) كما كانت من قبل. فكلُّ واحدٍ منّا تخرّج وانشغل بحياته. لم نَعُد تلاميذ في المَدرسة. ومن نافل القول أنّ إبعادك قد ترك فينا كلُّنا جروحًا عاطفيّة. جروحًا لم تكن سطحيّةً على الإطلاق».

سكتَ تسوكورو، منصتًا باهتمامٍ شديد.

ـ «كنتَ غائبًا نعم، لكنّك ظللتَ حاضرًا فينا».

صمتٌ قصيرٌ مرّةً أخرى.

فقال تسوكورو: «إري، أودُّ أن أعرف عنكِ أكثر. ما الذي أتى بكِ إلى حيث أنتِ الآن. هذا ما أودُّ أن أعرفه أوّلًا».

ضيّقتْ عينَيْها وأمالت رأسها قليلًا. «كنتُ دائمًا تحت ظلّ يوزو، من أواخر مراهقتي إلى بدايات العشرينيّات. وذات يوم، نظرتُ حولي فأدركتُ أنّي أخبو. كنتُ آمل أن أصبح كاتبة. فلطالما أحببتُ الكتابة. كنتُ أودُّ أن أكتب الشعر والرواية وأشياء من هذا القبيل. كنتَ تعرف، أليس كذلك؟»

فأومأ لها. كانت إري تحمل معها دائمًا دفترًا سميكًا، وتدوّن الأفكار كلّما عنّ لها.

- «لكنّي لم أستطع أن أفعل ذلك أثناء دراستي. كان الاعتناء المستمرّ بيوزو يستغرق وقتي كلّه، بالإضافة إلى متابعة دروسي. كانت لي علاقتان عاطفيّتان في الكلّيّة، لكنّهما لم تستمرّا طويلًا، فقد كان يشغلني وقتي مع يوزو عن الخروج في مواعيد غراميّةٍ كثيرة. لذلك لم تسفر تلك العلاقتان عن شيء. وذات يوم، توقّفتُ وسألتُ نفسي: ما الذي تفعلينه في حياتك؟ لم تعُد لي أيّة أهداف، وكنتُ أضيّع وقتي ليس إلّا، وأنظر إلى ثقتي بنفسي وهي تتلاشى. أعرف أنّ يوزو كانت في مرحلةٍ صعبة، ولكنْ ينبغي لك أن تفهم أنّي أنا كذلك كنتُ في مرحلةٍ صعبة».

ضاقت عيناها مرّةً أخرى، وكأنّها تحدّق في مشهدٍ بعيد.

- «طلبتْ إليّ صديقةٌ من الكلّيّة أن أحضر حصّةً في صناعة الفخاريّات، فذهبتُ معها. على سبيل اللهو، لا أكثر. وهناك اكتشفتُ ما كنتُ أبحث عنه طويلًا. شعرتُ بأنّي حين ألفّ عجلة الفخار أكون صادقةً

تمامًا مع نفسي. ومنذ ذلك اليوم، استغرقتُ تمامًا في صناعة الفخاريّات. تخرّجتُ، والتحقتُ بأعمالٍ بدوامٍ جزئيٍّ لمدّة عامٍ، ثمّ عدتُ والتحقتُ بقسم الفنون الصناعيّة. وداعًا للروايات، وأهلًا بالفخاريّات. وبينما أنا أعمل على فخاريّاتي التقيتُ إدڤارد، فقد كان من ضمن برنامج التبادل الطلّابيّ. وفي نهاية الأمر، تزوّجنا وانتقلنا للعيش هنا. يمكن للحياة أن تفاجئنا تمامًا. فلولا صديقتي التي دعتني إلى حصّة الفخاريّات، لكنتُ أعيش الآن حياةً مختلفة».

فقال تسوكورو وهو يشير إلى الفخاريّات على الرف: «ولكنْ يبدو أنّ لديْك موهبةً فعلًا. لستُ خبيرًا في الفخاريّات، لكنّ أعمالك تمنحني إحساسًا رائعًا حين أنظر إليها وألمسها».

ـ «لا أدري إن كنتُ موهوبة، لكنّ أعمالي تُباع جيّدًا هنا. صحيحٌ أنّها لا تدرّ مالًا كثيرًا، لكنّي سعيدةٌ لأنّ هناك من يحتاج إلى الأشياء التي أصنعها».

ـ «أفهم ما تقصدينه، لأنّي أنا أيضًا أصنع أشياءَ. رغم أنّها مختلفة».

ـ «شتّان بين المحطّات والصحون».

ـ «نحتاج إليها كلّها في حياتنا».

«صحيح». فكّرتْ إري في شيءٍ، وتلاشت الابتسامة تدريجيًا من شفتيْها. «تروقني الحياة هنا. وأظنُّ أنّي سأبقى هنا إلى آخر حياتي».

ـ «لن تعودي إلى اليابان؟»

ـ «حصلتُ على الجنسيّة الفنلنديّة، وتطوّرتْ لغتي الفنلنديّة كثيرًا. أعترف بأنّ الشتاءات قاسيةٌ هنا، لكنّها تمنحني وقتًا أطول

للقراءة. لعلّي أعثر على ما أريد الكتابة عنه مرّةً أخرى. والطفلتان أيضًا اعتادتا العيش في فنلندا ولديْهما صديقات هنا. وإدفارد رجلٌ طيّب. عائلته ودودةٌ وتعاملنا أفضل معاملة، وعملي يسير على ما يرام».

- «وهناك من يحتاج إليكِ هنا».

فرفعتْ إري رأسها ونظرت إلى تسوكورو.

- «قرّرتُ أنّي قد أبقى هنا بقيّة حياتي حين سمعتُ بمقتل يوزو. هاتفني أو وأخبرني. كنتُ آنذاك حُبلى بابنتي الكبرى، ولم أتمكّن من حضور الجنازة. كان أمرًا فظيعًا. شعرتُ بأنّ صدري يوشك أن يتمزّق. أن تُقتل يوزو هكذا، في مكانٍ مجهول، ثمّ تُحرق جثّتها ولا يبقى منها غير الرماد. ألّا أراها مرّةً أخرى أبدًا. عندئذٍ حسمتُ أمري بأنّي إنْ أنجبتُ بنتًا فسوف أسمّيها يوزو، وأنّي لن أعود إلى اليابان أبدًا».

- «ابنتك اسمها يوزو؟»

- «يوزو كورونو هاتاينن. ثمّة شيءٌ من يوزو ما يزال حيًّا، في ذلك الاسم على الأقل».

- «ولكنْ ما الذي دفع يوزو إلى العيش وحدها في هاماماتسو؟»

- «ذهبتْ بُعيد انتقالي إلى فنلندا. لا أعرف السّبب. كنّا نتبادل الرسائل بانتظام، لكنّها لم تقل شيئًا عن أسباب انتقالها. لم تقل سوى أنّها انتقلت من أجل الوظيفة، ولكنْ كانت هناك وظائف كثيرة يمكن أن تلتحق بها في ناغويا. ناهيك عن أنّ انتقال يوزو للعيش وحدها في مكانٍ لا تعرفه كان انتحارًا في حدّ ذاته».

عُثر على جثّة يوزو في شقّتها في هاماماتسو، مشنوقةً بحزامٍ قماشيّ. قرأ تسوكورو تلك التفاصيل في الصحف والمجلّات القديمة،

كما بحث في الإنترنت أيضًا لمعرفة المزيد عن القضيّة. لم يكن دافع السرقة واردًا؛ فقد وُجدت حقيبتها بالقرب منها وفيها نقود. كما لم تكن هناك أيّ علاماتٍ على اعتداء، أو عبثٍ في محتويات الشقّة، ولا أيّ دليلٍ على المقاومة. لم يسمع السكّان في الطابق نفسه أي أصواتٍ مريبة. وُجد عُقبا سجائر «منثول» في المنفضة، ولكن تبيّن لاحقًا أنّها سجائر يوزو (وهنا قطب تسوكورو جبينه. يوزو كانت تدخّن؟). أمّا الوقت المقدّر للوفاة فكان بين العاشرة مساءً ومنتصف الليل، في ليلةٍ هطل فيها المطر حتى الفجر. كان مطرًا باردًا بالنّسبة إلى شهر أيار/مايو. وبعد ثلاثة أيّامٍ اكتُشفت جثّتها. كانت مطروحةً على أرضيّة مطبخها ثلاثة أيّام.

لم يُعرف دافع القتل. هناك شخصٌ أتى في وقتٍ متأخرٍ من اللّيل وشنقها من دون أن يصدر صوتًا. لم يسرق أو يعبث بشيء، وغادر. كان باب الشقّة ينقفل تلقائيًا، ولم يَبْدُ واضحًا ما إذا كانت يوزو قد فتحت الباب من الداخل أم أنّ القاتل كان لديْه مفتاحٌ آخر. كانت تعيش وحدها في الشقّة، وقال زملاؤها وجيرانها إنّهم لم يروا أيّ أصدقاء مقرّبين معها. كانت دائمًا وحدها، إلّا حين تزورها أختها الكبيرة ووالدتها من ناغويا بين فترةٍ وأخرى. كانت ترتدي ملابس بسيطة وتعطي انطباعًا للجميع بأنّها إنسانةٌ وديعةٌ هادئة. كانت شديدة الحماس في وظيفتها، محبوبةً جدًّا بين تلاميذها، ولكن لم يكن لها أيّ أصدقاء خارج العمل.

لم يعرف أحدٌ شيئًا عمّا قاد إلى موتها، وسبب شنقها. تحقيقات الشرطة انتهت من دون أن تصل إلى أيّ مشتبهٍ به. قَصُرتْ المقالات المكتوبة عن القضيّة، ثمّ اختفتْ تمامًا. كانت قضيّةً محزنةً، مؤلمة، كالمطر البارد إذْ يساقط باطّرادٍ حتى مطلع الفجر.

ثمّ قالت إري بصوتٍ خفيضٍ كأنّها تكشف سرًّا: «كانت هناك روحٌ شرّيرةٌ تسكنها. تعلّقتْ بها، وظلّت تحاصرها، وتحشرها ببطءٍ في زاوية. هذا هو الشيء الوحيد الذي يفسّر كلّ الأحداث. ما قالتْه عنك، واضطراب الأكل، وما حدث لها في هاماماتسو. لم أكن أودُّ أن أقول هذا، كنتُ أشعر بأنّي لو قلتُه فسوف يتحقّق. لذلك أبقيتُ الأمر في نفسي طوال هذا الوقت. كنتُ قد قرّرتُ ألّا أتحدّث عنه إلى أن أموت، ولكنْ لا بأس في أن أخبرك به الآن، بما أنّنا على الأرجح لن نلتقي مرّةً أخرى. عليك أن تعرف هذا. كانت روحًا شرّيرة، أو شيئًا من هذا القبيل. وفي نهاية الأمر، لم تستطع يوزو الفكاك منها».

تنهّدت إري وحملقتْ في يدَيْها على الطاولة. كانت يداها ترتجفان، بقوّة. فأشاح تسوكورو ببصره إلى النافذة، خلف الستارة المختلجة. كان الصمتُ الذي استقرّ في الغرفة طاغيًا، مشبّعًا بحزنٍ عميق. المشاعر المكبوتة ثقيلة، وحيدة، كالنهر الجليديّ الذي شقّ البحيرة العميقة.

بعد قليلٍ، قال تسوكورو لكسر الصمت: «هل تذكرين مجموعة سنوات الحجّ؟ كانت يوزو تعزف إحدى مقطوعاتها كثيرًا».

فقالت إري: «لو مال دو پيي». أذكرها جيّدًا، وأستمع إليها أحيانًا. هل تودُّ أن تسمعها؟»

فأومأ لها موافقًا.

نهضت إري، وسارت إلى المسجلة على الخزانة واختارتْ قرصًا من كومة الأقراص، ووضعتْه في المسجلة. تهادت «لو مال دو پيي» من السمّاعات، بلحنها الافتتاحيّ، يعزفها شخصٌ في هدوء، بيدٍ واحدة. عادت إري للجلوس قبالته، وأنصت الاثنان للموسيقى.

كان للاستماع إليها هنا قرب البحيرة في فنلندا سحرٌ مختلفٌ عمّا اعتاده في شقّته في طوكيو. رغم ذلك، وبصرف النظر عن الاستماع إليها من قرصٍ أم اسطوانة، تظلّ الموسيقى نفسها، جميلةً وآسرة. تصوَّر تسوكورو يوزو في صالة بيتها، تعزف، تميل على البيانة، مغمضة العينَيْن، متباعدة الشفتَيْن قليلًا، في بحثٍ عن كلماتٍ لا تصدر صوتًا. كانت في ذلك الوقت تنفصل عن نفسها، في مكانٍ آخر.

انتهت المقطوعة، ثمّ جاءت سكتةٌ، وبدأت المقطوعة التالية. «أجراس جنيف». ضغطتْ إري على جهاز التحكُّم، وأخفضتْ الصوت.

فقال تسوكورو: «شعرتُ بهذا العزف مختلفًا عمّا كنتُ أستمع إليه دائمًا في بيتي».

- «من العازف؟»

- «لازار بيرمن».

فهزّت إري رأسها، وقالت: «لم أسمعها بعزفه قطّ».

- «هي أرقى من هذه قليلًا. يعجبني هذا العزف، رائع، لكنّ أسلوبه يجعله أقربَ إلى سوناتة بيتهوفن منه إلى لِست».

ابتسمت إري. «لأنّها من عزف ألفر برندل. لعلّها ليست راقيةً جدًّا، لكنّها تروقني. أظنّني اعتدتها، فهي التي أستمع إليها دائمًا».

- «كانت يوزو تعزفها على نحوٍ شديدِ الجمال. تضفي عليها إحساسًا عميقًا».

- «نعم، بالفعل. كانت تجيد عزف المقطوعات التي تكون بهذا الطول. لكنّها حين تعزف مقطوعاتٍ أطول تفقد طاقتها في المنتصف.

لكلٍّ منّا خصائصه على أيّ حال. أشعر دائمًا أنّ جزءًا من يوزو يعيش في هذه الموسيقى. كم هي نابضة بالحياة، وساطعة!».

حين كانت يوزو تعلّم الأطفال في المدرسة، كان تسوكورو وأو في العادة يلعبان كرة القدم مع الأولاد في الملعب الصغير. كانوا يقسّمون أنفسهم إلى فريقيْن ويحاولون تسديد الكرة في المرمى المقابل (المصنوع عادةً من الكرتون). كان تسوكورو أثناء اللعب يسمع عزف الأطفال من النافذة.

أصبح الماضي سِيخًا طويلًا حادًّا يطعنه في قلبه. ألمٌ فضّيٌّ صامتٌ يخترقه، يحوّل عموده الفقريّ إلى عمود ثلج. ظلّ الألم معه، لا يتزحزح. حبسَ أنفاسه، وأغمض عينَيْه، يحتمل الألم. واستمرّ عزف ألفرد برندل، ثمّ تحوّل القرص إلى المجموعة الثانية. «السنة الثانية: إيطاليا».

في تلك اللحظة، استطاع أخيرًا أن يتصالح مع الأمر. لقد استوعب تسوكورو تازاكي الأمر في أعمق تجاويف روحه. فالقلبُ لا يرتبط بقلبٍ آخر بسبب الانسجام وحده، بل يرتبطان بعمقٍ من خلال الجراح. يقترنُ الألمُ بالألم، والهشاشةُ بالهشاشة. فلا صمتَ من دون صيحة أسى، ولا غفران من دون سفك دماء، ولا تصالح من دون فقدٍ شديد. هذا هو أُسُّ الانسجام الحقيقيّ.

جاء صوت إري أجشًّا من الجانب الآخر من الطاولة، كأنّه يخرج بالرّغم عنها: «تسوكورو. إنّها تحيا بطرقٍ كثيرة. أشعر بها، في جميع الأصداء التي تحيط بنا، في الضوء، والأشكال، في كلّ...»

غطّت إري وجهها بيدَيْها، ولم تنطق بشيءٍ آخر. لم يدرِ تسوكورو ما إذا كانت تبكي أم لا. لكنّها إن كانت تبكي، فقد كان بكاءً صامتًا.

في الوقت الذي يلعب فيه تسوكورو وأو بالكرة، كانت إري وأكا يبذلان كلَّ ما في وسعهما لمنع الأطفال الآخرين من مقاطعة حصَّة يوزو. يحاولان إشغال الأطفال بكلِّ طريقةٍ: يقرآن لهم الكتب، ويلعبان معهم، ويخرجان، ويغنِّيان. غير أنَّ تلك المحاولات كانت تفشل في معظم الأحيان. فالأطفال لم يكونوا يتعبون من محاولة إفساد الحصَّة. كانوا يجدون في الأمر متعةً كبيرة. وكان من المضحك رؤية إري وأكا في صراعهما العقيم لإثناء الأطفال عن ذلك.

نهض تسوكورو من دون تفكيرٍ تقريبًا، وسار إلى الجانب الآخر من الطاولة. ومن دون أن يقول شيئًا، وضع يده على كتف إري. كانت ما تزال تغطِّي وجهها بيدَيْها. فلمَّا لمسها، شعر بها ترتعش ارتعاشًا لا ترصده العين.

تسرَّب صوت إري من بين أصابعها. «تسوكورو، هل لي أن أطلب منك شيئًا؟»

ـ «بالتَّأكيد».

ـ «هلَّا حضنتَني؟»

طلب إليها أن تقف، ثمَّ قرَّبها إليه. نهداها الوافران يضغطان على صدره، كأنَّما في شهادةٍ على شيءٍ ما. يداها دافئتان على ظهره، وخدُّها ناعمٌ رطبٌ على رقبته.

تمتمتْ: «لا أظنُّني سأعود إلى اليابان مرَّةً أخرى». مرَّت أنفاسها الدافئة بأذنه. «كلُّ شيءٍ أراه سوف يذكِّرني بيوزو، وبـ...»

لم يقل تسوكورو شيئًا، وظلَّ يحضنها.

عناقهما مكشوفٌ من النافذة المفتوحة. قد يمرّ أحدٌ ويراهما. قد يعود إدڤارد والطفلتان في أيّ لحظة. لكنّ هذا لا يهمّ. لم يكترثا بما قد يفكّر به الآخرون. كان لا بدَّ من أن يتعانقا قدر ما يشاءان، لا بدَّ من ذلك التلامس، وطرد ذلك الظلّ الطويل الذي انعكس من الأرواح الشرّيرة. كان هذا من دون شكّ سبب قدومه إلى هنا أصلًا.

تعانقا طويلًا، ولم يعرف كم طال العناق. ظلّت الستارة البيضاء ترفرف مع النسيم الذي يقطع البحيرة، وظلّ خدّاها رطبَيْن، وظلّ ألفرد برندل يعزف «السنة الثانية: إيطاليا»، «سونيتة پترارك 47»، ثمّ «سونيتة پترارك 104». كان تسوكورو يعرف كلّ نغمة، ويمكنه أن يدندنها إن أراد. لأوّل مرّةٍ يدرك عُمق استماعه إلى تلك الموسيقى، وكم كانت تعني له.

لم يقولا شيئًا. فالكلمات غدت عاجزة. هكذا ظلّا متعانقَيْن، مثل راقصَيْن توقّفا في منتصف الرقصة، وقد سلّما نفسَيْهما للزمن. الزمن الذي يغلّف الماضي والحاضر، وكذلك شطرًا من المستقبل. لا حاجز بين جسده وجسدها، فيما تتهادى أنفاسُها على رقبته. أغمض تسوكورو عينَيْه، تغمره الموسيقى وهو ينصت إلى نبضات قلبها. كانت دقّات قلبها تتزامن مع دقّات القارب الصغير على الرصيف.

-17-

عادا إلى الجلوس مرّةً أخرى، متقابلَيْن، وأخذ كلٌّ منهما يفضي إلى الآخر بما في قلبه. بالأشياء التي لم ينطق بها منذ زمن، الأشياء التي كبتها في داخله. كان كلٌّ منهما يزيل الغطاء عن قلبه، ويفتح أبواب الذاكرة، ويكشف عن مشاعره الصادقة، فيما ينصت الآخر إليه في هدوء.

إري تحدَّثت أوَّلًا.

- «في نهاية المطاف، تخلَّيتُ عن يوزو. أردتُ أن أبتعد قدر الإمكان عمّا كان مستحوذًا عليها. لهذا السَّبب، دخلتُ في عالم الفخاريّات، وتزوَّجت إدڤارد، وانتقلتُ إلى فنلندا. بالطبع لم يكن ذلك مخطَّطًا، ولكنْ هكذا سارت الأمور. كنتُ أشعر في داخلي بأنّي إنْ فعلتُ ذلك فلن أُضطرَّ إلى الاعتناء بيوزو مرّةً أخرى. كنتُ أحبُّها أكثر من أيِّ أحد، كانت نفسي الأخرى، لذلك أردتُ أن أساعدها قدر المستطاع. لكنَّ قواي خارت. الاعتناءُ بها طول تلك الفترة هدَّني تمامًا. ومهما

حاولتُ أن أساعدها، لم أستطع إيقافها عن الانسحاب عن الواقع. كان أمرًا مريعًا. لو أنّي بقيتُ في ناغويا لربّما تلاشى عقلي أنا أيضًا. لا أدري، ربّما كنتُ أختلق الأعذار لنفسي؟»

ـ «أنتِ تشرحين كيف كانت مشاعرك، وهذا يختلف عن اختلاق الأعذار».

عضّتْ إري شفتها، وقالت: «لكنّي تخلّيتُ عنها، وذهبتْ لوحدها إلى هاماماتسو، وقُتلت. هل تذكر رقبتها الرفيعة الجميلة؟ مثل رقبة طائرٍ جميل، من النوع الذي يُمكن أن يُكسر بسهولة. لو أنّي بقيتُ في اليابان، لربّما ما كان لهذا أن يحدث. ما كنتُ سأسمح لها بالذهاب وحدها إلى بلدةٍ لا تعرفها».

ـ «ربّما. ولكنْ إنْ لم يحدث ذلك حينها، فقد يحدث في وقتٍ لاحق، في مكانٍ آخر. لستِ حارسةً ليوزو. ولم يكن في وسعكِ أن تحرسيها طوال الوقت. لكِ حياتك أيضًا. لم يكن بإمكانك أن تفعلي أكثر ممّا فعلتِ».

فهزّت رأسها، وقالت: «قلتُ لنفسي هذا الكلام، مرّاتٍ عديدة. من دون جدوى. كان هناك جزءٌ منّي يريد الابتعاد عنها، يريد أن يحميني. لا أستطيع إنكار ذلك. كان عليّ أن أتعامل مع مشكلتي، بصرف النظر عن إنقاذ يوزو. وفي أثناء ذلك، خسرتُك أيضًا. حين منحتُ الأولويّة لمشكلات يوزو، اضطُررتُ إلى التخلّي عن تسوكورو تازاكي الذي لم يرتكب أيّ جُرم. لقد سبّبتُ لك جرحًا عميقًا، لا لشيءٍ إلّا لأنّ هذا كان ملائمًا للوضع الذي كنتُ فيه. رغم أنّي أحببتك جدًّا...».

لم يقل تسوكورو شيئًا.

فقالت إري: «لكنّ هذه ليست كلّ الحكاية».

ـ «كيف؟»

ـ «الحقيقةُ أنّي لم أتخلَّ عنك بسبب يوزو. فذاك تبريرٌ سطحيّ. تخلّيتُ عنكَ لأنّني كنتُ جبانة. لم تكن لديَّ أدنى ثقةٍ بنفسي كامرأة. وكنتُ متأكّدةً من أنّك تحبّ يوزو. لهذا السّبب استطعتُ أن أبعدكَ بتلك القسوة. فعلتُ ذلك لكي أقطع مشاعري نحوك. لو كانت لي ثقةٌ أكبر وشجاعة، من دون كبرياء حمقاء، لما تخلّيتُ عنك قطّ على ذلك النحو، مهما كانت الظروف. لكنّ العلّة كانت فيّ آنذاك. أعلمُ أنّي ارتكبتُ خطأً مريعًا. سامحني».

حلّ الصمتُ عليهما.

ثمّ قالت أخيرًا: «كان الواجب أن أعتذر لك منذ زمن. أعرف هذا جيّدًا، لكنّي لم أستطع. كنتُ شديدة الخجل من نفسي».

ـ «لا عليكِ. لقد نجوتُ من الكارثة، وسبحتُ في البحر المظلم وحدي. كلٌّ منّا فعلَ ما كان ينبغي له، لكي يعيش. أشعر بأنّنا حتّى لو اتّخذنا قراراتٍ مختلفةً آنذاك، لانتهينا ربّما في المكان الذي نحن فيه الآن».

عضّتْ إري شفتها وفكّرت. ثمّ قالت بعد برهة: «هل لي أن أسألك سؤالًا؟»

ـ «تفضّلي».

ـ «لو أنّي جئتكُ آنذاك واعترفتُ لك بحبّي، هل كنتَ ستستجيب لي؟»

ـ «حتّى لو قلتِ لي ذلك في وجهي، فلربّما ما كنتُ لأصدّق».

ـ «لماذا؟»

ـ «لم أكنْ أتخيّل أن تعترف لي فتاةٌ بحبّها أو تريد أن تكون حبيبتي».

ـ «لكنّك كنتَ فتًى طيّبًا، ومحبوبًا، وهادئًا، وتعرف أهدافك في الحياة. إضافةً إلى أنّك كنتَ وسيمًا».

فهزّ تسوكورو رأسه، وقال: «لديَّ وجهٌ مملٌّ. لم يرقني شكلي قطّ».

ابتسمتْ إري، وقالت: «ربّما فعلًا لديْك وجهٌ مملٌّ جدًّا، وكنتُ أعاني من عِلّة، لكنّك كنتَ وسيمًا بالنّسبة إلى فتاةٍ سخيفةٍ في السادسة عشرة من عمرها. كم كنتُ أحلم بروعة أن يكون لي حبيبٌ مثلك».

ـ «ولا أستطيع الادّعاء بأنَّ لي شخصيّةً تُذكر».

ـ «لكلِّ إنسانٍ شخصيّة. لكنّها تبدو أوضح لدى البعض أكثر من الآخرين». ضيّقتْ عينَيْها ونظرتْ في عينَيْه. «قل لي، كيف كنت سترُدّ؟ هل كنت ستسمح لي بأن أكون حبيبتك؟»

ـ «طبعًا. كنتُ مُعجبًا بك. وكنتُ مُنجذبًا إليكِ، على نحوٍ مختلفٍ عن انجذابي ليوزو. لو أنّك اعترفتِ لي بمشاعرك، لرغبتُ طبعًا في أن تكوني حبيبتي. وأعتقد أنّنا كنّا سنصبح سعيدَيْن معًا».

اعترف تسوكورو في داخله بأنّه من المرجّح أن يصبحا زوجَيْن متفاهمَيْن، بحياةٍ مليئةٍ بالحبّ. بينهما مشتركاتٌ كثيرة. قد تبدو شخصيتاهما مختلفتَيْن على السطح، فتسوكورو انطوائيٌّ صموت، وإري اجتماعيّةٌ منطلقة، لكنّهما يشتركان في الرغبة في الإبداع وصنع الأشياء بأيديهما، أشياء ذات معنى. لكنَّ تسوكورو شعر بأنَّ ذلك التفاهم لن

يدوم طويلًا. فسوف يظهر انفصامٌ محتومٌ بين ما يريده هو في حياته وما تريده إري. كانا ما يزالان مراهقَيْن آنذاك، يتلمّسان طريقهما، لكنّها في نهاية المطاف سيصلان إلى مفترق طرقٍ ويذهب كلٌّ منهما في طريقه. من دون شجار، ومن دون أذى، على نحوٍ طبيعيٍّ هادئ. قال تسوكورو في نفسه: وقد حدث. ذهب هو إلى طوكيو وبناء المحطّات، وتزوّجت هي من إدڤارد وانتقلتْ إلى فنلندا.

لن يكون غريبًا لو حدث الأمرُ هكذا. كان احتمالًا واردًا جدًّا. وما كانت تلك التجربة لتصبح سلبيّةً بالنّسبة إلى أيٍّ منهما. فسوف يظلّان صديقَيْن عزيزَيْن، وإنْ لم يعودا حبيبَيْن. ولكنْ لم يحدث شيءٌ من ذلك في الواقع. ما حدث شيءٌ مختلفٌ تمامًا، وتلك الحقيقة كانت أهمّ الآن من أيّ شيءٍ آخر.

- «أسعدني أنّك قلتَ ذلك، حتّى وإنْ لم تقل الحقيقة».

- «بل قلتُ الحقيقة. ما كنتُ لأمزح في أمرٍ كهذا. أعتقد أنّنا كنّا سنقضي وقتًا رائعًا معًا. ويؤسفني أنّ هذا لم يحدث. يؤسفني فعلًا».

تبسّمت إري، من دون أيّ أثرٍ من سخرية.

وتذكّر تسوكورو الحلم الجنسيّ الذي كان يراه مع يوزو وإري. كانتا دومًا معًا، لكنّه كان يفرغ شهوته دائمًا في يوزو. لم يحدث قطّ أن أفرغ في إري. لم يكن يعرف دلالة ذلك، لكنّه كان واثقًا من أنّه لا يستطيع إخبار إري. فمهما كان المرء صادقًا وصريحًا، تظلّ هناك أشياء لا يمكن الكشف عنها.

حين فكّر في تلك الأحلام وإصرار يوزو على أنّه اغتصبها (وأنّها كانت تحمل طفله)، شعر بأنّه لم يستطع إقصاء الأمر تمامًا واعتباره

قصّةً مختلقةً تمامًا، أو الادّعاء بأنّه لا يعرف شيئًا عمّا حدث. قد يكون الأمر حلمًا، لكنّه لم يملك أن يتخلّص من الشعور بأنّه كان مسؤولًا عمّا حدث، بطريقةٍ غير مفهومة. ليس مسؤولًا عن اغتصابها فحسب، بل عن مقتلها أيضًا. لعلّ شيئًا (مجهولًا) في داخله انسلّ منه في تلك الليلة الماطرة من أيار/مايو إلى هامامتسو، وشنق عنقها الرفيع الجميل.

بإمكانه أن يتصوّر نفسه وهو يطرق باب شقّتها. «افتحي من فضلك. لديّ شيءٌ أريد أن أقوله لك». يرتدي معطف مطرٍ مبتلّ، تحوم حوله رائحة المطر الثقيل.

تقول يوزو: «تسوكورو؟»

فيقول: «لديّ شيءٌ أريد أن أتحدّث فيه معك. شيءٌ مهمٌّ جدًّا. ولهذا جئتُ إلى هاماماتسو. لن آخذ من وقتك الكثير. افتحي من فضلك». يظلّ يتحدّث إلى الباب المغلق. «أعتذر عن مجيئي هكذا من دون اتّصالٍ مسبق، لكنّي خشيتُ ألّا تقابليني إنْ اتّصلتُ بك».

تتردّد يوزو، ثمّ تسحب سلسلة القفل بهدوء. ويده اليمنى، تقبض بقوّةٍ على الحزام في جيبه.

عبسَ تسوكورو. لماذا يتخيّل هذا المشهد المريع؟ ولماذا ينبغي أن يكون هو من شنقها؟

لم يكن لديْه أيّ سببٍ يدفعه إلى ذلك طبعًا. لم يرغب تسوكورو في قتل أحدٍ قطّ. لكنّه ربّما حاول أن يقتل يوزو، بطريقةٍ رمزيّةٍ تمامًا. لم يكن تسوكورو يعلم شيئًا عن الظلام العميق الذي يسكن في قلبه. لكنّه كان يعرف أنّ هناك ظلامًا في داخل يوزو، وربّما اتّصل ظلامه بظلامها

على مستوى سفليّ. ربّما شنْقُها هو بالضبط ما كانت تريده يوزو. لعلّه أحسّ بتلك الرّغبة في الظلام الممتزج بينهما.

سألته إري: «تفكّر في يوزو؟»

ـ «لطالما عَددتُ نفسي ضحيّة. أُجبرتُ على المعاناة من دون سبب. جُرحتُ بعمق، وأُلقي بحياتي في مسارٍ مختلف. الحقيقة أنّي كرهتكم أحيانًا، أنتم الأربعة، وكنت أتساءل لماذا كان عليّ أنا وحدي أن أمرّ بتلك التجربة المريعة. ولكنْ ربّما لم يكن الأمر على هذا النحو. لعلّي لم أكن ضحيّةً، بل كنتُ قد آذيتُ من حولي أيضًا من دون وعي. ثمّ جرحتُ نفسي مرّةً أخرى في هجومٍ معاكس».

حدّقتْ فيه إري بصمت.

فقال صادقًا: «وربّما قتلتُ يوزو. ربّما الذي طرق بابها تلك الليلة كان أنا».

ـ «بمعنى من المعاني».

فأومأ لها.

ـ «أنا أيضًا قتلتُ يوزو. بمعنى من المعاني». نظرتْ جانبًا، وتابعت: «ربّما أنا التي طرقتُ بابها تلك الليلة».

فنظر تسوكورو إلى جانب وجهها الجميل بتلك السُمرة. لطالما أحبّ شكل أنفها المرتفع.

قالت: «على كلٍّ منّا أن يتعايش مع ذلك العبء».

خمدتْ الريح لحظةً، فظلّتْ الستارة البيضاء ساكنة، وتوقّف القارب عن الارتطام في الرصيف. لم يسمع تسوكورو شيئًا سوى صوت الطيور، تغنّي لحنًا لم يسمعه من قبل.

أنصتتْ إري إلى الطيور برهةً، ثمّ التقطتْ مشبكها وشبكتْ شعرها مرّةً أخرى، وضغطت جبينها بأطراف أصابعها. سألتْه: «ما رأيك في عمل أكا؟». كأنّ حِملًا زال، وغدا مرور الوقتِ أخفّ وطأة.

- «لا أدري. العالم الذي يعيش فيها بعيدٌ جدًّا عن عالمي، ويصعب عليّ تحديد ما إذا كان عملًا جيّدًا أم سيّئًا».

- «أنا لا يروقني ما يفعله. لكنّ هذا لا يعني أن أقطع صلتي به. كان واحدًا من أعزّ أصدقائي، وما زلتُ أعتبره صديقًا عزيزًا. رغم أنّي لم أره منذ سبع أو ثماني سنوات».

وضعتْ إري يدها على شعرها مرّةً أخرى. «في كلّ عامٍ، يتبرّع أكا بمبلغٍ كبيرٍ لتلك المؤسّسة الكاثوليكيّة التي تدعم المدرسة التي تطوّعنا فيها. والمسؤولون هناك يشعرون بامتنانٍ كبيرٍ لما يفعله، فهي بالكاد تستطيع تدبير أمورها الماليّة. ولكنْ لا أحد يعرف أنّه هو الذي يتبرّع. يصرّ على أن يبقى مجهولًا. ربّما أكون الوحيدة التي تعرف، إلى جانب المسؤولين في المدرسة. لم أعرف إلّا على سبيل الصدفة. أتدري يا تسوكورو، أكا ليس سيّئًا. أرجو أن تفهم ذلك. لعلّه يتظاهر بأنّه سيّئ. ولا أعرف السّبب. لعلّ شيئًا يضطرّه إلى ذلك».

هزّ تسوكورو رأسه.

- «وكذلك الحال مع أو. ما يزال يحمل قلبًا صافيًا، ولكنْ من الصعب لهذا القلب أن يعيش في العالم الحقيقيّ. لقد حقّق أكا وأو نجاحًا أكبر من أغلب الآخرين، كلٌّ في مجاله. وقد بذلا جهدًا كبيرًا وصادقًا. ما أحاول قوله هو أنّ مجموعتنا، بالنحو الذي كنّا عليه، لم تكن مضيعةً للوقت. هذا ما أؤمن به فعلًا، رغم أنّها لم تدم أكثر من سنواتٍ قليلة».

ثمّ وضعتْ وجهها بين يدَيْها مرّةً أخرى. سكتتْ برهةً، ثمّ رفعتْ عينَيْها، وتابعت.

ـ «لقد نجونا. أنت وأنا. والناجون عليهم واجب. واجبنا هو أن نبذل أفضل ما في وسعنا للاستمرار في حياتنا، حتى وإنْ لم تكن حياتنا مثاليّة».

ـ «أقصى ما أستطيع فعله هو أن أستمرّ في بناء محطّات القطار».

ـ «جيّد. هذا ما ينبغي لك الاستمرار فيه. وكلّي ثقةٌ بأنّك تصنع محطّات رائعة آمنة، يستمتع الناس باستخدامها».

ـ «أرجو ذلك. صحيحٌ أنّي أقوم بشيءٍ لا يُسمح به، لكنّي حين أشرف على بناء جزءٍ من محطّة، دائمًا أضع اسمي عليه. أكتبه على الإسمنت المبتلّ بمسمار. تسوكورو تازاكي. وبالطبع، لا يمكن أن يراه أحدٌ من الخارج».

فضحكتْ إري. «وهكذا تبقى محطّاتك الرائعة، حتى بعد رحيلك. كما أفعل أنا حين أضع حروف اسمي على ظهر صحوني».

*

رفع تسوكورو رأسه ونظر إلى إري. «هل تسمحين لي بالحديث عن حبيبتي؟»

فارتسمتْ ابتسامةٌ ساحرةٌ على شفتَيْها. «بالطبع. أودُّ أن أسمع عن هذه الحبيبة الحكيمة التي تكبرك».

حدّثها عن سارا، وكيف أنّه انجذب إليها على نحوٍ غريب من أوّل نظرة، وكيف طارحها الغرام في موعدهما الثالث. أخبرها كيف كانت

تريد أن تعرف كلّ شيءٍ عن مجموعة أصدقائه في ناغويا، وكيف عجز عن الجنس معها آخر مرّة. لم يخفِ تسوكورو شيئًا عن إري. أخبرها أيضًا كيف دفعتْه إلى زيارة أصدقائه القدامى في ناغويا والسفر إلى فنلندا. قالت له إنّه إنْ لم يفعل ذلك فلن يتغلّب على العبء العاطفيّ الذي ما يزال يحمله. لقد شعر تسوكورو بأنّه يحبّ سارا، وأنّه يودُّ الزواج منها. ربّما كانت هذه أوّل مرّةٍ يشعر فيها بعواطف جيّاشةٍ هكذا تجاه شخصٍ ما. ولكنْ يبدو أنّ لها حبيبًا أكبر منه. كانت تبدو سعيدةً جدًّا حين رآها تمشي معه في الشارع، راضيةً جدًّا، ولم يكن متأكّدًا من أنّه سيستطيع إسعادها على ذلك النحو.

أنصتتْ إري باهتمامٍ شديدٍ ولم تقاطعه. ثمّ تحدّثتْ أخيرًا.

- «أتدري يا تسوكورو، عليكَ أن تتمسّك بها، مهما حدث. هذا ما أؤمن به حقًّا. لئنْ تركتها الآن، لن تجد حبيبةً أخرى في حياتك».

- «ولكنْ ليست لديَّ أيّ ثقةٍ بنفسي».

- «لماذا؟»

- «لأنّه ليس لديَّ حسٌّ بالنفس. ليست لديَّ شخصيّةٌ، أو لونٌ باهر. ليس عندي ما أقدّمه. لطالما كانت هذه مشكلتي. أشعرُ بأنّني وعاءٌ فارغ. نعم، لديَّ شكلٌ، كوعاء، ولكنْ لا شيء في داخله. لا أرى نفسي الشخص المناسب لها. أظنُّ أنّها بمرور الوقت وحين تعرفني أكثر ستصاب بخيبة أمل، وتقرّر إبعاد نفسها عنّي».

- «عليكَ أن تتحلّى بالشجاعة، وأن تثق بنفسك. ألم أكن أحبُّك ذات يوم؟ ألم أكن لأمنح نفسي لك؟ كنتُ سأفعل أيَّ شيءٍ تريده

منّي. ها هي امرأةٌ من لحمٍ ودمٍ حملت لك تلك المشاعر ذات مرّة. وفي ذلك دليلٌ على قيمتك. لستَ فارغًا... على الإطلاق».

ـ «أقدّر لكِ قول ذلك. حقًّا. لكنّ هذا كان في الماضي. ماذا عن الآن؟ أنا في السادسة والثلاثين، لكنّي حين أفكّر في هُويّتي أصاب بالحيرة، بل ربّما تزداد حيرتي عمّا كانت سابقًا. لا أستطيع أن أحدّد ما ينبغي لي فعله. ولم أحمل في حياتي مشاعر جيّاشةً كهذه لشخصٍ قط».

ـ «لو سلّمنا بأنّك فعلًا وعاءٌ فارغ، فماذا في ذلك؟ ما المشكلة؟ تظلّ وعاءً جذّابًا ورائعًا. وهل يوجد شخصٌ، أيّ شخص، يعرف من يكون؟ فلماذا إذن لا تكون وعاءً جميلًا؟ وعاءً يحبّه الآخرون ويأتمنونه على مقتنياتهم الثمينة».

أدرك تسوكورو ما تصبو إليه، لكنّ انطباق هذا الكلام عليه مسألةٌ أخرى.

ـ «حين تعود إلى طوكيو، أخبرها بكلّ شيء. الصراحة والصدق أفضل الطرق دائمًا. ولكنْ لا تخبرها بأنّك رأيتها مع رجلٍ آخر. احتفظ بهذا لنفسك. ثمّة أشياء لا تحبّ المرأةُ أن يراها الآخرون. وما عدا ذلك، قل لها كلّ ما تشعر به».

ـ «أخاف يا إري. أخاف إنْ أخطأتُ في القول أو في الفعل، يتحطّم كلّ شيء، وتزول علاقتنا إلى الأبد».

هزّت إري رأسها ببطء، وقالت: «الأمر لا يختلف عن بناء المحطّات. فإنْ كان هناك شيءٌ مهمّ، لن يفسده الخطأ الصغير أو يجعله يزول. قد لا يكون مثاليًّا، لكنّ الخطوة الأولى هي بناء المحطّة، أليس كذلك؟ وإلّا فلن

تتوقَّف القطارات عندها. ولا يمكنك أن تلتقي الشخص الذي يعني لك الكثير. فإنْ وجدتَ عيبًا، يمكنك إصلاحه لاحقًا. ابدأ بالخطوة الأولى. بناء المحطَّة. محطَّةً خاصَّةً لها، من ذلك النوع الذي تودُّ القطارات أن تتوقَّف عندها، حتَّى وإنْ لم يكن لديْها سببٌ للتوقُّف. تخيّل تلك المحطَّة، وامنحها شكلًا ولونًا. اكتب اسمك على أساسها بمسمار، وانفخ فيها الحياة. أعلمُ أنَّ لديْك القوَّة الكافية لفعل ذلك. لا تنسَ أنَّك أنت الذي سبحتَ في البحر المتجمِّد ليلًا».

طلبتْ إليه إري أن يبقى إلى العشاء.

ـ «يصطادون هنا سلمونًا مرقَّطًا كبيرًا طازجًا. نقليه مع العشب في مقلاة، لكنَّ طعمه رائع. سيسعدنا أن تبقى وتتعشَّى معنا».

ـ «أشكرك، ولكن من الأفضل أن أعود. أريد أن أصل إلى هلسنكي قبل الظلام».

فضحكتْ إري. «ظلام؟ نحن في صيف فنلندا. الضوء يستمرّ طوال الليل تقريبًا».

ـ «أعرف، ولكنْ».

تفهَّمت إري شعوره.

ـ «أشكرك على قطع هذه المسافة كلِّها للقائي. لا أستطيع أن أصف لك قدر سعادتي بحديثي معك. أشعر حقًّا بأنِّي تخلَّصتُ من حملٍ ثقيل، كان يثقل صدري طول الوقت. لا أقول إنَّ الكلام حلّ المشكلة، لكنَّني ارتحتُ كثيرًا».

ـ «وأنا أيضًا. ارتحتُ كثيرًا بالكلام معك. وأسعدني كذلك أنِّي التقيت زوجك وابنتيْكِ، ورأيت الحياة التي تعيشينها هنا. هذا وحدَه يكفي».

غادرا البيت، وسارا إلى حيث أوقف سيّارته الغولف. سارا في بطءٍ متعمّد، كأنّما يزنان أهمّيّة كلّ خطوة. تعانقا مرّةً أخرى، لكنّها لم تبكِ هذه المرّة. أحسّ بابتسامتها اللطيفة على رقبته، ونهدَيْها الوافرَيْن على صدره، ممتلئَيْن بضرورة الاستمرار في الحياة. أصابعها على ظهره كانت قويّةً، واقعيّة.

فجأةً تذكّر تسوكورو الهدايا التي أحضرها من اليابان لها ولطفلتَيْها. أخرجها من حقيبته في السيّارة وناولها إيّاها. مشبكًا خشبيًّا لإري، وكتبًا يابانيّة مصوّرةً للطفلتَيْن.

- «شكرًا تسوكورو. هذا أنت بطيبتك الغامرة، لم تتغيّر».

«هذا شيءٌ بسيط». وتذكّر المساء الذي اشترى فيه الهدايا، ورأى سارا تمشي في أوموتيساندو مع ذلك الرجل. لولا تفكيره بشراء الهدايا لما رأى ذلك المشهد. أمرٌ غريب.

قالت تودّعه: «وداعًا تسوكورو تازاكي. فلتصحبك السلامة. حاذر من العفاريت الأقزام».

- «العفاريت الأقزام؟»

ضاقت عيناها والتوت شفتاها في شيطنةٍ من أيّام العمر الماضي. «هي مقولةٌ شائعةٌ هنا. حاذر من العفاريت الأقزام. مخلوقات كثيرة عاشت في هذه الغابات منذ القدم».

فضحك تسوكورو، وقال: «فهمت. سأحاذر منهم».

- «إن وجدتَ فرصةً، أخبر أكا وأو أنّني بخيرٍ هنا».

- «سأفعل».

- «برأيي عليكَ أن تزورهم أحيانًا. أو تلتقوا أنتم الثلاثة. من أجلك. ومن أجلهم».

- «أتّفق معك. قد تكون فكرةً جيّدة».

- «جيّدة لي أنا أيضًا. رغم أنّي لن أكون معكم».

أومأ لها تسوكورو، وقال: «بمجرّد أن تستقرّ الأمور سأحرص على ذلك. من أجلكِ أيضًا».

- «لكنّه أمرٌ غريب، أليس كذلك؟»

- «ماذا تقصدين؟»

- «لقد ولّى ذلك الوقت المدهش في حياتنا، ولن يعود أبدًا. تلك الآفاق الجميلة التي كانت لديْنا ابتلعها مرورُ الزمن».

أومأ تسوكورو في صمت. خطر له أنّه يجب أن يقول شيئًا، لكنّ الكلمات لم تأتِه.

قالت إري وهي تحدّق في البحيرة، كأنّما تحدّث نفسها من بعيد: «الشتاء طويلٌ جدًّا هنا. والليالي طويلةٌ جدًّا، كأنّها لن تنتهي. كلُّ شيءٍ يتجمّد، وكأنَّ الربيع لن يأتي أبدًا. تنتابني كثيرٌ من الأفكار الكئيبة، مهما حاولتُ أن أتجنّبها».

خانتْه الكلمات أيضًا. ونظر تسوكورو في الاتّجاه الذي تنظر إليه في صمت. لم تأتِه الكلمات إلّا لاحقًا، حين ركب الطيّارة عائدًا إلى ناريتا وربط حزامه. الكلمات التي كان ينبغي له قولها. دائمًا ما يأتي الكلام المناسب بعد فوات الأوان.

أدار المفتاح وشغّل السيّارة، فاستيقظتْ الغولف من غفوتها وبدأتْ شيئًا فشيئًا تعثر على إيقاعها.

قالت إري: «وداعًا. اهتمّ بنفسك، واحرص على التمسُّك بسارا. أنت في حاجةٍ إليها».

ـ «سأحاول».

ـ «تسوكورو، هناك شيءٌ أريدك أن تتذكَّره. لستَ عديم اللَّون. كانت تلك مجرَّد أسماء. أعرف أنَّنا كثيرًا ما غايظناك بهذا الأمر، لكنَّها كانت مجرَّد نكتةٍ سخيفة. تسوكورو تازاكي إنسانٌ رائع، مفعمٌ باللون. إنسانٌ يبني محطَّاتٍ مدهشة. مواطنٌ في السادسة والثلاثين من عمره في أتمّ العافية، يصوّت، ويدفع الضرائب، ويسافر إلى فنلندا لا لشيءٍ إلَّا لكي يقابلني. لا ينقصك شيء يا تسوكورو. ثقْ بنفسك وكُن شجاعًا. هذا كلّ ما تحتاج إليه. ولا تدع الخوف والكبرياء الحمقاء تُفقدك شخصًا عزيزًا».

حرَّك تسوكورو ناقل السرعة، وضغط على الدوَّاسة. أخرج يده من النافذة المفتوحة ولوّح لها. ولوَّحت له. ظلَّت تلوّح، وترفع يديْها عاليًا.

ثمَّ اختفتْ أخيرًا وراء الأشجار. وكلُّ ما رآه في المرآة خضرةً كثيفةً من صيف فنلندا. هبَّت الريحُ مرَّةً أخرى، فتجمَّعت أمواجُ صغيرةً على سطح البحيرة. ثمّة شابٌ طويلٌ في قارب تجديفٍ ظهر على الماء، يمخر عباب البحيرة في بطءٍ وهدوء، مثل دوَّامةٍ ضخمة.

قال تسوكورو في نفسه: قد لا أعود إلى هنا أبدًا، ولن أرى إري مرَّةً أخرى. لكلٌّ منّا مسارٌ يتبعه. لا رجعة، كما قال أو. حينها اندفع الحزن في داخله كالماء، في صمت. حزنٌ شفَّاف، لا شكل له. حزنٌ لم يستطع أن يلمسه، لكنَّه كان بعيدًا، لا يمكن الوصول إليه. دكَّه الألمُ، كأنَّه يقتلع صدره، وكاد لا يستطيع أن يتنفَّس.

فلمّا وصل إلى الطريق المرصوف، انعطف بالسيّارة جانبًا، وأطفأ المحرّك، ومال على المقود، وأغمضَ عينَيْه. كان قلبه يتسارع، فأخذ أنفاسًا عميقةً بطيئة. وبينما كان يتنفّس، لاحظ فجأةً شيئًا باردًا صلبًا عند منتصف جسده، مثل جوهرٍ صلبٍ من الأرض يبقى متجمّدًا طوال العام. كان هذا مصدر الألم في صدره، وضيق التنفُّس. لم يكن يعرف حتّى تلك اللحظة أنّ شيئًا كهذا يوجد في داخله.

غير أنّ هذا الألم، وهذا الحسّ من الاختناق هو الذي كان يحتاج إليه. هذا ما كان عليه أن يعترف به، ويواجهه. من الآن فصاعدًا، عليه أن يذيب ذلك الجوهر البارد، قطعةً قطعة. قد يستغرق وقتًا، لكنّه أمرٌ لا بدّ منه. بَيْدَ أنّ حرارة جسده لم تكن تكفي لإذابة التربة المتجمّدة. فكان في حاجةٍ إلى دفءِ شخصٍ آخر.

ينبغي له أن يعود إلى طوكيو أوّلًا. تلك هي الخطوة الأولى. فأدار المفتاح وشغّل المحرّك مرّةً أخرى.

وفي الطريق إلى هلسنكي، كان تسوكورو يرجو ألّا تنال عفاريت الغابة الأقزام من إري. فلم يكن يملك آنذاك إلّا الرجاء.

18

قضى تسوكورو اليومَيْن الباقيَيْن من رحلته يتجوّل في شوارع هلسنكي. كان المطر يهطل من حينٍ إلى آخر، لكنّ ذلك لم يزعجه. كان يفكّر في أشياء كثيرةٍ أثناء مشيه. أمورٌ كثيرةٌ عليه أن يفكّر فيها، فأراد أن يستجمع أفكاره قبل العودة إلى طوكيو. وحين يتعب من المشي أو التفكير يعرّج على مقهًى ويطلب قهوةً وشطيرة. تاه في الشوارع، ولم يعرف مكانه، لكنّه لم ينزعج. هلسنكي ليست مدينةً ضخمة، وهناك سيّارات تسير في كلّ مكان. بل إنّ التيه في تلك اللحظة بدا له مريحًا. في عصر يومه الأخير في المدينة، ذهب إلى «محطّة هلسنكي المركزيّة»، واقتعد دكّةً، ينظر إلى القطارات الذاهبة والقادمة.

هناك اتّصل من هاتفه المحمول بأولغا ليشكرها. قال لها: وصلتُ إلى بيت هاتاينن، وفاجأتُ صديقتي. وهامينلينا بلدةٌ جميلة. فقالت له: عظيم، رائع. كانت سعيدةً بصدقٍ من أجله. قال لها: أودُّ أن أدعوكِ إلى العشاء لأشكرك. فقالت: أشكرك على الدّعوة، لكنّ اليوم عيد ميلاد

أمّي، وسوف أتعشّى مع والديّ في البيت. أرجو أن تبلغ سارا تحيّاتي. فوعدها تسوكورو بذلك، وشكرها على كلّ ما قدّمته له من عون.

في المساء، تناول وجبةً بحريّةً مع نصف كأسٍ من النبيذ الفرنسيّ الأبيض في مطعمٍ قرب المرفأ اقترحتْه أولغا. كان يفكّر هناك بإري وأسرتها. لا بدّ من أنّهم جالسون على الطاولة الآن. أما زالت الريح تهبّ على البحيرة؟ وما الذي تفكّر فيه إري في هذه اللحظة؟ ما يزال دفء أنفاسها يسري في أذنه.

وصل إلى طوكيو صباح السبت. أفرغ حقيبته، وأخذ حمّامًا طويلًا، وقضى بقيّة اليوم منشغلًا في مهامّ من هنا وهناك. بمجرّد عودته، فكّر في الاتّصال بسارا، وتناول السمّاعة فعلًا، وضغط الرقم، لكنّه أعاد السمّاعة. كان في حاجةٍ إلى مزيدٍ من الوقت كي يفكّر. صحيحٌ أنّها كانت رحلةً قصيرة، لكنّ أشياء كثيرةً جدًّا حدثتْ. ما تزال العودة إلى طوكيو تبدو له ضربًا من الخيال؛ إذْ يشعر بأنّه للتوّ كان بجانب البحيرة في هامينلينا، يستمع إلى صوت الرياح الشفيف. وأيًّا ما كان الذي سيقوله لسارا، فلا بدّ من أن يختار كلامه بعناية.

غسل ثيابه، وطالع الصحف التي تراكمت، ثمّ خرج قبل المساء يشتري طعامًا، رغم أنّه لم يكن يشتهي الأكل. أصابه نعاسٌ شديدٌ في وقتٍ مبكّر، ربّما بسبب فرق التوقيت، فاستلقى على سريره عند الثامنة والنصف، ونام، ثمّ استيقظ قبيل منتصف الليل. حاول أن يقرأ في الكتاب الذي بدأ قراءته في الطائرة، لكنّ عقله كان ما يزال مشوّشًا، فنهض ينظّف الشقّة. عاد إلى سريره قبيل الفجر، فلمّا استيقظ كان الوقت قرب الظهيرة، يوم الأحد. بدا أنّه يومٌ صيفيٌّ حارّ، ففتح المكيّف، وأعدّ قهوةً، وشرب فنجانًا مع شريحة خبزٍ محمّص، وجبنٍ مذاب.

بعد أن استحمّ، اتّصل بمنزل سارا، فذهبت المكالمة إلى البريد الصوتيّ. الرجاء ترك رسالةٍ بعد النغمة. تردّد قليلًا، ثمّ أغلق الخطّ من دون أن يقول شيئًا. ساعةُ الجدار تشير إلى ما بعد الواحدة ظهرًا. أوشك على الاتّصال بهاتفها المحمول، لكنّه تمهّل.

لعلّها تتناول الغداء مع حبيبها في يوم إجازتها. بالطبع كان الوقت مبكّرًا على الجنس. تذكّر تسوكورو الرجل الذي رآه معها يمشي في أوموتيساندو، يده في يدها. لم يستطع أن يمحو الصورة من عقله. استلقى على الأريكة، والصور تتراقص في رأسه، فشعر فجأةً وكأنّ إبرةً حادّةً تطعنه في ظهره. إبرةً رفيعةً غير مرئيّة. كان الألمُ خفيفًا، من دون دم. ربّما. لكنّه يظلّ ألمًا.

امتطى درّاجته وذهب إلى الصالة الرياضيّة، وسبحَ المسافة المعتادة في المسبح. ظلّ جسده خدرًا على نحوٍ غريب، وشعر كأنّما نام مرّتَين أثناء السباحة. بالطبع لا يمكن لأحدٍ أن يسبح وينام في الوقت نفسه، ولكنْ هكذا بدا له. رغم ذلك، كان جسده يتحرّك تلقائيًّا، واستطاع أن ينتهي من السباحة من دون أن يفكّر في سارا أو ذلك الرجل. فأسعده ذلك.

عاد إلى شقّته وأخذ قيلولةً، نصف ساعة. كان نومًا عميقًا من دون أحلام، فقد غاب عن الوعي بمجرّد أن وضع رأسه على الوسادة. بعد ذلك، كوى بضعة قمصانٍ ومناديل، وطبخ عشاء. سلمون بالأعشاب في الفرن، ورشّ ليمونًا عليه، ثمّ تناوله مع سلطة بطاطس. وبعدها، ختم وجبته بتوفو وحساء ميزو. بعد ذلك، شرب نصف كأسٍ من البيرة، وشاهد الأخبار على التلفاز، ثمّ استلقى على الأريكة يقرأ.

قُبيل التاسعة مساءً، اتّصلت به سارا.

ـ «كيف حالك مع فرق التوقيت؟»

ـ «تعكّر جدول نومي، لكنّي بخير».

«هل يمكنك الحديث الآن أم أنّك نعسان؟»

ـ «نعسان، لكنّي أستطيع أن أحتمل نصف ساعةٍ قبل النوم. عليّ العودة إلى العمل غدًا، وبطبيعة الحال لا يمكنني أن آخذ قيلولةً في المكتب».

ـ «ممتاز. تلقّيتُ اتّصالًا عصر اليوم. أنتَ اتّصلت، أليس كذلك؟ دائمًا ما أنسى تفقّد رسائل الهاتف، لكنّي لاحظتُ مكالمةً فائتة».

ـ «نعم، أنا».

ـ «كنتُ أشتري بعض الأغراض».

ـ «أها».

ـ «لكنّك لم تترك رسالة».

ـ «لا أجيد ترك الرسائل في الهاتف. أتوتّر، ولا أعرف ماذا أقول».

ـ «كان يمكنك أن تقول اسمك على الأقلّ».

ـ «معك حقّ. كان عليّ أن أفعل ذلك على الأقلّ».

سكتتْ لحظةً، ثمّ قالت: «أتدري، كنتُ قلقةً عليك. لا أدري كيف سارت رحلتك. كان عليك أن تترك رسالةً قصيرة».

ـ «أعرف. آسف. كان يُفترض بي أن أترك رسالة. بالمناسبة، ماذا فعلتِ اليوم؟»

ـ «غسلتُ ثيابي وتسوَّقت. طبختُ، ونظَّفتُ المطبخ والحمَّام. أحتاج أحيانًا إلى يومٍ هادئ كهذا». صمتتْ قليلًا، ثمَّ قالت: «قل لي، هل حقَّقتَ ما تريده في فنلندا؟»

ـ «قابلتُ كورو. وتحدَّثنا طويلًا. أولغا ساعدتني كثيرًا».

ـ «جميل. أولغا فتاةٌ ممتازة، أليس كذلك؟»

«بلى، فعلًا». أخبرها كيف قاد سيَّارةً مسافة ساعةٍ ونصف الساعة من هلسنكي إلى بلدةٍ على بحيرةٍ كي يقابل إري (أي كورو)، وأنَّها تعيش في كوخٍ صيفيٍّ مع زوجها وابنتَيْها وكلب، وأنَّها وزوجها يصنعان الفخاريَّات في شقَّةٍ قريبة.

«تبدو سعيدةً بحياتها في فنلندا». باستثناء بعض الليالي في الشتاء الطويل المظلم، لكنَّه لم يقل ذلك.

ـ «إذن كانت الرحلة إلى فنلندا مفيدة؟»

ـ «نعم، أظنُّ ذلك. ثمَّة أشياءُ لا يمكن الحديث عنها إلَّا وجهًا لوجه. اتَّضحتْ أمورٌ كثيرةٌ بالنِّسبة إليَّ. لا أقول إنِّي عرفتُ كلَّ الإجابات، لكنَّ الأمر كان مفيدًا بالتَّأكيد. على المستوى العاطفيِّ أقصد».

ـ «رائع. يسعدني سماع ذلك».

تبع ذلك صمتٌ قصير. صمتٌ له دلالة، وكأنَّه يتحسَّس اتِّجاه الريح. ثمَّ تحدَّثت سارا.

ـ «يبدو صوتك مختلفًا. أم إنَّني أتخيَّل؟»

ـ «لا أدري. ربَّما لأنَّني متعب. لم أسافر بالطائرة في رحلةٍ طويلةٍ من قبل».

ـ «ولكنْ كلُّ شيءٍ على ما يرام، صحيح؟»

- «نعم. هناك أشياء كثيرةٌ ينبغي لي أن أخبرك بها، لكنّها ستأخذ وقتًا طويلًا. أريد أن أقابلك قريبًا وأخبرك بكلّ شيء، من البداية إلى النهاية».

- «ممتاز. فلنلتقِ إذن. على أيّ حال، أنا سعيدةٌ لأنّ رحلتك إلى فنلندا لم تذهب سدى».

- «شكرًا لكِ على كلّ ما فعلتِه».

- «على الرحب والسعة».

صمتٌ قصيرٌ آخر. أنصتَ تسوكورو. كان هناك حسٌّ معلّقٌ في الهواء بوجود أشياء لم تُقَل.

فقال تسوكورو وقد قرّر أن يغامر: «هنالك شيءٌ أودُّ أن أسألك عنه. ربّما الأفضل ألّا أقوله، لكنّي سأستجيب لشعوري الداخليّ».

- «بالتّأكيد. من الأفضل أن تستجيب لشعورك. تفضّل واسأل عن أيّ شيء».

- «لا أستطيع إيجاد الكلمات المناسبة، بالضبط، ولكن لديّ شعورٌ بأنّك.. تقابلين شخصًا آخر، غيري. وهذا الأمر يزعجني منذ مدّة».

لم تجِب سارا مباشرةً. ثمّ سألته أخيرًا: «لديْك شعور؟ تقصد أنّه ينتابك ذلك الشعور، لسببٍ لا تعرفه؟»

- «نعم، لسببٍ ما. قلتُ سابقًا إنّني لستُ الأفضل فيما يتعلّق بالحدس. عقلي مصمّمٌ لصنع الأشياء، المحسوسة، كما يوحي بذلك اسمي. لعقلي بنيةٌ مباشرة. الأمور المعقّدة التي تدور في عقول الآخرين لا أفهمها. ولا حتّى التي تدور في عقلي. كثيرًا ما أكون مخطئًا تمامًا

حين يتعلّق الأمر بمسائل صعبةٍ غامضةٍ كهذه، لذلك أحاول أن أتجنّب التفكير في أيِّ شيءٍ شديد التّعقيد. لكنّ هذا الموضوع لا ينفكّ يزعجني، وخطر لي أن أسألكِ بدلًا من أن أتعذّب بالتّفكير فيه من دون فائدة».

- «أها».

- «هل يوجد شخصٌ آخر؟»

صمت.

- «افهميني أرجوكِ. لستُ أنكر عليكِ ذلك. وربّما لا يجدر بي أن أتدخّل في حياتك. لستِ ملزمةً بشيءٍ تجاهي، ولا حقّ لديَّ في مطالبتك بأيِّ شيء. أودُّ فقط أن أعرف.. ما إذا كان ما أشعر به صحيحًا أم لا».

تنهّدت سارا. «كنتُ أفضّل ألّا تستخدم كلماتٍ مثل «التزام» و«حقّ». وكأنّك تناقش مراجعة الدستور أو شيئًا كهذا».

- «حسنٌ. لم أعبّر جيّدًا. كما قلتُ لك، أنا شخصٌ بسيطٌ جدًّا. ولا أعتقد أنّي أستطيع التعامل مع الأمور حين أشعر بهذا الشعور».

سكتتْ سارا لحظةً. كان يستطيع أن يتصوّرها بوضوح، تحمل الهاتف في يدها، وشفتاها مزمومتان. ثمّ تحدّثتْ أخيرًا بصوتٍ ناعم: «لستَ شخصًا بسيطًا. لكنّك تحاول إقناع نفسك بذلك».

- «ربّما. لا أعرف. ما أعرفه هو أنّ الحياة البسيطة تلائمني أكثر. الأمرُ وما فيه أنّني جُرحتُ في علاقاتي مع الآخرين، جرحًا عميقًا، ولا أودُّ المرور بهذه التجربة مرّةً أخرى».

ـ «أعرف. كنتَ صادقًا معي، ولذلك أودُّ أن أكون صادقةً معك. ولكنْ هلّا أعطيتني وقتًا قصيرًا قبل أن أجيبك؟»

ـ «كم مِن الوقت؟»

ـ «ما رأيك بثلاثة أيّام؟ اليومُ الأحد. أعتقد أنّه يمكننا التحدُّث يوم الأربعاء. وعندها سأجيبك. هل يناسبك مساء الأربعاء؟»

«نعم». لم يكن في حاجةٍ إلى مراجعة جدوله. فنادرًا ما يكون لديْه أيّ ارتباطٍ بعد حلول الظلام.

ـ «لنتناول العشاء معًا. يمكننا أن نناقش الأمور عندئذٍ. بصدق. هل هذا مناسب؟»

ـ «نعم، مناسب».

وأغلقا الخطّ.

في تلك الليلة، رأى تسوكورو حلمًا طويلًا غريبًا. كان جالسًا إلى بيانةٍ جديدةٍ ضخمةٍ يعزف سونيتة. مفاتيحها البيضُ شديدة البياض، والسّودُ شديدة السواد. ثمّة نوتةٌ موسيقيّةٌ كبيرةٌ مفتوحةٌ على الحامل. إلى جانبها، تقف امرأةٌ ترتدي فستانًا ضيّقًا خفيف السواد، تقلّب له الصفحات بسرعةٍ بأصابعها البيض الطويلة. كان توقيتها دقيقًا. شعرُها الأسود يصل إلى خصرها. كلُّ شيءٍ في المشهد يبدو في تدرُّجاتٍ من الأبيض والأسود. لم تكن هناك ألوانٌ أخرى.

لم يعرف من كتب السونيتة، لكنّها كانت مقطوعةً طويلة، في نوتةٍ سميكةٍ تشبه دليل الهاتف. الصفحات ملأى، مغطّاةٌ بالأسود تمامًا. كانت معزوفةً صعبة، معقّدة، تتطلّب تكنيكًا رفيعًا. لم يكن قد رآها من قبل، لكنّه استطاع أن يقرأها بسرعة، فيدرك ما فيها من رؤيةٍ، ويحوّلها

إلى صوت. يشبه ذلك القدرةَ على تصوُّر مخطَّطٍ معقَّدٍ ثلاثيّ الأبعاد. كان يملك تلك القدرة. تتسابق أصابعه العشرة المتمرّسة على المفاتيح كالزوبعة. كانت تجربةً باهرةً منعشة. أن يحلّ تلك الشيفرات كلّها أسرع من أيِّ شخصٍ آخر، فيمنحها على الفور شكلًا ومادّةً.

كان مستغرقًا في العزف، وثمّة شعاعٌ من الإلهام يخترق جسده، كبرقٍ في عصر يومٍ صيفيّ. للموسيقى تركيبٌ طموحٌ بارع، وفي الوقت نفسه كانت عميقة. كانت تعبّر بصدقٍ ودقّةٍ، وعلى نحوٍ ملموسٍ تمامًا، عمّا يعنيه أن يكون المرء حيًّا. هناك جانبٌ من العالم لا يمكن التعبير عنه إلّا بالموسيقى. سرت في أوصاله متعةٌ خالصة، وفخرٌ بأنّه هو الذي يعزف تلك الموسيقى.

لكنّ هذا لم يكن رأي الجالسَيْن أمامه، للأسف. كانوا يتململون في مقاعدهم، ضجرين منزعجين. كان يسمع صرير الكراسي، والسعال. بدا واضحًا أنّهم لسببٍ لا يعلمه لم يقدّروا تلك الموسيقى حقّ قدرها.

كان يعزف في القاعة الكبرى في بلاطٍ ملكيّ. الأرضيّة من الرخام الأملس، والسقف مقوّس، يتساقط من منتصفه ضوءٌ طبيعيٌّ جميل. خمسون شخصًا على الأقلّ يجلسون على مقاعد وثيرةٍ وهم يستمعون إلى الموسيقى. متأنّقون، ذوو مظهرٍ راقٍ، ولا شكّ في أنّهم ذوو ثقافةٍ عالية، لكنّهم لسوء الحظّ لم يقدّروا تلك الموسيقى الرائعة.

ازداد صخبهم بمرور الوقت، وطغى على الموسيقى. لم يَعُد في وسعه أن يسمع الموسيقى التي يعزفها، وإنّما ضوضاء عالية مضخّمة، بأصوات سعالٍ وتأوّهات استياء. لكنّ عينَيه ظلّتا مثبّتَتَيْن على النوتة، وأصابعه تسرع فوق المفاتيح، كأنّه مسكون.

فجأةً، أدرك أنَّ المرأة التي ترتدي الأسود وتقلّب الصفحات لديْها ستَّة أصابع. والإصبع السادس في حجم خنصرها تقريبًا. شهقَ، وأحسّ برجفةٍ في صدره. كان يريد أن يرفع عينَيْه وينظر إلى المرأة الواقفة إلى جانبه. من تكون؟ هل يعرفها؟ لكنَّه لم يستطع أن يحوِّل بصره لحظةً عن النوتة، حتّى وإنْ لم يكن هناك شخصٌ واحدٌ ينصت لعزفه الآن.

وعندها استيقظ تسوكورو. كانت الأرقام الخضراء على الساعة الجانبيَّة تشير إلى الثانية وخمس وثلاثين دقيقة. جسده مضمَّخٌ بالعرق، وقلبه ما يزال يخفق بإيقاع الوقت. نهض، ونزع منامته، ومسح جسمه بمنشفة، وارتدى قميصًا وسروالًا داخليًّا، ثمّ جلس على الأريكة في الصالة. هناك في الظلام، أخذ يفكّر في سارا. أنّب نفسه على كلّ كلمةٍ قالها لسارا في الهاتف. لم يكن يجدر به أن يقول ما قاله.

أراد أن يهاتفها ويسحب كلّ ما قاله، ولكنْ لا يمكن أن يتَّصل بأحدٍ قربَ الثالثة فجرًا. من المستحيل أن يطلب منها نسيانَ ما قاله. قال لنفسه: إنْ فعلتُ، سأخسرها.

ثمّ تحوّلت أفكارُه إلى إري. إري كورونو هاتاينن، أمّ الطفلتَيْن. تصوّر البحيرةَ الزرقاء خلف أشجار البتولا البيضاء، والقارب الصغير الذي يخبط الرصيف. تصوّر الفخاريّات بتصاميمها الجميلة، وتغريد الطيور، ونباح الكلب، وعزف ألفر برندل المُتقن لـ **سنوات الحجّ**. تخيَّل إحساسَه بنهدَي إري على صدره. أنفاسها الدافئة، ووجنتَيْها المبلّلتَيْن بالدموع. تخيَّل كلّ الاحتمالات المفقودة، والزمن الذي لن يعود أبدًا.

في برهةٍ من لقائهما، كانا صامتَيْن تمامًا، لا يبحثان حتّى عن كلمات، وآذانهما مشدودة إلى أصوات الطيور في الخارج. كانت تغنّي لحنًا غريبًا، لحنًا يخترق الغابات مرّةً بعد مرّة.

قالت له إري: «الطيور تعلّم أطفالها كيف تغرّد. لم أكن أعرف هذا قبل أن آتي إلى هنا. لم أكن أعرف أنّ الطيور تتعلّم التغريد».

قال تسوكورو في نفسه: حيواتُنا مثل نوتةٍ موسيقيّةٍ معقّدة، مليئةٍ بكلّ أشكال الكتابة المشفّرة، ذات السنّ وثلاثيّة السنّ وغيرها من الرموز الموسيقيّة الغريبة. يكاد يكون من المستحيل تفسيرها تفسيرًا صحيحًا، وحتّى لو استطعتَ تفسيرها ثمّ تحويلها إلى أصواتٍ صحيحة، فلا ضمانة بأنّ الناس سيفهمونها فهمًا صحيحًا، أو يقدّرون المعنى الكامن فيها. لا ضمانة بأنّها ستسعدهم. لماذا يا ترى تكون المفردات في حياة الناس ملتويةً هكذا؟

قالت له إري: احرص على التمسّك بسارا. أنت في حاجةٍ إليها. لا ينقصك شيءٌ يا تسوكورو. ثقْ بنفسك وكُن شجاعًا. هذا كلّ ما تحتاج إليه.

وحاذر من العفاريت الأقزام.

فكّر في سارا، وتخيّلها عاريةً بين ذراعَيْ شخصٍ ما. لا، ليس شخصًا ما. فقد رأى الرجل فعلًا. كانت سارا تبدو في غاية السعادة، وابتسامتها العريضة تكشف عن أسنانها البيض الجميلة. أغمض عينَيْه في الظلام وضغط بأطراف أصابعه على جبينه. لم يكن يستطيع احتمال هذا الشعور، حتّى إن كانت ثلاثة أيّامٍ فقط.

رفع السمّاعة واتّصل بسارا. كانت الساعة الآن قُبيل الرابعة. رنَّ الهاتف اثنتا عشرة مرّةً، ثمّ ردّت سارا.

ـ «أعتذر عن الاتّصال بك في هذا الوقت. لكنّي أريد التحدُّث معك».

ـ «في هذا الوقت؟ كم الساعة الآن؟»

ـ «الرابعة تقريبًا».

فقالت وهي تبدو نصف نائمة: «يا إلهي، كنتُ قد نسيتُ وجود وقتٍ كهذا. مَن مات؟»

ـ «لم يمت أحد. لم يمت أحدٌ بعد. ولكنْ لديَّ شيءٌ لا بدَّ من أن أخبرك به الليلة».

ـ «شيءٌ مثل ماذا؟»

ـ «أنا أحبُّك يا سارا، وأريدك أكثر من أيِّ شيءٍ آخر».

سمعَ حفيفًا، وكأنّها تتحسّس بيدها بحثًا عن شيءٍ ما. سعلت سهلةً قصيرة، ثمّ أصدرت صوتًا عدّهُ زفيرًا.

ـ «هل لي أن أتحدَّث عن هذا الموضوع الآن؟»

ـ «طبعًا. الساعة لم تبلغ الرابعة بعد. يمكنك أن تقول ما تشاء. لن يسمعك أحد. الجميع غارقون في النوم».

ـ «صِدقًا أحبُّكِ، وأريدك».

ـ «هذا ما أردت قوله لي من اتّصالك في الساعة التي لم تبلغ الرابعة صباحًا بعد؟»

ـ «نعم».

ـ «هل شربتَ شيئًا؟»

ـ «ولا قطرة».

ـ «أها. بالنسبة إلى شخصٍ عِلميّ، فأنتَ بالتّأكيد قادرٌ على أن تكون عاطفيًا جدًّا».

ـ «الأمر لا يختلف عن بناء المحطّات».

ـ «وكيف ذلك؟»

ـ «الأمر بسيط. فلولا المحطّة، ما توقّفت القطارات عندها. أوّل ما ينبغي لي فعله هو أن أتصوّر المحطّة في عقلي، ثمّ أمنحها لونًا وشكلًا. هذا أوّل شيء. وإنْ وجدتُ خللًا ما، يمكنني أن أصلحه لاحقًا. وقد اعتدتُ هذا النوع من العمل».

ـ «لأنّك مهندسٌ فذّ».

ـ «هذا ما أرجوه».

ـ «وأنتَ الآن تبني محطّةً خاصّة، لي أنا، حتى الفجر تقريبًا؟»

ـ «نعم، لأنّي أحبُّكِ، وأريدك».

ـ «أنا متعلّقةٌ بك أيضًا، جدًّا. وكلّما التقينا انجذبتُ إليك أكثر». ثمّ سكتت، كأنّما تترك سطرًا فارغًا في صفحة. «لكنّنا في الساعة الرابعة فجرًا. الآن. حتّى الطيور لم تستيقظ بعد. وهذا وقتٌ مبكّرٌ جدًّا لا يصلح للتفكير السليم. هلّا انتظرتَ ثلاثة أيّام؟»

ـ «حسنٌ، ولكنْ ثلاثة أيّامٍ فقط. لا أظنّني أحتمل أكثر من ذلك. ولهذا السّبب اتّصلتُ بكِ في هذه الساعة».

- «ثلاثةُ أيّام تكفي يا تسوكورو. سألتزم بموعد إنهاء البناء. لا تقلق. أراك مساء الأربعاء».

- «أعتذر على إيقاظك».

- «لا بأس. يسعدني أن أعرف بأنّ الوقت يمرُّ أيضًا في الرابعة صباحًا. هل طلع الصبح؟»

- «ليس بعد. لكنّه سيطلع عمّا قريب، وتبدأ الطيور في التغريد».

- «الطائر المبكّر يفوز بالدود».

- «نظريًا، نعم».

- «لكنّي لا أظنُّ أنّي أستطيع البقاء مستيقظةً كي أرى ذلك».

- «تصبحين على خير».

- «تسوكورو؟»

- «نعم».

- «تصبح على خير. هدّئ من روعك، وخذْ قسطًا من الراحة».

وأغلقتْ الخطّ.

-19-

محطّة شنجوكو محطّةٌ ضخمة، يمرّ بها كلّ يومٍ ما يقرب من ثلاثة ملايين ونصف مليون إنسان، حتّى أنّ موسوعة غينيس للأرقام القياسيّة أدرجتْ هذه المحطّة بوصفها المحطّة «ذات الركّاب الأكثر عددًا في العالم». خطوطٌ عديدةٌ تمرّ من هناك، أهمُّها خطوط «تشو» و«سوبو» و«يامانوتي» و«شونانـشنجوكو» و«ناريتا السريع». تتقاطع السكك الحديديّة فيها بطرقٍ معقّدةٍ ملتوية، لتصل إلى ستة عشر رصيفًا. هناك أيضًا خطّان خاصّان (خطّ «أوداكيو» وخطّ «كيو)، وثلاثة خطوط مترو. متاهةٌ حقيقيّة. وفي ساعة الذروة، تتحوّل تلك المتاهة إلى بحرٍ من البشر، يُزبد ويرغي ويهدر مندفعًا إلى المداخل والمخارج. تيّاراتٌ بشريّةٌ تتشابك وهي تغيّر القطارات، فتنتج عن ذلك زوابع خطيرة. لا يوجد نبيٌّ، مهما بلغ صلاحُه، يستطيع أن يشقّ ذلك البحر العنيف المضطرب.

يصعب على المرء أن يصدّق بأنّه في كلّ صباحٍ ومساء، طوال خمسة أيّامٍ في الأسبوع، يتعامل طاقم المحطّة بكفاءةٍ عاليةٍ مع هذا

الاكتساح البشري، من دون مشكلةٍ تُذكر، وهو طاقم لا يمكن لأحدٍ أن يعتبره ملائمًا، من حيث عدده، لتلك المهمّة. ساعة الذروة الصباحيّة تحديدًا صعبةٌ للغاية؛ فالكلُّ يركض للوصول إلى وجهته، في موعده، ولا أحد منهم في مزاجٍ حسن. ما يزالون متعبين، نصف نائمين، وركوب القطارات الممتلئة حتّى آخرها في حدّ ذاته يستنزفهم جسديًّا ومعنويًّا. المحظوظُ منهم من يجد مقعدًا يجلس عليه. كان تسوكورو دائمًا يندهش كيف أنّه لا تندلع أعمال شغبٍ في المحطّة، ولا تقع أيّ حوادث دمويّةٍ هناك. ولو أنّ فرقةً إرهابيّةً قرّرت أن تستهدف واحدًا من هذه القطارات المزدحمة، لراحت أرواحٌ كثيرة. كان هذا هو الكابوس الفظيع بالنّسبة إلى من يعملون في سكك الحديد، والشرطة، والركّاب طبعًا. وإلى الآن لا توجد طريقةٌ لمنع ذلك، لاسيّما وقد حدث هذا الكابوس فعلًا في طوكيو، في ربيع 1995م.

يظلُّ موظّفو المحطّة يتلون التنبيهات في السمّاعات، مع نغمةٍ تتكرّر تشير إلى مغادرة القطارات، فيما تقرأ البوّابات الإلكترونيّة قدرًا هائلًا من المعلومات من تذاكر الركّاب وبطاقاتهم. وصول القطارات ورحيلها المحسوب بالثانية يشبه ما تفعله حيوانات المزرعة التي تدرّبت طويلًا على ذلك، تلفظُ الركّاب وتسحبهم، وتغلق أبوابها بنفاد صبرٍ كي تصل إلى محطّتها التالية. تندفع الحشود في السلالم صعودًا أو نزولًا، وإنْ داس أحدهم على قدمك من الخلف وانخلع حذاؤك، فلن تجده مرّةً أخرى. يغيب الحذاء في تلك الرمال المتحرّكة، ويختفي إلى الأبد. أمّا الشخص الذي يلاقي هذا المصير فسوف يقضي يومًا شاقًّا، يمشي متثاقلًا بحذاءٍ واحد.

في أوائل التسعينيّات، وقبل انفجار الفقّاعة الاقتصاديّة في اليابان، نشرتْ صحيفةٌ أميركيّةٌ رائدة صورةً كبيرةً لركّابٍ ينزلون

السلالم في ساعة الذروة من صباحٍ شتائيٍّ في محطة شنجوكو (أو ربَّما محطَّة طوكيو، فالأمر ينطبق عليهما معًا). كان الركَّاب جميعًا ينظرون إلى الأسفل وكأنَّهم متَّفقون على ذلك، بتعابير متعبةٍ متجهِّمة، يبدون أقرب إلى السمك المعلَّب منهم إلى البشر. كتبتْ الصحيفة تقول: «قد تكون اليابان ثريَّةً، لكنَّ معظم اليابانيِّين يبدون هكذا، تعساء خافضي أبصارهم». وانتشرتْ الصورةُ انتشارًا كبيرًا.

لم يدرِ تسوكورو ما إذا كان معظم اليابانيِّين تعساء كما يدَّعي المقال. لكنَّ خفض أبصار معظم الركَّاب وهم ينزلون السلالم في محطَّة شنجوكو في الصباح المزدحم لم يكن بسبب تعاستهم بقدر ما كان ناتجًا عن قلقٍ حول موطئ أقدامهم. حاذِر من زلَّة القدم، أو فقدِ حذائك. هذه هي القضايا الكبرى التي تدور في عقول الركَّاب في تلك المحطَّة أثناء ساعة الذروة. غير أنَّ المقال لا يقدِّم هذا التفسير، أو أيَّ سياقٍ للصورة. بالتَّأكيد لم يكن من السَّهل على من ينظر إلى تلك الصورة أن يعدّ أولئك المتَّشحين بالمعاطف الداكنة، الخافضي أبصارهم، سعداء. وبطبيعة الحال، من المنطقيّ أن ترى المجتمع الذي لا يستطيع فيه الناس أن يتنقَّلوا صباحًا من دون خوفٍ على فقدان أحذيتهم مجتمعًا تعيسًا.

تفكَّر تسوكورو في مقدار الوقت الذي يقضيه الناس في ذهابهم وإيابهم من العمل كلّ يوم. قد يكون المتوسَّط بين ساعةٍ وساعةٍ ونصف. فإنْ كان الموظَّف العاديّ في طوكيو متزوِّجًا ولديْه طفلٌ أو اثنان ويريد أن يمتلك بيتًا، لا خيار أمامه سوى أن يسكن في الضواحي ويقضي ذلك الوقت في التنقُّل بين البيت والعمل. ساعتان أو ثلاث كلّ يوم تنقضي في ذلك التنقُّل. وإن كنتَ محظوظًا، يمكنك أن تقرأ صحيفةً أو كتابًا

في القطار. قد تستمع إلى جهاز «الأيبود» أو إلى سيمفونية هايدن، أو إلى حصّة تعليم الإسبانيّة. قد يغمض البعض عينَيْه، ويستغرق في تأمُّلٍ ميتافيزيقيٍّ عميق. مع ذلك، فمن الصعب أن تعتبر هاتَيْن الساعتَيْن أو الثلاثة وقتًا مفيدًا أو مجزيًا. كم من الوقت يُنتزع من حياة الإنسان، ثمّ يتلاشى في ذلك الانتقال عديم النفع (على الأرجح) من النقطة ألف إلى النقطة باء! كم هو مُنهكٌ هذا الأمر، ومرهق!

غير أنّ تسوكورو تازاكي (موظّف السكك الحديديّة المسؤول عن تصميم المحطّات) لم يكن مضطرًّا إلى شغل عقله بتلك المشكلات. تلك ليست حياته، والناس أحرارٌ في حيواتهم. وكلُّ شخصٍ حرٌّ في رأيه، ما إذا كان المجتمع سعيدًا أم تعيسًا. أمّا تسوكورو فعليه أن يفكّر في أسرع طريقةٍ وأكفأها للحفاظ على سلاسة التدفُّق الهائل من البشر. في هذه الوظيفة، ليس المطلوب منك أن تفكّر، بل أن تطبّق أفضل الإجراءات الدقيقة المختَبرة. في نهاية المطاف، لم يكن تسوكورو مفكّرًا أو عالم اجتماع، بل مجرّد مهندس.

كان يحبّ النظر إلى محطّة شنجوكو.

فحين يذهب إلى المحطّة يشتري تذكرةً من الآلة، ويصعد إلى الرصيف بين المسار رقم «9» والمسار رقم 10». هناك تمرّ القطارات السريعة في خطّ «تشو»، قطارات المسافات الطويلة إلى أماكن مثل «ماتسوموتو» و»كوفو». هنا يقلّ عدد الركّاب والقطارات، مقارنةً بالخطوط التي تجري داخل المدينة. هكذا، يجلس على الدكّة، ويتأمّل ما يدور في تلك المحطّة.

كان تسوكورو يزور محطّات القطار مثلما يستمتع الناس بحضور الحفلات ومشاهدة الأفلام والسهر في المراقص ومتابعة المباريات

والتفرّج على بضائع المحال. فما إن يجد وقتًا لا يفعل فيه شيئًا حتّى يتوجّه إلى محطّةٍ من المحطّات. ما إن يشعر بتوتّرٍ أو يحتاج إلى التّفكير حتّى تحمله قدماه من تلقاء عَفْوهما إلى محطّة قطار. يجلس في صمتٍ على دكّةٍ في الرصيف، يرتشف القهوة التي اشتراها من أحد الأكشاك، ويتفقّد أوقات الوصول والمغادرة في الجدول الصغير المطبوع الذي يحمله معه دائمًا في حقيبته. كان يمكنه أن يقضي ساعاتٍ هكذا. حين كان طالبًا في الجامعة، كان يتفحّص مخطّط المحطّة وتدفُّق الركاب وحركة الموظّفين، ويدوّن ملاحظاتٍ تفصيليّةٍ في دفتره، لكنّه الآن تجاوز تلك المرحلة.

قطارٌ سريعٌ يتباطأ ليتوقّف في المحطّة. تنفتح الأبواب وينزل الركّاب واحدًا بعد الآخر. رؤية ذلك وحدها تشعره بالهدوء والرضا. فحين تصل القطارات وتغادر وفق الجدول، يشعر بالفخر، حتّى وإنْ لم تكن تلك المحطّة من ضمن المحطّات التي أشرفت شركته على بنائها. هو حسٌ بسيطٌ هادئٌ بالفخر. سرعان ما يصعد فريق تنظيفٍ إلى القطار، يجمع القمامة، ويعيد المقاعد الدوّارة إلى وضعها الطبيعيّ. طاقمٌ جديدٌ يصعد إلى القطار، يرتدون قبّعاتٍ وزيًّا موحّدًا، يتفقّدون مهامّهم بسرعة. تتعدّل وجهة القطار ورقمه في اللوحات. كلٌّ شيءٍ يمضي في سلاسةٍ وفعاليّة، بالثانية. هذا هو عالم تسوكورو تازاكي.

فعل الشيء نفسه في محطّة هلسنكي المركزيّة. أخذ جدولًا بمواعيد القطارات، وجلس على دكّةٍ يرتشف القهوة من كوبٍ ورقيّ، يشاهد قطارات المسافات البعيدة، تصل وتغادر. كان يتفقّد وجهاتها والأماكن التي أتت منها على الخارطة. يراقب الركّاب وهم ينزلون، والآخرين وهم يهرعون إلى أرصفتهم لركوب قطاراتٍ أخرى. يتابع

حركة الموظَّفين وطاقم القطار. كالعادة، كان هذا يريحه. مرَّ الوقت بسلاسةٍ، وتجانس. لم يكن هناك شيءٌ يختلف عن محطَّة شنجوكو، عدا أنَّه لم يفهم التنبيهات المذاعة بالفنلنديَّة. الإجراءاتُ المتَّبعة في إدارة محطَّات القطار تتشابه في كلِّ مكانٍ في العالم، فالعمليَّة كلُّها تعتمد على مهنيَّةٍ دقيقةٍ ماهرة. هيَّجَ هذا شعورَه بأنَّه ولا شكَّ في المكان الصحيح.

في يوم الثلاثاء، أنهى تسوكورو عمله بُعيد الثامنة مساءً. كان الوحيد الباقي في المكتب في ذلك الوقت. لم تبقَ لديْه أعمالٌ طارئة يُضطرّ إلى البقاء من أجلها، لكنَّه يودُّ أن ينتهي من كلِّ الأعمال قبل أن يلتقي سارا مساء الأربعاء.

قرَّر أن يغادر، فأغلق حاسوبه، ووضع الأقراص والمستندات المهمَّة في درجه، وأطفأ الأضواء. خرج من المدخل الخلفيّ للشركة، وودَّع الحارس الذي كان يعرفه بالمنظر فقط.

قال له الحارس: «تصبح على خير، سيِّدي».

فكَّر في تناول عشاءٍ في مكانٍ ما، لكنَّه لم يكن جائعًا. مع ذلك، لم يشعر بالرغبة في العودة إلى شقَّته، فتوجَّه إلى محطَّة شنجوكو. كعادته، اشترى قهوةً من الكشك. كانت ليلةً عالية الحرارة والرطوبة من ليالي طوكيو الصيفيَّة، وقد تفصَّد العرق في ظهره، لكنَّه مع ذلك فضَّل شرب قهوةٍ ساخنةٍ على مشروبٍ بارد. تلك عادتُه.

وكالمعتاد، كان القطار الليليّ الأخير المتَّجه إلى ماتسوموتو على الرصيف «9» يستعدّ للرحيل. سار طاقم القطار فيه يتأكَّدون بأعينٍ متمرِّسةٍ دؤوبةٍ من أنَّ كلَّ شيءٍ على ما يرام. لم يكن القطار صقيلًا لامعًا مثل قطار شنكانسن السريع، لكنَّ تسوكورو كان يحبّ هذه القطارات

العاديَّة، من طراز «E257». سوف يتحرَّك القطار إلى «شيوجيري» على خطّ «تشو»، ثمَّ يتغيَّر إلى خطّ «شينونوي» نحو «ماتسوموتو»، فيصل إليها في الحادية عشرة وخمس وخمسين دقيقة. سيظلّ القطار في منطقةٍ حضريَّةٍ حتَّى وصوله إلى «هاتشيوجي»، ولذلك كان عليه أن يقلّل من ضوضائه، وبعد ذلك، يسير عبر الجبال في انعطافاتٍ كثيرة، ولذلك لا يمكن أن يصل إلى سرعته القصوى. كانت الرحلة تستغرق وقتًا طويلًا قياسًا بالمسافة.

ما يزال هناك بعض الوقت قبل أن يفتح القطار أبوابه، لكنَّ الركَّاب كانوا يسرعون في شراء الطعام وعلب البيرة والمجلَّات من الكشك. كان بعضهم قد وضع سمَّاعات «آيبود» في أذنَيْه، فغابوا في عوالمهم الصغيرة. هناك غيرهم يقبضون على هواتفهم الذكيَّة ويكتبون الرسائل، وآخرون يتحدَّثون بصوتٍ عالٍ في هواتفهم المحمولة حتَّى غطَّى صوتهم على تنبيهات المحطَّة. رأى تسوكورو عشيقَيْن شابَّيْن يجلسان فوق دكَّةٍ يفضي واحدهم إلى الآخر بسعادة، ومرَّ من أمامه ولدان توأمان ناعسان في الخامسة أو السادسة من العمر، يجرُّهما والداهما نحو القطار. الولدان ممسكان بجهازَي ألعابٍ صغيرَيْن. شابَّان أجنبيَّان يحملان حقيبتَي ظهرٍ تبدوان ثقيلتَيْن، فيما تحمل شابَّةٌ آلة «تشيلو» على ظهرها. مرَّت من أمامه امرأةٌ فاتنة الملامح من جانب وجهها. كلُّهم يركبون قطار الليل، ذاهبين إلى وجهةٍ بعيدة. حسدَهم تسوكورو. كان لديْهم على الأقلّ مكانٌ يتوقون للذهاب إليه.

أمَّا تسوكورو تازاكي فلم يكن لديْه مكانٌ يتوق للذهاب إليه.

فجأةً، أدرك أنَّه لم يذهب إلى ماتسوموتو أو كوفو قطّ. أو شيوجيري. ولا حتَّى ذهب إلى «هاتشيوجي» الأقرب منها بكثير. كان قد شاهد

عددًا لا حصر له من القطارات السريعة المتَّجهة إلى ماتسوموتو ترحل من ذلك الرصيف، ولكنْ لم يخطر في باله قطّ أنّ بإمكانه ركوب القطار. وتساءل في نفسه لماذا لم يفكّر في ذلك من قبل.

تخيَّل تسوكورو نفسه يركب القطار ويتَّجه إلى ماتسوموتو. لم يكن أمرًا مستحيلًا، ولم تبدُ له فكرةً سيّئة. كان قد قرَّر فجأةً أن يسافر إلى فنلندا، فما الذي يمنعه من الذهاب إلى ماتسوموتو؟ تساءل في نفسه عن طبيعة البلدة والناس الذين يعيشون فيها. لكنَّه هزَّ رأسه ومسح تلك الأفكار. في صباح الغد، سيكون من المستحيل أن يعود إلى طوكيو في الوقت المناسب للعمل. كان يعرف ذلك من دون الحاجة إلى رؤية الجدول. وغدًا مساءً سيلتقي سارا. كان يومًا مهمًّا جدًّا بالنّسبة إليه، ولا يمكنه أن يستجيب لنزوةٍ كهذه.

شرب ما تبقَّى من قهوته التي فترت، وألقى بالكوب الورقيّ في سلّة قمامةٍ قريبة.

ليس لتسوكورو تازاكي مكانٌ يتوق للذهاب إليه. كانت هذه أغنية حياته. ليس لديْه مكانٌ يتوق للذهاب إليه، ولا مكانٌ يعود إليه. لا في الماضي، ولا الآن. المكان الوحيد الذي يتوق إليه هو المكان الذي يجلس فيه الآن.

ثمّ قال لنفسه: لا، هذا غير صحيح.

في مرحلةٍ من حياته، كان لديْه مكانٌ يتوق للذهاب إليه. في الثانويّة، كان قلبه معلّقًا بالالتحاق بكلّيّة الهندسة في طوكيو، والتخصّص في تصميم محطّات القطار. كان ذلك هو المكان الذي يتوق للذهاب إليه. اجتهد في الدراسة كي يحقّق ذلك. ورغم أنّ مشرفه الأكاديمي

صارحه بأنّ فرصته للالتحاق بتلك الكلّيّة لا تزيد عن (20%)، إلّا أنّه بذل كلّ ما في وسعه، واستطاع أن يجتاز تلك العقبة. لا يذكر أنّه بذل ذلك القدر من الجهد الدراسيّ في حياته. فلم يُخلق للتنافس مع الآخرين على مركزٍ أو علامات، ولكنْ ما إن تعطيه هدفًا محدّدًا حتّى يكرّس روحه له. بذل جهدًا أكبر من كلّ التوقُّعات، وكانت التجربة في حدّ ذاتها اكتشافًا جديدًا وثمينًا لقدراته.

ونتيجةً لذلك، ترك ناغويا، وعاش وحيدًا في طوكيو. كان يشتاق إلى العودة إلى بلدته بأسرع وقتٍ ممكنٍ لكي يلتقي أصدقاءه، ولو لفترةٍ قصيرة. في تلك المرحلة، كانت ناغويا هي المكان الذي يتوق للعودة إليه. كان يسافر ذهابًا وإيابًا بين المكانَيْن طوال أكثر من عام، ثمّ انكسرت تلك الدائرة فجأةً، من دون إنذار.

بعد ذلك، لم يَعُد لديْه مكانٌ يذهب إليه أو مكانٌ يمكنه العودة إليه. ظلّ بيتُه في ناغويا، تعيش فيه أمّه وأخته الكبرى، وهناك غرفته التي ظلّت على حالها. أختُه الأخرى تسكن في ناغويا أيضًا. كان يزورهم مرّةً أو مرّتيْن في العام، بدافع الواجب لا أكثر، وكانوا يستقبلونه بحرارةٍ دائمًا، لكنّه لم يجد شيئًا يودُّ الحديث فيه مع أمّه وأخته. لم يستشعر أيّ حنينٍ وهو هناك. أمّا ما يريدونه منه فهو تسوكورو القديم، الشخص الذي تركه تسوكورو وراءه ولم يَعُد في حاجةٍ إليه. ولإحياء ذلك الشخص أمام أسرته، كان عليه أن يؤدّي دورًا لا يرتاح إليه. حتّى شوارع ناغويا بدتْ بعيدةً، كئيبة. لم يكن فيها شيءٌ يريده، ولا شيء فيها يوحي بلمحةٍ من دفء.

أمّا طوكيو فكانت المكان الذي شاء القدر أن ينتهي إليه. هو المكان الذي درس فيه، والتحق بوظيفةٍ فيه. هو المكان الذي ينتمي

إليه بحكم المهنة، فلا تعني له المدينةُ شيئًا أكثر من ذلك. كان يعيش في طوكيو حياةً هادئةً منظّمة، مثل لاجئٍ في أرضٍ غريبة، لا يثير المتاعب ولا يتسبب في مشكلةٍ، يلزم الحذر دائمًا كي لا يُسحب منه تصريح إقامته. عاش وكأنّه لاجئٌ من حياته. فطوكيو هي المكان المثاليّ لشخصٍ يبحث عن حياةٍ يكون فيها مجهولًا.

لم يكن لديْه صديقٌ عزيز. دخلتْ عدّة حبيباتٍ حياته، لكنّ العلاقة لم تستمرّ. كانت العلاقة تفتر، ثم يتبعها انفصالٌ هادئ. لم يستطع أحدٌ أن يسكن قلبه. في الواقع، لم يكن يبحث عن ذلك النوع من العلاقة، ولا النساء اللائي واعدهنّ كنّ يردن ذلك.

قال في نفسه هو جالسٌ على الدكّة في محطّة شنجوكو: وكأنّ حياتي توقّفت في سنّ العشرين. فالأيّام التي جاءت بعد ذلك لم يكن لها وزنٌ أو جوهرٌ حقيقيّ. مرّت السنوات، في صمت، كنسمةٍ هادئة. لم تترك ندوبًا، أو أسى، ولم تثر فيه أيّ عاطفةٍ قويّة. لم تورثه سعادةً أو ذكرياتٍ تستحقّ الذكر. وها هو الآن مقبلٌ على منتصف العمر. لا.. ما تزال أمامه بضع سنواتٍ قبل ذلك. لكنّه بالفعل لم يعد شابًا صغيرًا.

كانت إري أيضًا، بمعنًى من المعاني، لاجئةً من حياتها. فهي تحمل معها ندوبًا عاطفيّة، ندوبًا قادتها إلى ترك كلّ شيءٍ والابتعاد عن بلدها. لقد اختارت بنفسها عالمًا جديدًا في فنلندا. والآن لديْها زوجٌ وطفلتان، إلى جانب عملها الذي أغرقت نفسها فيه تمامًا. لديْها كوخٌ صيفيٌّ قرب البحيرة، وكلبٌ صغير. تعلّمت الفنلنديّة، وها هي تبني عالمها الصغير شيئًا فشيئًا. ثمّ قال تسوكورو لنفسه: وهذا يجعلها مختلفةً عنّي.

نظر إلى ساعة «هوير» على معصمه الأيسر. كانت تشير إلى الثامنة وخمسين دقيقة. بدأ الركّاب في صعود القطار السريع. كانوا يجرُّون أمتعتهم معهم، واحدًا تلو الآخر، يخزّنونها في الأرفف العلويّة ويلقون بأنفسهم على مقاعدهم، مستقرّين في العربات المكيَّفة، يرتشفون من مشروباتهم الباردة. كان يراهم من نوافذ القطار.

ورث تلك الساعة من والده. واحدةٌ من الأشياء الماديّة التي ورثها. كانت ساعةً جميلة، «أنتيكةً» من أوائل الستينيّات. إن لم يلبسها ثلاثة أيّام أخّرتْ، وتوقّفت عقاربها. لا شكَّ في أنّه عبء، لكنَّ هذا تحديدًا ما كان يحبّه تسوكورو فيها. فقد كانت عبارةً عن جهازٍ ميكانيكيّ، أبدعتْه مهارةٌ حرفيّةٌ عالية. لا يوجد بها «كوارتز» أو شرائح صغيرة، فكلُّ شيءٍ يعمل بالزنبرك والتروس. ظلّت نصف قرنٍ تعمل جيّدًا، وما تزال حتّى الآن دقيقةً دقّةً مدهشة.

لم يشترِ تسوكورو ساعةً قطّ. في طفولته، كان يُعطى ساعةً رخيصة، يستخدمها من دون أدنى تفكير. لم يكن يهتمّ بنوعها، ما دامت تشير إلى الوقت الصحيح. هذه حدود علاقته بالساعات. ساعةٌ رقميّةٌ بسيطة من «كاسيو» تكفيه. لذلك حين ورث هذه الساعة الغالية كذكرى من والده، لم تُثر فيه أيّ مشاعر. اضطُرّ إلى ارتدائها بانتظام كي لا تؤخّر، لكنّه ما إن اعتادها حتّى تعلّق بها كثيرًا. كان يطيب له ثقلُها في معصمه، وأزيزها الميكانيكيّ الذي تصدره. فجأةً، وجد نفسه ينظر في الساعة أكثر ممّا كان يفعل سابقًا، وكلّما نظر في الساعة مرّ طيفُ والده، خافتًا، في عقله.

الحقيقةُ أنّه لم يكن يذكر والده جيّدًا، ولم تكن له ذكرياتٌ دافئةٌ معه. لا يذكر أنّه ذهب مع أبيه إلى أيّ مكانٍ قطّ، منذ صغره إلى أن كبر، ولا يذكر حوارًا حميميًّا بينهما. لم يكن والده من النوع الذي يتحدّث

كثيرًا (في البيت، على الأقلّ)، ناهيك عن أنّ أعماله كانت تشغله دائمًا، لدرجةٍ أنّه نادرًا ما يكون في البيت. الآن فقط أدرك تسوكورو أنّ والده ربّما اتّخذ خليلةً له في مكانٍ ما.

لم يشعر تسوكورو بأنّه والده الحقيقي، بقدرِ ما كان بالنّسبة إليه قريبًا يزورهم كثيرًا. فقد نشأ تسوكورو على عين أمّه وأختَيْه، ولم يكن يعرف شيئًا عن حياة والده، وأفكاره والقيم التي يعيش بها، وما كان يفعله في يومه. كلُّ ما يعرفه عن والده هو أنّه وُلد في «غيفو»، وفقد والدَيْه صغيرًا، فربّاه عمّه الذي كان راهبًا بوذيًّا. تخرّج في الثانويّة وأسّس شركةً حقّقت نجاحًا هائلًا، واستطاع في نهاية المطاف أن يجني ثروةً طائلة. لم يكن يحبّ الحديث عن الصعوبات التي واجهها في حياته، على عكس معظم الذين يعانون في حياتهم، ربّما لأنّه لم يرد أن يسترجع تلك الأيّام العصيبة. على أيِّ حال، كان واضحًا أنّه يمتلك موهبةً فذّة في إدارة الأعمال، فقد كان يحصل فورًا على كلّ ما يريد، ويتخلّص من كلّ ما لا يريده. ورثتْ أخت تسوكورو الكبرى جزئيًّا هذه المهارة عن أبيها، فيما ورثت الأخت الصغرى شيئًا من طبيعة أمّها الاجتماعيّة المرحة. أمّا تسوكورو فلم يرث شيئًا من تلك الصفات.

كان أبوه يدخّن أكثر من خمسين سيجارةً في اليوم، ومات بسرطان الرئة. حين ذهب تسوكورو لزيارته في المستشفى، وجده عاجزًا عن الكلام. بدا أنّه يريد قول شيءٍ، لكنّه لم يستطع. وبعد شهرٍ، مات على سريره في المستشفى، وترك لتسوكورو شقّةً في جيوغاوكا، وحسابًا بنكيًّا باسمه فيه مبلغٌ محترم، وساعة «هوير».

لا، هناك شيءٌ آخر تركه والده له. اسمه. تسوكورو تازاكي.

حين قال تسوكورو إنّه يريد الدراسة في كلّيّة هندسةٍ في طوكيو، بدا والده خائب الأمل، لأنّ ابنه الوحيد لم يكن يرغب في أخذ مكان أبيه في شركة العقارات التي عمل جاهدًا في بنائها. لكنّه رغم ذلك، قرّر أن يدعم ابنه دعمًا كاملًا في رغبته بأن يصبح مهندسًا. «ما دامت هذه رغبتك، فلتذهب إلى طوكيو، ويسعدني أن أتحمّل كلّ المصاريف. من الجيّد أن تتعلّم مهارةً وتبني شيئًا حقيقيًا. هذا إسهامٌ في المجتمع. تعلّم جيّدًا وابنِ محطّاتٍ كثيرة». بدا والده سعيدًا بأنّ الاسم الذي اختاره لابنه قد أصبح مناسبًا له. لعلّها المرّة الأولى التي يرى فيها تسوكورو والده راضيًا. هي بالتأكيد المرّة الوحيدة التي رآه فيها يعبّر عن رضاه.

في تمام التاسعة مساءً، ووفق الجدول المقرّر، تحرّك القطار إلى ماتسوموتو. أخذ تسوكورو ينظر من الدكّة إلى أضواء المسارات وهي تخبو، والقطار يسرع ويختفي أخيرًا في تلك الليلة الصيفيّة. وما إن اختفت آخر عربةٍ من القطار حتّى بدا كلّ شيءٍ حوله مهجورًا. حتّى أضواء المدينة نفسها كأنّها خفتتْ قليلًا، كما يحدث حين تنتهي المسرحيّة وتنطفئ الأضواء بعد المشهد الأخير. نهض من الدكّة ونزل السلالم ببطء. غادر محطّة شنجوكو، وذهب إلى مطعمٍ قريب، وطلب شريحة لحمٍ وسلطة بطاطس. لم يستطع أن يأكلها كلّها، لا لأنّ المذاق كان سيّئًا، فقد كان هذا المطعم معروفًا بشرائح اللحم اللذيذة، بل لضعفِ شهيّته. وكالعادة، لم يشرب إلّا نصف كأس البيرة.

ركب القطار إلى بيته، واستحمّ، ففرك جسمه كلّه بالصابون. ثمّ ارتدى رداء حمّامٍ أخضر كانت قد أهدته إيّاه حبيبةٌ سابقة في عيد ميلاده الثلاثين، وجلس على كرسيٍّ في الشرفة، تاركًا نسيم الليل يهبّ

عليه وهو ينصت إلى صخب المدينة الهامس. كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة، لكنّه لم يكن متعبًا.

تذكّر تسوكورو تلك الأيّام التي كان يفكّر فيها في الموت، ولا شيء غير الموت. ها قد انقضت ست عشرة سنة. كان آنذاك مقتنعًا بأنّه إذا ما ركّز على مشاعره، فقد يتوقّف قلبه من تلقاء نفسه. أنّه إذا ما ركّز مشاعره على شيءٍ محدّدٍ فقد يتعرّض قلبه لضربةٍ قاتلة، كالعدسة التي يُوجّه الضوءُ منها على ورقةٍ فتحرقها. كان يرجو حدوث ذلك أكثر من أيّ شيءٍ آخر. لكنّ الشهور مرّت، ولم يتوقّف قلبُه. يبدو أنّ القلب لا يتوقّف بتلك السهولة.

من بعيدٍ، تناهى إلى سمعه صوت طيّارةٍ مروحيّة، وبدا أنّها تقترب. نظر إلى السماء، يحاول أن يراها. بدت مثل مرسالٍ يحمل أخبارًا مهمّة. لكنّه لم يرها، وخبا صوت المراوح، ثمّ اختفى تمامًا ناحية الغرب، ولم تبقَ إلّا همهمة المدينة الخفيفة في ذلك الليل.

لعلّ شيرو في ذلك الوقت كانت ترغب في أن تكسر مجموعتهم. هكذا فجأةً خطر له هذا الاحتمال، فظلّ يتأمّل تلك الفرضيّة على مهلٍ، وهو جالس على الكرسيّ في الشرفة.

كانوا مقرّبين بعضهم إلى بعضٍ في تلك الفترة، في مجموعةٍ لا تنفصل. تقبّل كلٌّ منهم الآخر كما هو، وفهمه، وأحسّ برضًا عميقٍ وسعادةٍ في تلك العلاقة. لكنّ تلك النعمة الصغيرة لم تكن لتدوم هكذا إلى الأبد. فالفردوس منذورةٌ للفقد في وقتٍ من الأوقات. سوف ينضج كلٌّ منهم، ويتّخذ مسارًا مختلفًا في حياته. وبمرور الوقت، لا بدّ من أن ينشأ بينهم حسٌّ محتومٌ من الضيق، وخطُّ صدعٍ رفيعٍ سيتحوّل من

دون شكٍّ إلى صدعٍ أكبر. ربّما لم تكن أعصاب شيرو تستطيع احتمال ضغط ما سوف يأتي، أي صدمة النهاية المحتومة لتلك المجموعة من الأصدقاء. لعلّها شعرتْ بأنَّ عليها أن تحلّ تلك الأواصر العاطفيّة بنفسها، قبل أن تخنقها حين تنهار المجموعة، كالغريق الذي تسحبه الدوّامة مع غرق السفينة.

كان يمكن لتسوكورو (إلى حدٍّ ما) أن يفهم ذلك الشعور. الآن يستطيع. وتوتُّر المشاعر الجنسيّة المكبوتة بدأ يكتسب أهمّيّةً أكبر ممّا تخيّله. لعلّ تلك الأحلام الجنسيّة التي رآها لاحقًا كانت مجرّد امتدادٍ لذلك التوتُّر. وما من شكٍّ في أنَّ ذلك التوتُّر كان له أثرٌ أيضًا على الأربعة الآخرين، رغم أنّه لا يعرفه.

لقد أرادت شيرو أن تهرب من ذلك الوضع. لعلّها لم تستطع أن تحتمل تلك العلاقة القويّة التي تتطلّب حمايةً مستمرّةً للمشاعر. كانت شيرو بكلّ تأكيدٍ أكثرهم حساسيّة، ولا بدّ من أنّها استشعرت ذلك الصدع قبل الجميع. لكنّها لم تستطع أن تخرج من تلك الدائرة. لم تكن تملك القوّة التي يتطلّبها ذلك الهروب. ولهذا السبب، جعلتْ من تسوكورو مارقًا عن المجموعة. في ذلك الوقت، كان تسوكورو أوّل من خرج، فكان الحلقة الأضعف. بعبارةٍ أخرى، كان يستحقّ العقاب. وفي غمرة حيرتها وصدمة اغتصابها (لن يعرف أحدٌ من اغتصبها أو الظروف التي قادت إلى ذلك)، قطعتْ الحلقة الأضعف، كمن يسحب حبل الطوارئ لإيقاف القطار. هذه الصورة تفسّر أشياء كثيرة. في ذلك الوقت، اتّبعت شيرو غريزتها واختارت تسوكورو كحجرِ عبورٍ، كوسيلةٍ تتسلّق بها أسوار المجموعة. ولا بدّ من أنَّ شيرو حدست بأنَّ تسوكورو سيستطيع النجاة من ذلك الوضع المريع، وهي النتيجة التي خلصت إليها إري أيضًا.

تسوكورو تازاكي، الرزين الرصين، الذي دائمًا ما يفعل الأشياء على مهله.

نهض تسوكورو عن كرسيّه ودخل شقّته. تناول زجاجة «كتي سارك» من الرفّ، وصبّ لنفسه كأسًا حمله إلى الشرفة. جلس مرّةً أخرى، وظلّ برهةً يضغط بأصابع يده اليمنى على جبينه.

قال لنفسه: لا. لستُ رزينًا ولا رصينًا. ولستُ أفعل الأشياء على مهلي. هي مسألة توازنٍ لا أكثر. كلُّ ما في الأمر أنّي أجيد نقل الثقل الذي أحمله من جانبٍ إلى آخر من نقطة الارتكاز. قد يرى الآخرون في ذلك رزانةً، لكنّ الأمر ليس سهلًا، ويستغرق وقتًا أطول ممّا يبدو. وحتّى إن وصلتُ إلى التوازن الصحيح، فذلك لا يقلّل من الوزن الإجماليّ شيئًا.

لكنّه كان يستطيع أن يغفر لشيرو، أو بالأحرى يوزو. فقد كانت تحمل في داخلها جرحًا عميقًا، وكلُّ ما فعلتْه هو أنّها كانت تحاول حماية نفسها باستماتةٍ شديدة. كانت ضعيفةً، وليس لديها مظهرٌ خارجيٌّ قويٌّ يحميها. لم تملك سوى أن تبحث عن ملاذٍ آمنٍ حين يأتيها الخطر، ولم يكن في وسعها أن تختار الطريقة. فمن ذا الذي يستطيع أن يلومها؟ لكنّها مهما ابتعدت، لم تستطع الهروب، فقد أخذ طيف العنف يلاحقها بلا هوادة. ذلك ما سمّته إري روحًا شرّيرة. وذات ليلةٍ هادئةٍ باردةٍ ماطرة، دقّت على بابها، وخنقت عنقها الجميل. كان ذلك على الأرجح قد تقرّر مسبقًا، وسوف يحدث في وقته ومكانه.

عاد تسوكورو إلى الداخل، والتقط الهاتف، وضغط من دون تفكيرٍ على زرّ الاتّصال السريع بسارا. رنّ الهاتف ثلاث مرّات، ثمّ فكّر

تسوكورو مرّةً أخرى وأغلق الخطّ. كان الوقت متأخّرًا. وسوف يراها غدًا. سيراها ويكلّمها وجهًا لوجه. لا يجدر به أن يختصر الطريق. لكنّه أراد أن يسمع صوتها، الآن. تفجّر الشعور في داخله طاغيًا، فلم يَعُد قادرًا على كبت ذلك الإلحاح.

وضع أسطوانة لازار بيرمن سَنوات الحجّ في مشغّل الأسطوانات، وأنزل الإبرة. حوّل انتباهه إلى الموسيقى. خطر له مشهد البحيرة في هامينلينا. الستارة البيضاء ترفرف مع الريح، وصوت القارب الصغير وهو يخبط في الرصيف. الطيور في الغابات تعلّم صغارها التغريد. رائحة «الشامبو» الليمونيّة في شعر إري. قوّةُ الحياة، وإرادة العيش، في تلك النعومة الوافرة في نهدَيْها. البلغم الصلب الذي بصقه ذلك الشّيخ المتجهّم على العشب. الكلبُ إذْ يهزّ ذيله في حماسٍ وهو يقفز في سيّارة «الرينو». وبينما كان تسوكورو يلاحق الذكريات من تلك المشاهد، عاد إليه الألم الذي شعر به سابقًا في صدره.

شرب تسوكورو الـ«كتي سارك»، مستمتعًا برائحته. ازداد الدفء في معدته. كان يشرب كأسًا صغيرًا كهذا كلّ ليلةٍ، منذ صيف عامه الجامعيّ الثانيّ وحتى الشتاء التالي، حين كانت تنتابه أفكار الموت ولا شيء غيرها. من دون ذلك الكأس، لم يكن يجد إلى النوم سبيلًا.

فجأةً، رنّ الهاتف. نهض عن الأريكة، ورفع الإبرة عن الأسطوانة، ووقف أمام الهاتف. لا بدّ من أن تكون سارا. لا أحد يمكن أن يتّصل به في هذه الساعة من الليل. لقد عرفتْ أنّه هو الذي اتّصل بها، فعاودت الاتّصال. تردّد تسوكورو، بينما رنّ الهاتف اثنتا عشرة مرّة، لا يدري ما إذا كان ينبغي له أن يردّ. عضّ شفتَه بقوّة، وحبس أنفاسه، وحدّق بتركيزٍ في الهاتف، مثل شخصٍ يقف على مبعدةٍ، يتأمّل معادلةً صعبةً على

السبّورة، يحاول أن يحلّها. لكنّه لم يجد أيّ مفاتيحٍ للحلّ. توقّف الهاتف عن الرنين، ثمّ حلّ الصمت. صمتٌ عميق، له إيحاء.

وكي يملأ ذلك الصمت، أعاد تسوكورو الإبرة على الأسطوانة مرّةً أخرى، وعاد إلى الأريكة كي يستمع إلى الموسيقى. حاول هذه المرّة جاهدًا ألّا يفكّر في شيءٍ محدّد. ركّز تمامًا في الموسيقى، بعينَيْن مغمضتَيْن، وعقلٍ فارغ. وأخيرًا، كأنّما من سِحر اللحن، تراقصتْ الصور خلف جفنَيْه، واحدةً بعد الأخرى، تظهر وتختفي. سلسلةٌ من الصور لا شكل لها ولا معنى، تظهر من أطراف وعيه المظلمة، فتعبرُ من دون صوتٍ إلى مجال الرؤية، وما تلبث أن تُسحب إلى الجانب الآخر وتختفي مرّةً أخرى. كأنّها كائناتٌ دقيقةٌ تسبح تحت عدسة المجهر.

بعد ربع ساعة، رنّ الهاتف مرّةً أخرى، فلم يردّ. بقي في مكانه، يستمع إلى الموسيقى، ويحدّق في الهاتف الأسود. لم يحسب عدد الرنّات.

توقّف الرنين في نهاية الأمر، فلم يسمع شيئًا سوى الموسيقى.

قال في نفسه: سارا، أريد أن أسمع صوتك. أريد أن أسمعه أكثر من أيّ شيءٍ آخر. لكنّني لا أستطيع الكلام الآن. قال في نفسه وهو مستلقٍ على الأريكة مغمض عينَيْه: غدًا ربّما تختار سارا الرجل الآخر، وليس أنا. هذا احتمالٌ وارد. وقد يكون الخيار الصحيح لها.

أيُّ رجلٍ هذا الآخر؟ وأيُّ نوعٍ من العلاقة بينهما؟ ومنذ متى يتقابلان؟ لم يكن في وسع تسوكورو أن يعرف شيئًا عن ذلك. ولم يكن يريد أن يعرف. ثمّة شيءٌ واحدٌ يستطيع قوله الآن: لا يملك إلّا القليل يقدّمه لها. شيءٌ محدودٌ في مقداره، ونوعه. فهل يرغب أيّ إنسانٍ في ذلك الشيء القليل الذي يملكه؟

قالت له سارا إنَّ لديْها مشاعر تجاهه. ولا يوجد ما يدفعه إلى الشكّ في ذلك. لكنَّ العالم مليءٌ بالأشياء التي لا تكفيها المشاعر. الحياةُ طويلةٌ، وقد تكون قاسيةً في بعض الأحيان. وأحيانًا، لا بدَّ من وجود ضحايا. لا بدَّ من أن يؤدّي أحدٌ ذلك الدور. وأجساد البشر هشَّةٌ، يسهل تحطيمها. فما إنْ تشقّها حتّى تنزف.

قال في نفسه: إن لم تخترني سارا غدًا، فقد أموت فعلًا. أموت في الواقع، أو مجازيًّا. لا فرق. لكنّي هذه المرّة، أودُّ بكلّ تأكيدٍ أن أموت. هكذا تختفي كلّ لمحةٍ من لونٍ في تسوكورو تازاكي عديم اللون، ويغادر هذا العالم في هدوء. كلُّ شيءٍ سيصبح عدمًا، ولا يبقى سوى كتلةٍ من التراب المتجمّد.

لا يهمّ. هذا الشيء كاد يحدث عدَّة مرّاتٍ من قبل، ولن يكون من الغريب أن يحدث فعلًا هذه المرّة. هي ظاهرةٌ جسديّة، لا أكثر. يتهالك الزنبرك في الساعة، ويقترب عزمُ الدوران من الصفر، إلى أن تتعطّل التروس تمامًا وتتوقّف العقارب في مكانٍ محدَّد. يحلّ الصمت. أوليس الأمرُ هكذا؟

انسلّ إلى فراشه قبل أن يتغيَّر التاريخ، وأطفأ المصباح الجانبيّ. قال لنفسه: ما أجمل أن أحلم الآن بسارا! حلمًا جنسيًّا. أو غير جنسيّ. كلاهما جيّد. ولكنْ ليس حلمًا حزينًا. سيسعد كثيرًا إن رأى حلمًا يلمس فيه جسدها. فهو مجرَّد حلم.

اشتاق إليها اشتياقًا يفوق قدرته على التعبير. القدرةُ على الرغبة في شخصٍ ما بتلك القوّة كانت رائعة. الشعور واقعيٌّ جدًّا، طاغٍ جدًّا. لم يشعر بذلك منذ زمن. بل لعلّه لم يشعر به قطّ. لم يكن كلُّ ما في الأمر

رائعًا؛ فثمّة ألمٌ في صدره، وضيق تنفُّس، وخوفٌ ورجفةٌ تتملّكه. ولكنْ حتّى ذلك الألم أصبح الآن جزءًا مهمًّا من الشعور الذي يشعر به. لم يكن يريد أن يترك ذلك الشعور ينسلّ من قبضته. فإنْ فَقَده، قد لا يجد هذا الدفء مرّةً أخرى. الأفضل له أن يفقد نفسه.

عليكَ أن تتمسّك بها، مهما حدث. لئنْ تركتها الآن، لن تجد حبيبةً أخرى في حياتك.

إري محقّةٌ فيما قالته. كان عليه أن يحصل عليها، بأيّ طريقة. لكنّه لا يستطيع أن يقرّر هذا من تلقاء نفسه. هي مسألةٌ يقرّرها شخصان، بين القلب والقلب. ثمّة شيءٌ يُمنح، وشيءٌ يُقبل. كلُّ شيءٍ يتوقّف على يوم غد. قال في نفسه: إن اختارتني سارا، فسوف أطلب يدها مباشرةً. وأقدّم لها كلّ ما يمكنني أن أقدّمه.. كلُّ شيء. قبل أن أتيه في غابةٍ مظلمة. قبل أن تنال منّي العفاريت الأقزام.

لم نفقد كلَّ شيءٍ بمرور الزمن. هذا ما كان عليه أن يقوله لإري حين ودّعته عند البحيرة في فنلندا. لكنّه في تلك اللحظة لم يستطع أن يعبّر عنه.

كنّا نؤمن إيمانًا حقيقيًّا بشيء، وكنّا ندرك أنّنا من الناس الذين يستطيعون الإيمان بشيءٍ إيمانًا خالصًا. لا يمكن لهذا النوع من الأمل أن يختفي وحسب.

هدّأ تسوكورو نفسه، وأغمض عينَيْه، ونام. بدأت أضواءُ وعيه تخبو، مثل آخر قطارٍ ليليٍّ سريع، إذْ تزداد سرعته شيئًا فشيئًا، ويصغر حتّى تجرّه أعماق الليل، فيختفي فيها. ولا يبقى سوى صوت الريح وهي تتسلّل عبر مجموعةٍ من أشجار البتولا البيضاء.

خمسة أصدقاءٍ في المدرسة الثانويَّة، لا يكادون يفترقون. وتشاء الصدفة أن تشير أسماؤهم جميعًا إلى لونٍ من الألوان. فالأوَّل أكاماتسو (أي: الصنوبر الأحمر)، والثاني أومي (أي: البحر الأزرق)، والثالثة شيران (أي: الجذر الأبيض)، والرابعة كورونو (أي: الحقل الأسود). وحدَه تسوكورو تازاكي الذي ليس في اسمه نصيبٌ من اللون.

ويحدثُ أن يقرِّر هؤلاء الأصدقاء على حين فجأةٍ قطع صلتهم بتسوكورو تازاكي نهائيًّا. هكذا يهيمُ تسوكورو في حياته، يحمل وِزرًا لا يعرفه، ولا يستطيع حتى أن يتَّخذ أصدقاء مقرَّبين مرَّةً أخرى.

غير أنّه يلتقي بعد سنواتٍ طويلةٍ شخصًا ينكأ ذلك الجرح القديم، ويحثّه على اكتشاف السبب، وما حدث في تلك السنوات الضائعة.

"تبدو الرواية مثل أحجية، أو لغز، أو بالأحرى مثل قصيدة هايكو: مترعةٌ بالجمال، والغرابة، واللون".

MEG WOLITZER, NPR

"تتفنّن الرواية في إضفاء مسحةٍ كافكاويَّةٍ في غموضها وجوّها العامّ".

THE GUARDIAN

"ساحرة... جميلةٌ في غرابتها... شديدة التأثير".

THE INDEPENDENT

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

ISBN: 978-9953-89-748-6

9789953897486

دار الآداب